

# تاريخ مكة المكرمة زمن المماليك



تأليف دكتور  
حامد زيان غانم  
كلية الآداب - جامعة القاهرة

القاهرة ١٤٣٦-٢٠١٥م

توزيع

مكتبة الثقافة العربية داخل حرم جامعة القاهرة



# تاريخ مكة المكرمة زمن المماليك

تأليف

دكتور حامد زيان غانم

كلية الآداب - جامعة القاهرة

القاهرة ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

توزيع:

مكتبة الثقافة العربية داخل حرم جامعة القاهرة

اسم المؤلف : أ.د. حامد زيان

اسم الكتاب : تاريخ مكة المكرمة زمن المماليك

الناشر: دار الثقافة العربية

رقم إيداع : ١٣٣٤٣ / ٢٠١٥

الرقم الدولي: 978-977-222-3657

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## مقدمة :

تمتعت أم القرى، مكة المكرمة، مركز العالم، عبر التاريخ بأهمية خاصة لما حوته من الكعبة المشرفة التي تهفو إليها قلوب المسلمين من كل أنحاء العالم الإسلامي مشرقه ومغربيه.

ومنذ قديم الزمان تنافست مختلف القوى على تقديم خدماتها للحجاج والمعتمرين، كما تنافست على نيل شرف الخطابة باسمها على منبر المسجد الحرام حتى تصبح لها الكلمة العليا بوصفها حامية حمي بيت الله الحرام.

ولم يكن المماليك ببعيدين عن هذا التنافس، فبعد قيام دولتهم في مصر والشام، واشتداد عودهم، وما حازوه من انتصارات على المغول والفرنج، تبوأوا زعامة العالم الإسلامي، وتطلعوا إلى أن يكللوا هذا النجاح بفرض سلطانهم على مكة المكرمة، وذكر اسمهم على منبر المسجد الحرام؛ ليؤكدوا شرعيتهم في الحكم للقاصي والداني، وأنهم -دون غيرهم- أحق بحكم تلك البلاد التي فرضوا سلطانهم عليها.

وفي هذه الدراسة سوف أتحدث - بإذن الله - ، عن تاريخ مكة المكرمة في ظل دولة المماليك منذ بداية تطلعهم لفرض نفوذهم عليها، وإقامة الخطبة لهم على منابرها، إلى أن تدهورت دولتهم وسقطت في أيدي غرماثهم من بني عثمان.

وتاريخ المماليك تاريخ طويل امتد عبر مائتين وخمسة وسبعين عامًا هجرية (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) توالى على حكمهم خمسة وعشرون سلطانًا بحريًا، وأربعة وعشرون سلطانًا جركسيًا، تباينوا بين القوة والضعف، والجميع بذلوا جهودهم في سبيل توطيد علاقتهم مع أشرف مكة المكرمة، وفرضوا نفوذهم عليهم سواء عن طريق الدبلوماسية أم القوة، كما عملوا عبر امتداد تاريخهم الطويل على إبعاد أية قوة أخرى عن التدخل في شئون الحرمين الشريفين.

وإذا كان المماليك -لكونهم أصحاب النفوذ والسلطان على مكة المكرمة- قد قاموا بسد احتياجات الحجاج والمعتمرين وأشرف مكة المكرمة من مال وغذاء، إلا

أنهم استفادوا من وراء ذلك استفادة كبيرة، فبالإضافة إلى الاستفادة السياسية والمعنوية حيث أصبحوا أصحاب حق شرعي في الحكم بوصفهم خدام الحرمين الشريفين، استفادوا أيضاً استفادة مالية كبيرة من وراء تحصيلهم تلك الضرائب التي فرضوها على بعض موانئ بلاد الحجاز وبخاصة ميناء جدة الذي أدرّ عليهم أموالاً طائلة في أواخر عصر المماليك.

ولسهولة الدراسة تم تقسيمها إلى بابين رئيسيين وفق عَصْرِ المماليك؛ تحدث كل منها عن علاقة كل دولة مملوكية بمكة المكرمة، فجاء الباب الأول بعنوان : " مكة المكرمة والمماليك البحرية ". أما الباب الثاني فقد حمل عنوان : " مكة المكرمة والمماليك الجراكسة ".

وتم تقسيم كل باب إلى ثمانية فصول اشتملت في مجموعها على التطورات السياسية لمكة المكرمة خلال هذه الفترة الطويلة من الزمن.

وبعد .. فليس من حقي أن أذكر ذلك الجهد الذي بذلته في استخلاص المادة العلمية التي حواها ذلك العمل من مختلف المصادر والمراجع، وما تبع ذلك من عمليات الكتابة التاريخية، مروراً بالنقد والتمحيص، حتى خرج هذا العمل العلمي بصورته الحالية، وإنني احتسبه عند الله عزَّ وجلَّ خالصاً له، عسى أن يُنتفع به، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لخدمة الإسلام والمسلمين.


والله ولي التوفيق .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

**أ.د. حامد زيان غانم**

الجيزة - الهرم

غرة شعبان عام ١٤٣٦هـ / ١٩ مايو ٢٠١٥م





**الباب الأول**

**مكة المكرمة**

**و**

**الممالك البحرية**

( ٧٨٤-٦٤٨ هـ / ١٢٥٠-١٣٨٢ م )





# الفصل الأول

النفوذ المملوكى فى مكة المكرمة



كان لسقوط الدولة الأيوبية في مصر عقب مقتل السلطان تورانشاه في شهر المحرم عام ٦٤٨هـ/ مايو ١٢٥٠م،<sup>(١)</sup> ثم قيام المماليك بالقبض على زمام الأمور داخل مصر، ثم محاربة المغول الذين هددوا العالم الإسلامي، وانتصارهم عليهم في معركة عين جالوت في شهر رمضان من عام ٦٥٨هـ/ سبتمبر ١٢٦٠م<sup>(٢)</sup>، كل ذلك كان له أثر كبير في ترسيخ حكمهم ليس فقط في مصر، وإنما امتد أيضا إلى بلاد الشام.

وإذا كانت الفترة الأولى من حكم المماليك - ونقصد بها الفترة الممتدة من حكم شجر الدر وحتى مقتل السلطان المظفر قطز (١٠ صفر ٦٤٨هـ - ١٦ ذي القعدة ٦٥٨هـ/ ١٥ مايو ١٢٥٠م - ٢٥ أكتوبر ١٢٦٠م) - هي فترة اضطراب وفوضى، فإنه بوصول بيبرس إلى الحكم في نهاية عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، بدأت فترة الاستقرار<sup>(٣)</sup>.

(١) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الهند، حيدر آباد، ١٩٥١م، ج ٨، ق ٢، ص ٧٨٢، ابن أبيك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع، المعروف باسم: الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٣٨٢، انظر أيضا: حامد زيان: تاريخ مصر في العصر الأيوبي، القاهرة ٢٠١١، ص ٩٩.

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، نشر المطبعة الحسينية المصرية، ١٣٢٥هـ، ج ٣، ص ٢٠٥، المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٧م، ج ١، ق ١، ص ٤٣٠، ٤٣١.

- عين جالوت، يذكرها ياقوت باسم "عين الجالوت" وهي بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. انظر معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م، ج ٤، ص ١٧٧.

(٣) تولت شجر الدر حكم مصر - وهي أول سلاطين المماليك - لمدة ثمانين يوما فقط (من ١٠ صفر ٦٤١ إلى ٢٩ ربيع الثاني من نفس العام)، ثم تولى المعز أيبك لمدة سبع سنوات إلا ثلاثة وثلاثين يوما (من ٢٩ ربيع الثاني ٦٤٨هـ إلى ٢٤ ربيع الأول عام ٦٥٥هـ)، ثم تولى الملك المنصور على بن أيبك لمدة سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام (٢٦ ربيع الأول ٦٥٥هـ إلى ٢٤ ذي القعدة عام ٦٥٧هـ)، ثم تولى المظفر قطز لمدة أحد عشر شهرا وسبعة عشر يوما (من ٢٤ ذي القعدة عام ٦٥٧هـ إلى ١٦ ذي القعدة ٦٥٨هـ)، ثم تولى بيبرس السلطة في يوم الأحد ١٧ ذي القعدة عام ٦٥٨هـ. انظر المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٣٦١ - ٤٣٦.

وبوصول ركن الدين بيبرس إلى عرش سلطنة المماليك بمصر والشام يمكن القول بأن سلطة المماليك قد توطدت أقدامها، فقد تخلص المماليك من خطر الحملة الصليبية السابعة،<sup>(١)</sup> وخطر المغول، وزيادة في توطيد نفوذهم أقدم بيبرس على إحياء الخلافة العباسية في شهر رجب من عام ٥٦٥٩هـ/ يونيو ١٢٦١م،<sup>(٢)</sup> وما تبع ذلك من إصدار الخليفة المستنصر بالله العباسي تقليدا للظاهر بيبرس بحكم "الديار المصرية والبلاد الشامية، والديار البكرية، والحجازية، واليمينية، والفراتية، وما يتجدد من الفتوحات غورا وبحرا".<sup>(٣)</sup>

وإذا كان هذا التقليد قد جعل حكم بيبرس حكما شرعيا على مصر والشام وغيرها من البلاد، إلا أنه وحتى هذه اللحظة لم يكن قد بسط نفوذه على بلاد الحجاز ولم يخطب له على منابرها، ولذلك أخذ يفكر تفكيرا جديا في تحقيق هذا الهدف، ألا وهو بسط نفوذه على الحرمين الشريفين.<sup>(٤)</sup> وذلك حتى يضمن على حكمه هالة من الشرعية، خصوصا بعد أن ذكر كثير من المعاصرين أن هؤلاء المماليك عبيد.<sup>(٥)</sup>

- (١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٨١، المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٣٥٣.
- (٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة بولاق بمصر ١٢٨٤هـ، ج ٣، ص ٥٤٠، السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٧٤م، ص ٧٥٧-٧٥٨، انظر أيضا: حامد زيان: صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك، القاهرة، ١٩٧١، ص ١٨-٢٠.
- (٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج ٩، تحقيق دونالد س. ريتشارد، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٦١-٦٥، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر، القاهرة، دت، ج ١٠، ص ١١٣.
- (٤) لم يخطب باسم الملك الظاهر بيبرس بمكة المكرمة إلا في عام ٥٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م، يقول المقرئزي إنه في هذه السنة ورد الخبر مع الحاج بأنه خطب للسلطان - أي الظاهر بيبرس - بمكة: انظر السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٠٤.
- (٥) انظر على سبيل المثال ما قاله عنهم الشريف حصن الدين ثعلب، راجع: المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٣٨٦.
- الشريف حصن الدين ثعلب هو ابن الأمير نجم الدين علي بن فخر الدين إسماعيل بن حصن الدولة ثعلب بن يعقوب بن مسلم بن أبي جميل الجعدى. انظر: المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٣٨٦.

ولم يكن بيبرس أول حكام مصر والشام الذين يقومون ببسط نفوذهم على الحرمين الشريفين، إذ يحدثنا التاريخ أنه منذ أن استقل الأمير أحمد بن طولون بحكم مصر عام ٢٥٤هـ / ٨٦٨ م، مؤسساً بها دولة حملت اسمه، سعى إلى إقامة علاقات طيبة مع أمير مكة المكرمة.<sup>(١)</sup> ويشير المؤرخ الفاسي إلى أن أحمد بن طولون تولى إمرة مكة المكرمة في خلافة المعتمد على الله العباسي (٢٥٦-٢٧٩هـ / ٨٧٠-٨٩٢م)<sup>(٢)</sup>، كذلك فإن الخليفة العباسي الراضي بالله (٣٢٢-٣٢٩-٩٣٤-٩٤٠م) أسند حكم مكة المكرمة للأمير محمد بن طُفج الإخشيد حاكم مصر<sup>(٣)</sup>، والذي تباهى الإخشيد بذلك في رسالة أرسلها لرومانوس ليكابينوس Romanus Lecapinus الوصي على الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (Comstantine VII ٩١١-٩٥٩م).<sup>(٤)</sup>

- (١) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد على، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٦٥، ٢٩٨.
- (٢) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق لجنة من كبار العلماء، بيروت، د.ت، ج ٢، ص ١٨٨.
- الفاسي هو الإمام محمد بن أحمد بن علي ينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، ولد عام ٧٧٥هـ / ٣٧٣م بمكة المكرمة، حيث تعلم بها وبالمدينة المنورة... وغيرهما من البلاد مثل دمشق والرملة وغزة ونابلس والإسكندرية واليمن، ثم درّس وحدث بكل من الحرمين الشريفين والقاهرة ودمشق واليمن، وتولى القضاء بمكة المكرمة عام ٨٠٧هـ / ٤٠٤م، واستمر يليه إلى أن كف بصره عام ٨٢٨هـ / ٤٢٥م، وتوفي بمكة المكرمة عام ٨٣٢هـ / ٤٢٩م، انظر السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ج ٧، ص ١٨-١٩.
- (٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٧م، ج ٥، ص ٥٨.
- (٤) القلقشندی: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نشر دار الكتب المصرية، د.ت، ج ٧، ص ١٠، ١٨.
- ومما جاء في نص هذه الرسالة: "هذا إلى ما نتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة، والدلالات الطاهرة، فإننا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها، وعظيم قدرها، وما حوت من الفضل توفي على كل مملكة..." راجع القلقشندی: صبح الأعشى، ج ٧، ص ١٣، ١٤.
- تولى رومانوس ليكابينوس الوصاية على الإمبراطور قسطنطين السابع لمدة خمسة وثلاثين عاماً (٩١٩-٩٤٤م)، وخلال تلك المدة كان هو الإمبراطور الفعلي للبلاد.
- انظر: السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٣٩٥-٤٠٩،
- Ostrogorsky: History of the Byzantine State, Oxford, 1956, PP. 239- 246.

أما الفاطميون فبعد انتقالهم إلى مصر عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م، بذلوا ما فى وسعهم لبسط نفوذهم على الحرمين الشريفين، وقد اتبع الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥هـ / ٩٥٢ - ٩٧٥م) وسائل متعددة لتحقيق هذا الهدف، (١) وإذا كان النفوذ الفاطمى قد تزعزع بعض الشيء بعد وفاة المعز عام ٣٦٥هـ / ٩٧٥م، إلا أن خلفاءه بذلوا ما فى وسعهم للمحافظة على ذلك النفوذ فى مكة المكرمة. (٢)

وقد أكد كثير من المؤرخين على ما بذله الخلفاء الفاطميون فى هذا السبيل، ومن ذلك ما ذكره المؤرخ الفاسى من أن الخليفة العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ - ٣٨٦هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦م) أرسل عام ٣٦٥هـ / ٩٧٦م جيشا إلى مكة المكرمة حتى يعلن أمام الجميع بسط نفوذه على الحرمين الشريفين، كما أرسل من جهته أميرا على حج هذا العام (٣٦٥هـ / ٩٧٦م)، وأقيمت الخطبة له على منابر مكة المكرمة فى هذا العام (٣) وسيرا على تأكيد نشر النفوذ الفاطمى فى مكة المكرمة، قام الخليفة العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ - ٣٨٦هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦م) عام ٣٦٧هـ / ٩٧٧م بإرسال الأمير باديس بن زيرى الذى اشتهر بقوته وشدهته على الخارجين عن طاعة الفاطميين إلى مكة المكرمة، وبالفعل ما أن وصل باديس إلى مكة المكرمة حتى قبض على اللصوص وقطاع الطرق، ونشر الأمن، كما أكد على إقامة الخطبة للفاطميين بها. (٤)

- (١) المقرئى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، الجزء الأول، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٢٢٥.
- (٢) محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ١٦ - ٢٩؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٣٧ - ٢٣٩.
- (٣) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج ٢، ص ٢٤٦.
- (٤) الفاسى: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٤٧.

- باديس بن زيرى هو أخو أبو الفتوح يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى الذى استخلفه المعز لدين الله الفاطمى على حكم أفريقية (تونس) بعد مغادرته إياها متوجها إلى مصر. انظر: ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س كولان وآخرين، نشر المكتبة الأندلسية، د.ت، ج ١، ص ٢٢٨، وانظر أيضا: حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، نشر الدار السعودية للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٩٩٠م، ص ١، ٥٦٦.



غير أنه بضعف الدولة الفاطمية خلال عصرها الثاني، وما واكبه من ظهور السلاجقة، وقيامهم بأمر الخلافة العباسية مما ساعد على استعادة قوة العباسيين، ضعف النفوذ الفاطمي بمكة المكرمة، حيث يذكر المؤرخ ابن الأثير أنه في عام ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م أعيدت الخطبة للعباسيين بمكة المكرمة.<sup>(١)</sup> ويفهم من حديث ابن الأثير أن الشريف محمد بن أبي هاشم أمير مكة المكرمة<sup>(٢)</sup> هو الذي أرسل عام ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م، أي بعد أن تولى إمرة مكة المكرمة مباشرة، إلى السلطان السلجوقي الب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٣م) يخبره بقطع الخطبة للفاطميين، وإقامتها للخليفة العباسي.<sup>(٣)</sup>

(١) الكامل في التاريخ، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م، ج ١٠، ص ٦١.

- العصر الفاطمي الثاني: يطلق مصطلح العصر الفاطمي الثاني على الفترة التي تلت وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، وحتى سقوط الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م، وقد اتصفت بضعف سلطة الخلفاء الفاطميين، وسيطرة الوزراء عليهم. راجع: محمد جمال الدين سرور: مصر في عصر الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٨٧، وما بعدها.

- السلاجقة: ينتسب السلاجقة إلى جدهم الأكبر سلجوق بن دقاق، وينتمي إلى إحدى القبائل التركية (الغز)، التي دخلت في خدمة الدولة العباسية منذ عام ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م، واستطاع سلطانهم طغرلبيك إعادة الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى منصبه بعد أن عزله القائد البويهى أبو الحارث البسايري، ومنذ ذلك الوقت حكم السلاجقة في بغداد إلى جوار الخلفاء العباسيين. انظر: ابن طباطبا: الفخرى في الآداب السلطانية، نشر دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٢٩١، انظر أيضاً: حافظ أحمد حمدي: الشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي، القاهرة، ١٩٥٠م، ص ٣٤ - ٣٧.

(٢) محمد بن أبي هاشم هو أبو هاشم محمد بن جعفر بن محمد، تاج المعالي، ينتمي إلى بني فليته، وينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب، تولى إمارة مكة المكرمة بين سنتي ٤٦١ - ٤٨٧هـ / ١٠٦٩ - ١٠٩٤م، انظر: زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وآخرين، القاهرة، ١٩٥١م، ج ١، ص ٣١.

(٣) الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٦١، انظر أيضاً: ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٣، ص ٤٧٠.

- السلطان الب أرسلان: هو ابن السلطان جفري بك، ولد في المحرم عام ٤٣١هـ / ١٠٤٠م، وتولى سلطنة السلاجقة عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م، واستمر في الحكم إلى حين وفاته عام =

ومن سياق الأحداث يمكننا القول بأن قطع الخطبة للفاطميين بمكة المكرمة حدث قبل عام ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م، حيث يشير ابن كثير إلى أنه فى عام ٤٥٩هـ / ١٠٦٧م خطب بمكة المكرمة للخليفة القائم بأمر الله العباسى (٤٢٢ - ٤٦٧هـ / ١٠٣١ - ١٠٧٥م)<sup>(١)</sup>، ولم يتم إبلاغ الخليفة العباسى ولا السلاجقة القائمين على أمر الدولة العباسية بذلك إلا فى عام ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م؛ وذلك نتيجة القحط الذى عم بلاد الحجاز كلها، وانعدام الأقوات، لدرجة أن أمير مكة أخذ ما كان يوجد بأستار الكعبة والميزاب وصفائح الباب من ذهب، وسكه دنانير ودرهم، وفعل نفس الشئ أمير المدينة المنورة.<sup>(٢)</sup> وقد واكب ذلك ما قام به الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٦ - ١٠٩٤م) من قطع ما كان يرسله من مؤن وغلال إلى مكة المكرمة بسبب الأزمة الاقتصادية التى كانت تمر بها الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت

= ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م، وقد وصف فى المصادر بأنه كان سلطانا مهيبا، يمتاز بحسن السياسة والكياسة والقدرة على التغلب على الأعداء، ومن أهم المعارك التى خاضها ضد البيزنطيين، معركة مانكرت عام ٤٦٤هـ / ١٠٧١م، والتى وقع فيها الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع أسيرا فى يد السلطان الب أرسلان. انظر الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ص ٢٠١ - ٢١١، الراوندى: راحة الصدور وآية السرور، ترجمة إبراهيم الشواربى وآخرين، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ١٩٤.

(١) البداية والنهاية، نشر مكتبة المعارف، بيروت ١٩٨٥م، ج ١٢، ص ٩٦.

- يذكر الفاسى أنه دُعي على منابر مكة المكرمة لعلى بن محمد الصليحي صاحب اليمن (٤٢٩ - ٤٧٣هـ / ١٠٣٨ - ١٠٨٠م) عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م، انظر شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج ٢، ص ١٩٦، وانظر أيضا: العز بن فهد: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم شلتوت، مكة المكرمة، ١٩٨٦م، ج ١، ص ص ٥٠٠ - ٥٠٢.

(٢) ابن الجوزى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، طبع دائرة المعارف العثمانية، الهند، حيدر آباد الدكن، طبعة عام ١٣٥٩هـ، ج ٨، ص ٢٥٦، السيوطى: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٤٢١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٩٩.

مما زاد الحالة سوءاً. (١)

وفى ظل تلك الظروف الصعبة التي عاشها أهالي مكة المكرمة، أرسل أميرها إلى السلطان الب أرسلان يخبره بإقامة الخطبة له بعد الخليفة العباسي، وقطعها للفاطميين، وما أن علم بذلك الب أرسلان حتى أرسل إلى مكة المكرمة الأموال والغلال، كما وعد بإرسال عشرة آلاف دينار سنوياً إلى أمير مكة المكرمة. (٢)

غير أن الخطبة للعباسيين في السنوات التالية، أخذت تتأرجح بينهم وبين الخلفاء الفاطميين، فبعد أربع سنوات قطعت خطبة العباسيين بمكة المكرمة، وأعيدت الخطبة للفاطميين بعد أن أرسل الخليفة المستنصر بالله الفاطمي رسالة وبصحبته هدية جليلة للشريف أبي هاشم، وطلب منه إعادة الخطبة له، فاستجاب الشريف أبو هاشم لطلب الخليفة المستنصر بالله، ودعا له بمكة المكرمة في ذي الحجة من عام ٤٦٨هـ/١٠٧٦م. (٣)

وإذا كانت الخطبة بمكة المكرمة أخذت تنتقل من العباسيين إلى الفاطميين، (٤)

(١) العز بن فهد: غاية المرام بأخبار سلطنة البيت الحرام، ص ٥١٢.

- الخليفة المستنصر بالله هو أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله، ولد عام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م بالقاهرة، وتولى الخلافة في شهر شعبان من عام ٤٢٧هـ/يونية ١٠٣٦م، وله من العمر سبع سنوات، واستمر في الخلافة لمدة سنتين عاماً وأربعة أشهر وعدة أيام، حيث توفي في شهر ذي الحجة عام ٤٨٧هـ/ديسمبر ١٠٩٤م وله من العمر سبع وستون عاماً وعدة أشهر. انظر المقرئزي: إتعاظ الحنفيا بأخبار الأئمة الفاطميين الحلفاء، ج ٢، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٨٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥، طبعة دار الكتب المصرية، د.ت، ص ١-٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٩٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٦٧-٩٨، الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٢٧.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ١٩٧.

إلا أنها انتهت تمامًا بالنسبة للفاطميين منذ عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م، بعد أن استطاع القائد صلاح الدين إسقاط الدولة الفاطمية، ثم مد نفوذه إلى اليمن، وذلك على يد أخيه تورانشاه الذي توجه إلى مكة المكرمة، حيث دعا على منابرها باسم الخليفة العباسي ومن بعده للسلطان نور الدين محمود.<sup>(١)</sup>

وهكذا فبعد أن أسقط السلطان صلاح الدين الأيوبي الدولة الفاطمية بمصر عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م، استقرت الدعوة على منابر مكة المكرمة للخليفة العباسي، ثم لشريف مكة، ثم لصلاح الدين الأيوبي،<sup>(٢)</sup> وكان صلاح الدين الأيوبي حريصاً كل الحرص على تخفيف العناء عن الحجاج والزائرين للحرمين الشريفين، ومن ذلك ما قام به عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م من تعويض شريف مكة مكثراً بن فليته عما كان يأخذه من مكوس - ضرائب - من الحجاج، حيث تم إسقاط هذه المكوس في مقابل تعويض أمير مكة بثمانية آلاف إردب قمح ترسل إليه كل عام من مصر.<sup>(٣)</sup>

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية بالقاهرة، د.ت، ج ٣، ص ٥٥، الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٣٠.

- تورانشاه: هو شمس الدولة تورانشاه بن أيوب بن شادي، الأخ الأكبر لصلاح الدين، توفي عام ٥٧٦هـ / ١١٨٠م، انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٠٦، ٣٠٧.

- نور الدين محمود: هو أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي، ولد عام ٥١١هـ / ١١١٧م، تولى حكم حلب بعد وفاة والده عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م، ثم استطاع توحيد مملكة والده، وضم إليها مصر واليمن وبرقة، توفي عام ٥٦٩هـ / ١١٧٤م، انظر ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ص ١٦١-١٧٤، سبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج ٨، ق ١، ص ص ٣٠٥-٣٢٥.

(٢) ابن جبير: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار المعروف باسم رحلة ابن جبير، تحقيق وليم رايت، طبعة جب التذكارية عام ١٩٠٧م، ص ٩٥، ٩٦.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٣١.

- مكثراً بن فليته، هو مكثراً بن عيسى بن فليته بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم الحسنی، تولى إمرة مكة المكرمة عدة مرات؛ الأولى بين عامي ٥٧١ - ٥٧٢هـ / ١١٧٥ - ١١٧٦م، والثانية بين عامي ٥٨٤ - ٥٩٣هـ / ١١٨٨ - ١١٩٧م. انظر: ابن جبير: الرحلة، ص ٩٦، انظر أيضاً: زامباور: معجم الأنساب، ج ١، ص ٣١.

والواقع أن بنى أيوب اهتموا كثيراً بإقامة الدعوة لهم بمكة المكرمة، ومن ذلك ما حدث في عام ٦١١هـ / ١٢١٤م عندما توجه الملك المسعود بن الملك الكامل محمد في زمن سلطنة جدّه الملك العادل الأيوبي إلى مكة المكرمة، فدخلها وخطب لجدّه بها،<sup>(١)</sup> وفي أواخر عام ٦١٩هـ / ١٢٢٣م توجه الملك المسعود إلى مكة المكرمة مرة ثانية، وأخذها من يد الشريف الحسن بن قتادة الحسني، وخطب على منابرها باسم والده السلطان الملك الكامل محمد في أول جمعة من شهر المحرم عام ٦٢٠هـ / فبراير ١٢٢٣م.<sup>(٢)</sup>

وقد ذكر ابن خلكان أن الخطيب دعا للملك الكامل قائلاً: "صاحب مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبليتين،

(١) أبوشامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف باسم الذيل على الروضتين، نشر السيد عزت العطار، بيروت، ١٩٧٤م، ص ١٤٢.

- الملك المسعود صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن الملك الكامل محمد المعروف بالأقسييس، وهي كلمة تركية تعني "ما له اسم"، توفي مقتولاً عام ٦٤٨هـ / ١٢٤٩م. انظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٢٢٧؛ ابن أبيك: الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، ص ١٧٧.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الرابع، تحقيق: حسنين ربيع، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ص ١٢١ - ١٢٥، الجزء الخامس، تحقيق: حسنين ربيع، ص ٢.

- الشريف حسن بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم الحسني المكي، تولى إمارة مكة المكرمة بعد قتله لأبيه قتادة عام ٦١٧هـ / ١٢٢٠م، ولم يستمر طويلاً في إمرة مكة المكرمة، فقد أخذها منه الملك المسعود أقسييس الأيوبي عام ٦١٩هـ / ١٢٢٣م، وبعد أن فشل في العودة إلى حكم مكة المكرمة توجه إلى العراق حيث كانت نهايته بالقتل عام ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م. انظر: الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، ١٩٨٦م، ج ٤، ص ص ١٦٦ - ١٧٠، ج ٧، ص ٥٩.

- الملك الكامل محمد: هو ابن الملك العادل الأيوبي، ولد عام ٥٧٣هـ / ١١٧٧م، وتولى حكم الديار المصرية بعد وفاة أبيه عام ٦١٥هـ / ١٢١٨م، واستطاع توحيد الدولة الأيوبية في مصر والشام، توفي عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م. انظر: ابن أبيك: الدر المطلوب، ص ١٩٧، ٣٢٦.

ورب العلامتين، خادم الحرمين الشريفين". (١)

ومن الملاحظ أن هذه هي المرة الأولى التي يلقب فيها القائم برعاية الحرمين الشريفين بلقب "خادم الحرمين الشريفين"؛ وذلك لما كان يقوم به من رعاية لأهالي مكة المكرمة والمدينة المنورة، وللحجاج والزائرين، وقد شهد بذلك أحد المؤرخين المعاصرين فترة حكم الملك الكامل الأيوبي، فهذا هو المؤرخ أبو شامة الذي يقول في أحداث عام ٥٦٢١هـ / ١٢٢٤م "حجبت من الشام مع والدي - رحمه الله - على طريق تبوك والعلا، وهي أول السنين الأربع المتصلة التي وجد الحج فيها هنيئاً مريئاً من رخص الأسعار، والأمن في الطريق الشامية وبالحرمين... وأما مكة فبسبب أنها صارت في المملكة الكاملة المسعودية، فانقمع بها المفسدون، وسهل على الحاج أمر دخول الكعبة، فلم يزل بابها مفتوحاً ليلاً ونهاراً مدة مقام الحاج فيها، وكان الكامل قد أرضى بنى شيبه سدنة الكعبة بمال أطلقه لهم عوضاً عما كانوا يأخذونه بإغلاق الباب وفتحه لمن أرادوا". (٢)

(١) وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٨٢.

(٢) الذيل على الروضتين، ص ١٤٢، انظر أيضاً الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٣٦.

- المؤرخ أبو شامة: هو عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، ولد بدمشق عام ٥٥٩٩/١٢٠٣م، نال قسطاً كبيراً من العلم أهله لأن يشارك في الكثير من العلوم والفنون حيث ألف في الفقه والحديث واللغة والتاريخ، توفي عام ٦٦٥هـ/١٢٦٧م. انظر: أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٣٨، ٣٩.
- سدنة الكعبة: يقصد بهم خدمة البيت الشريف، وتولى أمره، وفتح بابيه وإغلاقه، انتقل أمرها من جُرهم إلى خداعة، ثم وليها قصي بن كلاب الذي عهد بها إلى ابنه عبد الدار، ثم تنتقلت بين أولاد عبدالدار حتى انتهت إلى عثمان بن أبي طلحة أحد أحفاد عبدالدار الذي عاصر فتح الرسول (ﷺ) لمكة المكرمة، فأقرها الرسول له وقال: "خذوها يا بني طلحة خالدة نالدة"، ولم يلبث عثمان أن خرج مع الرسول (ﷺ) إلى المدينة المنورة تاركاً سدانة الكعبة لابن عمه شيبه بن عثمان بن أبي طلحة، وصارت في أيديهم وأيدي أبناء عمهم. انظر: الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٧٥-٨٨؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، المكتبة الشعبية، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٧٣.

وعلى هذا النحو لم يكن السلطان الظاهر بيبرس هو أول من فكر من حكام مصر والشام في مد نفوذه إلى الحرمين الشريفين، غير أن ما اشتهر به الظاهر بيبرس من حُسن السياسة والدبلوماسية جعله يتخذ عدة خطوات إيجابية لجذب بها قلوب أهالي مكة المكرمة والمدينة المنورة وحكاهما، وبخاصة قيامه بأعمال البر، وإرساله الأموال والهدايا إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة.<sup>(١)</sup>

وحتى يصبح للظاهر بيبرس نفوذ ملموس بمكة المكرمة كان عليه أن يعمل على أن تقام الخطبة له على منابرها، كما كان عليه أيضا إظهار نفوذه داخل الحرم المكي، وبالفعل أرسل عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م أحد رجاله وهو الصدر جمال الدين حسين بن الموصلِي الذي كان يتولى وظيفة كاتب الإنشاء إلى مكة المكرمة، لكي يتسلم مفتاح الكعبة المشرفة، وفي ذلك إعلان لبسط نفوذه على الحرم المكي، وأرسل معه قفلا ليغلق به باب الكعبة، وقبل أن يغلقه فتح بابها للناس مدة ثلاثة أيام بغير شيء يؤخذ منهم، كما خطب له في هذا العام أيضا (عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م) على منابر مكة المكرمة.<sup>(٢)</sup>

ثم حانت الفرصة للظاهر بيبرس لكي يتدخل في الشؤون الداخلية لمكة المكرمة، وذلك عندما حدث في شهر شعبان من عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م خلاف بين الشريف نجم الدين أبي نُمى وبين عمه الشريف بهاء الدين إدريس، أمير مكة المكرمة، فما كان من السلطان الظاهر بيبرس إلا أن أصلح بينهما، وأرسل إليهما نفقة سنوية قدرها عشرون ألف درهم، واشترط عليهما في مقابل ذلك ألا تؤخذ مكوس من الحجاج، وألا يمنع أحد من زيارة البيت الشريف، ولا يتم التعرض لأحد الحجاج، كما اشترط أيضا أن يُخطب باسمه على منبر الحرم المكي، وكذلك في المشاعر المقدسة، وأن تسك السكة باسمه، وفي نفس الوقت أطلق لأميري مكة أوقاف

(١) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٤٤٥.

(٢) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٠٤ - ٥٠٥.

الحرم المكي الموجودة بالديار المصرية والشامية، كما كتب لهما تقليدًا بإمارة مكة المكرمة.<sup>(١)</sup>

وبعد أن استقرت الأمور بمكة المكرمة نتيجة ما قام به بيبرس من أعمال عزم بيبرس على الذهاب لأداء فريضة الحج، وذلك على الرغم مما كان يتهدد سلطنة المماليك في تلك الفترة من أخطار من جانب الصليبيين.<sup>(٢)</sup> أما عن الأسباب التي دفعت السلطان الظاهر بيبرس للذهاب لأداء فريضة الحج عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م فهي تعود أولاً إلى رغبته في أداء ركن مهم من أركان الإسلام، وهو الحج إلى بيت الله الحرام، وثانياً: لتثبيت سلطانه ونفوذه في مكة المكرمة.

ومن الملاحظ أنه في تلك الفترة أحاطت الأخطار الخارجية بدولة السلطان الظاهر بيبرس، فإلى جانب أخطار الصليبيين كان هناك خطر شديد من جانب دولة مغول فارس؛<sup>(٣)</sup> فقد أرسل إليه أباقاخان في شهر جمادى الآخرة من عام ٦٦٧هـ/

(١) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٧٩.

- الشريف نجم الدين أبونمي: هو أبونمي محمد بن أبي سعد بن علي بن قتادة بن إدريس بن المطاعن، تولى إمارة مكة فيما بين عامي ٦٥٢-٦٧٠هـ/١٢٥٤-١٣٠٣م. الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٢. وانظر أيضاً زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ج ١، ص ٣١.

- الشريف بهاء الدين إدريس هو إدريس بن قتادة بن إدريس بن المطاعن، تولى إمارة مكة المكرمة شريكا لابن أخيه أبونمي محمد عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، واستمر يلى إمرتها حتى عام ٦٦٩هـ/١٣٠٠م. الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٢. وانظر أيضاً: زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ج ١، ص ٣١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء السادس، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٣٦١-٣٧١.

(٣) أطلق على هذه الدولة اسم "الدولة الإيلخانية"، وهي تلك التي أسسها هولاكو خان في إيران وأجزاء من العراق، واستمرت هذه الدولة من عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م إلى عام ٧٥٤هـ/١٣٥٦م، ويرجع إطلاق اسم الإيلخانية عليها إلى كلمة "إيل" المغولية، وتعنى المطيع، أى المطيع للخان، انظر: فؤاد عبدالمعطي الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة، ١٩٨٧م، ص ٣٣-٤٠.



فبراير ١٢٦٩م رسالة شديدة اللهجة يتهدده فيها،<sup>(١)</sup> كما قام بعدة حملات عسكرية متتالية على بعض البلدان التابعة لدولة المماليك.<sup>(٢)</sup>

ونتيجة لتلك الأخطار المحدقة بالسلطنة المملوكية أحاط السلطان الظاهر بيبرس رحلته لأداء مناسك الحج بالسرية التامة لدرجة أن الأمير جمال الدين بن الداية الحاجب كتب للسلطان بأنه يريد أن يصحبه إلى بلاد الحجاز، فما كان من السلطان إلا أن أمر بقطع لسانه؛ وذلك حتى لا ينتشر خبر ذهابه إلى الحجاز،<sup>(٣)</sup> وقد أتى ذلك بنتيجة إيجابية، فعلى حد قول المؤرخ المقرئى: "كما تفوه أحد بعدها بذلك".<sup>(٤)</sup>

وزيادة فى إحاطة السلطان بيبرس رحلته إلى بلاد الحجاز بالسرية، أعلن أنه سوف يذهب إلى العراق، وأصدر أوامره سرا بالتجهز لرحلة الحج، وذلك بإعداد ما يلزمها من مؤن، كما أمر بإعداد كسوة للكعبة المشرفة، وللحجرة النبوية الشريفة.<sup>(٥)</sup>

(١) ومما جاء فى هذه الرسالة: "لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلص منى، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا، وأنت مملوك أبعث فى سيواس، فكيف تشاقق ملوك الأرض وأولاد ملوكها" انظر: المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٧٤، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٥، انظر أيضا: فؤاد عبدالمعطى الصياد: الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين، ص ٧٥.

(٢) ابن أبيك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسمه: الدررة الزكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٠٧. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٥، ص ٥٤٥، ٥٤٦. المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٢٤.

(٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، ص ١٢١.

(٤) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨١.

(٥) المقرئى: الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٨٩، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨٠.

- كسوة الكعبة: أول من كسا الكعبة المشرفة تبع الحميرى، ثم كستها قريش، وبعد ظهور الإسلام كساها الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم كساها بعد ذلك الخلفاء الراشدون، ثم الأمويون ثم العباسيون، وبعد سقوط الدولة العباسية تبادلت مصر واليمن كسوتها، إلى أن استأثر المماليك بكسوتها، وأوقفوا على ذلك بعض القرى بالديار المصرية. انظر: =

وسيراً على إحاطة هذه الرحلة بالسرية التامة، أمر بأن يتم التجهيز لها بحصن الكرك،<sup>(١)</sup> حيث تم إعداد البقسماط- البشماط- والدقيق، وروايا الماء والقرب، ومختلف الأشرطة، كما تم الترتيب مع عدد من العربان لمصاحبة السلطان وهو في طريقه إلى بلاد الحجاز، ويؤكد المقریزی أن كل ذلك تم "ولا يشعر الناس بشئ من ذلك".<sup>(٢)</sup>

وقد أثر السلطان الظاهر بيبرس أن يصحبه في رحلة حجه عدد من الرجال الذي يأنس بصحبتهم، ويتمتعون بالهمة العالية -وحُب فعل الخير- ومن الملاحظ أنه قصر هذه الصحبة على أربعة رجال فقط، أولهم أتابك العسكر، مقدم الجيوش ونائب السلطنة بالديار المصرية، الأمير بدر الدين بيليك الخازندار،<sup>(٣)</sup> الذي وصف بأنه كان "عالي الهمة، لئِن الكلمة، كثير المعروف، مُجلا للصلحاء والعلماء، حسن السيرة، جيد العقل، صحيح الذهن، وله فهم وذكاء".<sup>(٤)</sup> ومن الجدير بالذكر أن بدر الدين بيليك كان مقرباً من السلطان الظاهر بيبرس لدرجة أنه كان يعتبره بمثابة أخ

ياقوت الحموى: معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م، ج٤، ص ص ٤٦٥-٤٦٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ص ٢٧٧-٢٨٤؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، ص ٦٧؛ القطبي: إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، تعليق أحمد محمد جمال وآخرين، الرياض، ١٩٨٣م، ص ٥٨.

(١) حصن الكرك: قلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، ويقع على قمة جبل عالٍ في البلقاء. انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٤، ص ٥٤٣.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٥٨١.

(٣) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٥٨٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص ١٤٦.

- الأمير بيليك بدر الدين الخازندار تدرج في مختلف الوظائف إلى أن تولى نيابة السلطنة زمن بيبرس، وكان محباً للعلم، توفي عام ١٢٧٦/٥٢٧٧م. انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت، ٢٠٠٥م، ج١٤، ص ٤٣٦.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١٤، ص ٤٣٦.

له. وثاني هؤلاء الرجال هو قاضي القضاة صدر الدين الحنفى،<sup>(١)</sup> الذي وصف بأنه "إمام عالم، متبحر، عارف بدقائق الفقه وغوامضه"<sup>(٢)</sup>، وكان السلطان الظاهر بيبرس يحبه ويبالغ في احترامه، وكان لا يفارقه في حله وترحاله، وشاركه في غزواته،<sup>(٣)</sup> ولذلك آثر السلطان أن يرافقه في رحلته لأداء فريضة الحج، فيذكر المقرئى أنه طوال الطريق كان القاضي صدر الدين يزود السلطان الظاهر بيبرس بالكثير من أمور الدين، وكثيرا ما كان السلطان يستفتيه في كثير مما غمض عليه في الشؤون الدينية.<sup>(٤)</sup>

أما الرجل الثالث الذي صحبه السلطان الظاهر بيبرس في هذه الرحلة فكان الوزير فخر الدين إبراهيم بن لقمان<sup>(٥)</sup> الذي برع في الأدب وكتابة الرسائل، وقد عُرف بإحسانه للرعية<sup>(٦)</sup> مما جعل السلطان يأنس بصحبته.

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ ق ٢، ص ٥٨٠.

(٢) ابن أبيك الصفدى: الوافى بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وآخرين، بيروت، ٢٠٠٠م، ج ١٥، ص ٢٤٧.

- القاضي صدر الدين الحنفى: هو سليمان بن أبي العز بن وهيب، الأذرعى ثم الدمشقى الحنفى، انتهت إليه رئاسة الحنفية بمصر والشام، توفى عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨م، انظر: ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٨٥.

(٣) ابن أبيك الصفدى: فوات الوفيات، ج ١٥، ص ١٤٧.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨١.

(٥) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٦.

- فخر الدين إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد، الشيبانى الأسعودى، نسبة إلى بلدة أسعود القريبة من ميفارقين بالعراق، تنقل في مختلف الوظائف، وتولى وزارة الصحبة، توفى عام ٦٩٣هـ/١٢٩٤م. انظر: ابن تغرى بردى: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق: محمد أمين، القاهرة ١٩٨٤م، ج ١، ص ١٣٦-١٣٧.

(٦) الذهبى: تاريخ الإسلام، ج ١٤، ص ٧٩٢.

كذلك صحب الظاهر بيبرس معه في رحلة الحج تاج الدين بن الأثير<sup>(١)</sup> الذي كان معلماً بارعاً فاضلاً، اشتهر في الكثير من البلاد، فإذا كان تاج الدين حلبى الأصل، إلا أنه تنقل في كثير من البلاد طالبا للعلم، كما عمل في ديوان الإنشاء بدمشق، وتولى كتابة السر بالديار المصرية،<sup>(٢)</sup> وصفه ابن أبيك الصفدى بقوله: "كان كبير القدر، عديم الشر".<sup>(٣)</sup> ومن الملاحظ أن هؤلاء الرجال الذين اصطحبهم معه السلطان الظاهر بيبرس في هذه الرحلة اتصفوا جميعاً بصفة واحدة، ألا وهي البعد عن الشر، والميل إلى عمل البر والمعروف، وذلك حتى يعم الخير على أهالى الحرمين الشريفين.

وبالإضافة إلى هذه الصحبة الطيبة سار في ركب السلطان الظاهر بيبرس عدد من الجنود بلغ ثلاثمائة مملوك، وعدد آخر من أجناد الحلقة.<sup>(٤)</sup> وقد أظهر السلطان بيبرس أنه يريد الخروج للصيد، خصوصاً وأنه اصطحب معه هذه الفرقة العسكرية، فتوجه إلى حصن الكرك حيث واصل السير في أول ذى القعدة من عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م، وما أن وصل السلطان حتى وجد أن كل التجهيزات الخاصة برحلة الحج قد انتهت، فأمر بأن تسبقه إلى بلاد الحجاز، فتوجهت القافلة التي تضم

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨٠.

- تاج الدين بن الأثير: هو أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبى، ومن الملاحظ أن هذه الأسرة غير أسرة ابن الأثير الجزري المؤرخ المعروف. انظر: ابن أبيك الصفدى: الوافى بالوفيات، ج ٦، ص ٢٤١ - ٢٤٣.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٣٤.

(٣) الوافى بالوفيات، ج ٦، ص ٢٤٢.

(٤) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨٠.

- أجناد الحلقة: مجموعة من الجنود يدخل من بينهم من ليست له صفة الجندى من المقيمين وغيرهم، أول من سماهم بهذا الاسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب، واستمروا بهذه الصفة طيلة العصر المملوكى. انظر القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٤، ص ١٦.

تلك التجهيزات فى الرابع من ذى القعدة، ولحقها السلطان فى السادس من ذى القعدة،<sup>(١)</sup> حيث قضى عدة أيام بحصن الشوبك، ومنه سار إلى بلاد الحجاز بعد أن أصدر أوامره، "بإخفاء خبره".<sup>(٢)</sup>

وقد وصل ركب السلطان الظاهر بيبرس إلى المدينة المنورة فى الخامس والعشرين من ذى القعدة، غير أن أمير المدينة المنورة الشريف جماز بن شيحة وابن أخيه مالك بن مُنيف بن شيحة لم يقابلا السلطان الظاهر بيبرس، وفضلا الخروج من المدينة المنورة حتى لا يتقابلا معه مما أغضبه منهما.<sup>(٣)</sup>

وبعد أن زار السلطان بيبرس رسول الله صلى وسلم على المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقضى بها ثلاثة أيام،<sup>(٤)</sup> ثم توجه إلى مكة المكرمة فدخلها فى الخامس من ذى الحجة،<sup>(٥)</sup> وخلال المدة التى قضاها بيبرس فى مكة المكرمة لأداء

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨١.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨١.

(٣) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨١.

- جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن قاسم بن مهنا، ينتهى نسبه إلى الحسين بن على بن أبى طالب، تولى إمرة المدينة المنورة عام ٦٥٧/١٢٥٩م بعد وفاة أخيه مُنيف، واستمر يلبها حتى مماته عام ٧٠٤/١٣٠٤م. انظر السخاوى: التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة، عنى بنشره أسعد طرابيزونى الحسينى، القاهرة، ١٩٧٩، ج ١، ص ٤٢٣.

- مالك بن مُنيف بن شيحة، نازع عمه جماز إمرة المدينة المنورة، وانتزعها منه عام ٦٦٦/١٢٦٨م، فاستنجد جماز بأمير مكة وبغيره من العربان، لكن لم يستطيعوا إخراج مالك من المدينة، واستمر مالك مشاركا فى حكم المدينة حتى تنازل لعمه عنها راضيا عام ٧٠٠/١٣٠١م. انظر السخاوى: التحفة اللطيفة، ج ٣، ص ٤٢٣.

(٤) اليونينى: ذيل مرآة الزمان، وقائع عام ٦٧١ إلى ٦٧٧، نشر وزارة التحقيقات الحكيمية للحكومة الهندية، حيدر آباد- الهند، ١٩٦٠، ج ٢، ص ٤٠٩، البرزالي، المقتفى على كتاب الروضتين المعروف باسم: تاريخ البرزالي، تحقيق عمر عبدالسلام تدمرى، بيروت، ٢٠٠٦م، ج ١، ص ١٨٩.

(٥) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج ٤، ص ٥، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٢١.

فريضة الحج قام بالشئ الكثير من أعمال البر والإحسان، ومن ذلك إعطاء خواصه جملة من المال ليفرقوها سرا، كما فرق كساوى على أهل الحرمين،<sup>(١)</sup> وكذلك تواضع تواضعا كبيرا، فصار كواحد من الناس، لا يحجبه أحد، ولا يحرسه إلا الله على حد قول المقریزی.<sup>(٢)</sup>

وعلى العكس من موقف أميري المدينة المنورة اللذين رفضا مقابلة السلطان الظاهر بيبرس والترحيب به، فإن أميري مكة المكرمة الشريف أبونمي وعمه الشريف إدريس خرجا لاستقباله أحسن استقبال، وبذلا له الطاعة،<sup>(٣)</sup> فما كان من السلطان الظاهر بيبرس إلا أن خلع عليهما الخلع السنية.<sup>(٤)</sup>

كما كان من نتيجة ما أحاط به شريفا مكة السلطان الظاهر بيبرس من مظاهر الود والاحترام أن أصدر بيبرس منشورا بولاية كل من الشريف نجم الدين أبي نمي والشريف إدريس بن قتادة إمرة مكة المكرمة، كما لبي طلبهما بتعيين أحد أمراء المماليك ليكون نائبا عنه بمكة المكرمة، حيث أصدر قرارا بأن يكون الأمير شمس الدين مروان نائبا عنه بمكة المكرمة؛<sup>(٥)</sup> ليرجع إليه شريفا مكة، ويتقويا به، أو على حد تعبير المقریزی: "تقوى به أنفسهما"، "ويكون الحل والعقد على يديه".<sup>(٦)</sup>

ومن الملاحظ أن السلطان الظاهر بيبرس اختار أحد الأمراء الموثوق بهم وهو الأمير شمس الدين مروان الذي كان يشغل وظيفة جاندار للسلطان الظاهر

(١) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، الجزء الثلاثون، تحقيق: محمد عبدالهادى شعيرة، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٦٦.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨١.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٦.

(٤) اليونينى: ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٤٠٩، البرزالي: المقتفى، ج ١، ص ١٩٨.

(٥) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص ١٢١، النويرى: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ١٦٧، الفاسى:

العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، ج ٧، ص ١٧٢.

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨٢.

بيبرس، وكان من أخلص الأمراء له، ليقيمه نائباً عنه بمكة المكرمة، وليكون عيناً له بها، ومحافظاً على مصالحه<sup>(١)</sup>.

كذلك فإن السلطان الظاهر بيبرس أغدق على أميرى مكة، وزاد ما تقرر لهما من الغلال؛ وذلك بسبب تسبيل البيت الشريف، وعدم فرض مكوس - ضرائب - على من يقوم من الحجاج والمعتمرين بدخول الكعبة المشرفة<sup>(٢)</sup> كما أغدق على أمراء يتبع وخليص، وسائر زعماء وأشرف بلاد الحجاز<sup>(٣)</sup>.

ولم يفارق أميراً مكة السلطان الظاهر بيبرس خلال أدائه لمناسك الحج، فاصطحبها في الوقوف على عرفة، حيث كان الوقوف بها يوم الجمعة التاسع من ذى الحجة من عام ٦٦٧هـ / ١٠ أغسطس ١٢٦٩م، وبعد انقضاء يوم عرفة نفروا منها إلى منى، ومنها توجهوا إلى مكة المكرمة، حيث طاف السلطان الظاهر بيبرس طواف الإفاضة، وصعد إلى الكعبة المشرفة، حيث غسلها بيديه بماء الورد، وحمل الماء في قرب على كتفه، وطيبها بأفخر أنواع الطيب<sup>(٤)</sup>.

ويروى المؤرخون أن السلطان الظاهر بيبرس أثناء مقامه بمكة المكرمة أتى من الأفعال ما يدل على أنه تصرف كواحد من الناس، مثله في ذلك مثل أبسط خلق الله، فصار يطوف ويسعى ويصلى بدون حراسة، وهو في وسط الناس، وعندما

(١) أمير جاندار : مصطلح مكون من ثلاث كلمات؛ أمير بالعربية، وجان بالتركية بمعنى روح، ودار بالفارسية بمعنى ممسك، فيكون المعنى الأمير الممسك بزمام الأمراء، وكانت وظيفته تقوم على تنظيم دخول الأمراء على السلطان، ويدخل أمامهم إلى الديوان، ويتولى تقديم البريد إلى السلطان. انظر : القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠.

(٢) النويرى: نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٦٧.

(٣) بيبرس الدوادر: زبدة الفكرة، ص١٢١، العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين الممالِك، تحقيق: محمد أمين، القاهرة، ٢٠١٠، ج٢، ص٤٧.

(٤) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٠٩، العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٤٦، السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٨م، ج٢، ص٩٦.

كان يغسل الكعبة قام بغسل إحرام من رمى له إحرامه ليغسله، وعندما جلس على باب الكعبة صار يأخذ بأيدي الناس ليصعدوا إلى الكعبة المشرفة، وتعلق بعض العامة بإحرامه ليصعد إلى الكعبة، وكاد السلطان أن يسقط على الأرض دون أن يغضب، وإنما على العكس كان مستبشرا. (١)

وبعد أن قضى السلطان الظاهر بيبرس مناسك الحج غادر مكة المكرمة يوم الثلاثاء الثالث عشر من ذي الحجة بعد أن قضى بها ثمانية أيام، حيث توجه لزيارة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وبعدها توجه إلى بلاد الشام، فوصل إلى حصن الكرك في سرية تامة، فلم يعلم أحد بوصوله إلا وهو عند مؤتة القريبة من الكرك. (٢)

وعلى هذا النحو حقق السلطان الظاهر بيبرس هدفه من وراء هذه الرحلة، فقد أدى فريضة الحج، ومن ناحية أخرى أكد على بسط نفوذه على مكة المكرمة، وخطب باسمه على منابرها، كما حمل لقب "خادم الحرمين الشريفين" الذي حمله من قبله سلاطين بني أيوب، والذي يقول عنه القلقشندي: إنه صار من الألقاب السلطانية". (٣) وقد وضع السلطان الظاهر بيبرس بذلك سياسة سار عليها بعد ذلك سلاطين الممالك البحرية تقوم على التأكيد على بسط نفوذهم على مكة المكرمة، وفي مقابل ذلك أصبح سلطان الممالك مسئولاً عن رعاية الحرمين الشريفين، مكة والمدينة، يعمل على نشر الأمن والاستقرار بهما، ويقوم بتزويدهما بما يلزم من

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣٠، ص ١٦٦، المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٨١.

(٢) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٨٢، العيني: عقد الجمان، ج ٢، ص ٤٧.

- مؤتة: إحدى قرى البلقاء على مشارف الشام، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢١٩، ٢٢٠.

(٣) صبح الأعشى، ج ٦، ص ٤٦.



غلال ومؤون، كذلك قرر لأشرفهما الأموال في كل عام، وذلك حتى يرفع عن الحجاج والزائرين ما كان مفروضاً عليهم من ضرائب يؤدونها في مقابل تسهيل تأديتهم مناسك الحج والعمرة، والسماح لهم بالتشرف بالدخول إلى الكعبة المشرفة. ومن الملاحظ أنه إذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد قام بإحياء الخلافة العباسية التي سقطت على يد المغول عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م؛ وذلك بإقامة خليفة عباسي اتخذ القاهرة مقراً له عام ٦٦١هـ / ١٢٦٣م،<sup>(١)</sup> وخطب باسمه على منابر دولة المماليك بمصر والشام، إلا أن أشرف مكة لم يعترفوا بهذا الخليفة، فلم يخطبوا له على منابر مكة طيلة عصر المماليك،<sup>(٢)</sup> وذلك على الرغم من أنهم دعوا من قبل للخليفة الحفصي كما سيرد فيما بعد.

(١) كان السلطان الظاهر بيبرس قد أقام عام ٦٥٩هـ / ١٢٦١م أحد أبناء البيت العباسي الناجين من يد المغول خليفة تلقب بلقب المستنصر بالله، لكن هذا الخليفة قتله المغول عندما توجه إلى بغداد عام ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م، فأقام الظاهر بيبرس أحد أبناء البيت العباسي خليفة مكانه عام ٦٦١هـ / ١٢٦٣م، تلقب بلقب الحاكم بأمر الله: انظر أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٢١٢؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٣، ص ٥٤٠، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٠، ص ١١٢-١١٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٦١، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٧٥٧-٧٦١.

(٢) في تتبعنا لمصادر هذه الفترة أو الفترة التي تليها لم نعث على ذكر لإقامة الخطبة باسم الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة على منابر الحرمين الشريفين، ويؤكد المؤرخ ابن كثير على ذلك بقوله في خلافة المستنصر بالله (٧٠١-٧٤٠هـ / ١٣٠٢-١٣٤٠) "وخطب له على المنابر بالبلاد المصرية والشامية" دون أن يذكر بلاد الحجاز. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، نشر مكتبة المعارف ببيروت، ١٩٨٥م، ج ١٤، ص ٢٠؛ وانظر أيضاً: ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأبصار، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م، ص ١٦١؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج ١، ص ٢٠٢، ٢٠٣؛ المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٨٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٦، ١٤٧؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٧٦١.

أما السبب الذي أدى إلى عدم اعتراف أشرف مكة بالخليفة العباسي الذي اتخذ القاهرة مقراً له فهو تشكك البعض في صحة نسبه إلى العباسيين، ومما يؤكد ذلك تشكك بعض المؤرخين في صحة نسب هؤلاء الخلفاء؛ فمن بين المؤرخين الذين تشككوا في صحة نسب أول خليفة المؤرخ أبو الفدا الذي يقول في أحداث عام ٦٥٩هـ / ١٢٦١م في هذه السنة "قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله..."<sup>(١)</sup>.

وبالإضافة إلى ذلك فإن أشرف مكة كثيراً ما حدثتهم أنفسهم بحمل لقب الخلافة؛ وذلك لقربانهم من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويحدثنا التاريخ أنه في عام ٤٠٢هـ / ١٠١١م، دعا الشريف أبو الفتح الحسن بن أبي محمد جعفر لنفسه بالخلافة وتسمى باسم "أمير المؤمنين الراشد بالله، وأسقط من على منابر مكة المكرمة الخطبة باسم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله،<sup>(٢)</sup> لكنه عاد في العام التالي (٤٠٣هـ / ١٠١٢م) ودعا للحاكم بأمر الله مما جعل الحاكم يصدق عليه الأموال والمؤن وسائر الهدايا<sup>(٣)</sup>. ومن ذلك ما يشير إليه ابن خلدون من أن الشريف أبا عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن الذي تولى إمرة مكة المكرمة قرابة عشرين عاماً (٥٩٧ - ٦١٧هـ / ١٢٠١ - ١٢٢٠م) كان يقول "أنا أحق بالخلافة"<sup>(٤)</sup>.

(١) المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٢١٢.

(٢) الشريف أبو الفتح الحسن بن أبي محمد جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد التائر، تولى إمرة مكة المكرمة مرتين؛ الأولى فيما بين عامي ٣٨٤-٤٠١هـ / ٩٩٤-١٠١١م، والثانية فيما بين عامي ٤٠٣-٤٣٠هـ / ١١١٢-١٠٣٩م. انظر: زامبور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ج ١، ص ٣٠-٣١.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ص ٢٦٠.

(٤) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٤، ص ١٠٥.

- الشريف أبو عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى، تولى إمارة مكة المكرمة حوالي عشرين عاماً، ووصفته المصادر بأنه كان عادلاً منصفاً.. الحجاج في أيامه مطمئنون آمنون على أنفسهم وأموالهم". انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م، ج ١٢، ص ٤٠١-٤٠٣، أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٢٣. الفاسي: العقد الثمين، ج ٧، ص ٣٩-٦١.

كذلك فإن الشريف أبا نُمى محمد الذى تولى إمرة مكة المكرمة مدة طويلة، ووُصف بأنه "عاقِل، سايس، شجاع، محتشم"، قال عنه بعض المؤرخين إنه: "لولا المذهب لصلح للخلافة"، حيث كان زيدا كسائر أهل بيته من الأشراف<sup>(١)</sup> ومعنى ذلك أن فكرة تولى الخلافة راودت أبانُمى، لكن منعه من ذلك كونه على المذهب الزيدى.

ويستفاد مما تلا ذلك من أحداث أن أشراف مكة لم يقبلوا تبعيتهم لسلطين الممالك إلا من أجل إمدادهم بما يلزمهم ويلزم أهالى مكة والحجاج والزائرين بما يسد حاجتهم من المؤن والغلال، وتزويدهم بالأموال اللازمة، والاستعانة بقوتهم العسكرية إذا لزم الأمر.

وطبقا لذلك فإنه عندما وجد أمير مكة تهاونا -بعض الشئ- من السلطان الظاهر بيبرس أظهر عصيانه للممالك، ومن ذلك ما حدث عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م عندما قام الشريف أبونُمى بطرد الأمير شمس الدين مروان الذى أقامه بيبرس نائبًا عنه بمكة المكرمة،<sup>(٢)</sup> ومن ثم بدأت الوحشة تدب بين شريف مكة أبى نُمى وبين الظاهر بيبرس مما دعا الأخير إلى إرسال رسالة إلى أبى نُمى يهدده فيها، ويأمره بالعودة إلى صوابه، واتباع سياسة حسنة جاء فيها: " من بيبرس سلطان مصر إلى الشريف الحسيب النسيب أبى نُمى محمد بن أبى سعد، أما بعد: فإن الحسنه فى نفسها حسنة، وهى من بيت النبوة أحسن. والسيئة فى نفسها سيئة، وهى من بيت

(١) الفاسى: العقد الثمين، ج ١، ص ٤٦٧.

- الزيدية: نسبة إلى زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الذى خرج على الخليفة هشام بن عبدالمك بن مروان، قُتل على يد هشام عام ١٢١هـ/٧٣٩م. انظر المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد، بيروت، ١٩٨٣م، ج ٣، ص ٢٢٠؛ البغدادي: الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، بيروت، د. ت، ص ص ٢٩-٥٢.

(٢) الفاسى: العقد الثمين، ج ١، ص ٤٦٥، ج ٧، ص ١٧٢.

النبوة أوحش"، "وقد بلغنا عنك أيها السيد: أنك آويت المجرم، واستحللت دم الحرم، ومن يهن الله فما له من مكرم، فإن لم تقف عند حدك، وإلا أغمدنا فيك سيف جدك. والسلام" (١).

وقد أتت سياسة التهديد أكلها، فلم يلبث الشريف أبو نُمي أن تراجع عن موقفه، وأرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس يعترف بذنبه، ويطلب العفو، ومما جاء في خطاب أبي نُمي للسلطان الظاهر بيبرس: "فإن المملوك معترف بذنبه، تائب إلى ربه، فإن تأخذ فيك الأقوى، وإن تعفو فهو أقرب للتقوى، والسلام" (٢).

وقد اتبع سائر سلاطين الممالِك نفس سياسة الظاهر بيبرس في التأكيد على بسط نفوذهم على مكة المكرمة، والعمل على نشر الأمن والاستقرار بها، وتزويدها بما يلزمها من مؤن وغلال.

ففي زمن السلطان الناصر محمد، (٣) وبالتحديد عام ٥٧٠٣هـ / ١٣٠٤م، أرسل نائب السلطنة الأمير سيف الدين سلار وبصحبه فرقة عسكرية كبيرة، وهو مُحمل بما يستطيع حمله من المؤن والغلال. (٤) ويذكر المقرئزي أن الأمير سلار اصطحب

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ١، ص ٤٦٥.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ١، ص ٤٦٥، ٤٦٦.

(٣) الناصر محمد هو ابن السلطان المنصور قلاوون، تولى السلطنة ثلاث مرات؛ الأولى فيما بين عامي ٦٩٣ - ٦٩٤هـ / ١٢٩٣ - ١٢٦٤م، والثانية فيما بين عامي ٦٩٨ - ٧٠٨هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨م، والثالثة فيما بين عامي ٧٠٩ - ٧٤١هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠م، توفي عام ٧٤١هـ / ١٣٤٠م. انظر: الشجاعي: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالح وأولاده، تحقيق: بربارة شيفر، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ص ١٠١ - ١١٩.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٢٩، المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٩٥٤.

- الأمير سيف الدين سلار: يقول الصقاعي إنه تترى الأصل، اشتراه الصالح علاء الدين على بن المنصور قلاوون، ثم انتقل إلى الملك المنصور ومن بعده لابنه الأشرف خليل، ثم ترقى ووصل إلى مرتبة عالية زمن الاضطراب الذي عاصر فترات حكم الناصر محمد، وشغل وظيفة نائب السلطنة زمن بيبرس الجاشنكير، كما شغل نفس الوظيفة =

معه "نحو الثلاثين أميراً" من المعروفين بالصلاح والتقوى، والجميع حمل معه المؤن والغلال "للتفرقة على أهل الحرمين".<sup>(١)</sup>

ويذكر مؤرخ اليمن الخزرجي أنه قرأ عن أحد كتاب اليمن "أن صدقات الأمير سلار على أهل مكة بلغت ستمائة ألف درهم، وجملة ما حمله من الغلة عشرة آلاف إردب، وأنه لم يترك بالحجاز في تلك السنة من عليه دين".<sup>(٢)</sup>

ومن الواضح أن السلطان الناصر محمد اختار الأمير سلار ليكون رسوله إلى مكة المكرمة؛ وذلك لما تمتع به هذا الرجل من قوة وشجاعة وعقل ودهاء، وكذلك لما حازه من ثروة وجاه، وميله إلى فعل الخير، وكل ذلك جعل رحلة الأمير سلار إلى مكة المكرمة عام ٥٧٠٣هـ / ١٣٠٤م من الرحلات المشهورة في تاريخ مكة المكرمة.<sup>(٣)</sup>

ومن جهة أخرى فإن السلطان الناصر محمد آثر أن يرسل قوة عسكرية كبيرة بصحبة الأمير سيف الدين سلار حتى يشعر أمير مكة أياً نُمى بما لدولة المماليك من سطوة وقوة حتى لا تحدّثه نفسه بالخروج عن طاعة المماليك، وإسقاط

=الناصر محمد في سلطنته الثانية، وصف بالعقل والخبرة والدهاء، كما حاز ثروة طائلة، توفي جوعاً مغضوباً عليه عام ٥٧١٠هـ / ١٣١٠م. انظر: الصقاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: جاكين سوبلة، دمشق، ١٩٧٤م، ص ٨٩، الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ج ٢، ص ٨٦-٨٩؛ ابن دقماق: الجواهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق: سعيد عاشور، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، ١٩٨٣، ص ٣٤٢-٣٤٧، ابن تغري بردى: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج ٦، ص ٥-١٣.

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٩٥٤.

(٢) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح الشيخ محمد بسيوني عسل، مطبعة الهلال بمصر، ١٩١١م، ج ١، ص ٣٤٩.

(٣) الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، اعتنى به مازن بن سالم باوزير، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٩٩٨م، ص ١٠٢-١٠٨، ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٦٩.

الدعوة لهم من على منابر مكة المكرمة، خصوصاً أنه كان هناك صراع خفي بين المماليك وبين بنى رسول باليمن كما سيتضح فيما بعد.

وقد أكدت الأحداث التالية صحة هذا الرأي، فلم يتردد سلاطين المماليك فى استخدام القوة العسكرية لفرض سلطانهم على مكة المكرمة إذ لزم الأمر، خصوصاً عندما كانوا يشعرون بتزعزع ولاء شريف مكة لهم، ومن أمثلة ذلك ما رواه المؤرخ الفاسى فى أحداث عام ٨١٢هـ / ١٤٠٩م، وهو شاهد عيان على هذه الفترة ومعاصر لها، عندما قام السلطان الناصر فرج (٨٠١ - ٨١٥هـ / ١٣٩٩ - ١٤١٢م) بإصدار قرار بعزل أمير مكة الشريف حسن بن عجلان وابنيه عن حكم مكة المكرمة، وأرسل إلى أمير الحج المصرى الأمير بيسق الشىخى ذلك القرار.<sup>(١)</sup>

ثم توجه الأمير بيسق الشىخى إلى مكة المكرمة بعد أن اصطحب معه عدد كبير من آلات الحرب مثل المكاحل والمدافع، وعدد كبير من المماليك، وأظهر أنه

(١) شفاء الغرام، ج٢، ص٢٥٢.

- السلطان الناصر فرج، هو ابن السلطان الظاهر برقوق، تولى السلطنة بعد وفاة والده عام ٨٠١هـ / ١٣٩٩م، واستمر حتى خلعه من السلطنة ثم مقتله عام ٨١٥هـ / ١٤١٢م. انظر: ابن حجر العسقلانى: أنباء الغمر بأبناء العمر، نشر وزارة المعارف للحكومة الهندية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٦م، ص٧، ٤٨، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١٣، ص١٨٨-١٩٠؛ السخاوى: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ج٦، ص١٦٨.

- الشريف حسن بن عجلان هو ابن رميثة بن أبى نُمى بن أبى سعد حسن بن على بن قتادة الحسنى المكى، الملقب ببدر الدين، ولد عام ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م بمكة المكرمة، وتوفى عام ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م، قال عنه ابن تغرى بردى: "كان من أجل أمراء مكة ممن أدركناه". انظر: ابن تغرى بردى: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ج٥، ص٩٤، الفاسى: العقد الثمين، ج٤، ص٨٦-٩٦.

- الأمير بيسق الشىخى: هو الأمير بيسق الشىخى أمير آخور الظاهر برقوق، قال عنه السخاوى: "كثير الشر، شرس الخلق، جماع للمال، مع البر والصدقة"، توفى عام ٨٢١هـ / ١٤١٨م. انظر الضوء اللامع، ج٣، ص٢٢، ٢٣.

سوف يذهب إلى اليمن حتى لا يشعر بذلك أمير مكة فيتخذ من التدابير ما يمنعه من تنفيذ مهمته، غير أن ذلك لم يخف على الأمير حسن بن عجلان، الذي جمع حوله مجموعة كبيرة من "أعراب مكة، وأهل الطائف وغيرهم من عرب الشرق"، وذلك لمجابهة قوة بيسق الشيخى<sup>(١)</sup>.

ونتيجة سعى الأمير الشريف حسن بن عجلان إلى إصلاح أمره عند السلطان عفا السلطان عنه<sup>(٢)</sup>، وأرسل مملوكه الخاص فيروز الساقى إلى مكة المكرمة حاملا تقليدا يفيد بإعادة الشريف حسن بن عجلان وولديه إلى إمارة مكة المكرمة، ومعه أيضا الخلع والهدايا، وقد أدى هذا إلى إنهاء الفتنة والاضطراب الذى انتشر بمكة المكرمة.<sup>(٣)</sup>

ونتيجة إقامة الخطبة لسلطين المماليك على منابر مكة المكرمة، وبسطهم نفوذهم عليها، كان عليهم أن يؤدوا ما ألقى على عاتقهم من واجب تجاه أشرف مكة وأهلها وحجاج وزوار بيت الله الحرام، خصوصا أثناء الأزمات التى تعرضت لها مكة المكرمة.

الواقع أن سلطين المماليك البحرية والبرجية أدوا ذلك الواجب على خير وجه، ومن ذلك مثلا ما حدث أثناء فترات الغلاء التى شهدتها مكة المكرمة فى سنوات ١٢٦٤هـ/١٢٦٦م، ١٢٦٥هـ/١٢٦٧م، ١٢٦٧هـ/١٢٦٩م، ١٣٠٧هـ/١٣٠٧م، ١٣٢١هـ/١٣٢١م، ١٣٢٥هـ/١٣٢٥م، ١٣٦٥هـ/١٣٦٥م، ١٣٩١هـ/١٣٩١م، وكذلك عندما تعرضت مكة لانتشار الأوبئة، مثل وباء عام ١٢٧١هـ/١٢٧٢م، أو ما حدث من وقوع سيل كبير بمكة

(١) الفاسى: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٢) الفاسى: العقد الثمين، ج ٤، ص ١٠٧.

(٣) الفاسى: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٥٣.

- الأمير فيروز الساقى: هو الأمير فيروز الرومى الساقى الجاركسى، ترقى إلى أن صار ساقيا فى أواخر دولة الناصر فرج، وتولى بعد ذلك عدة وظائف، توفى عام ١٤٤٤هـ/١٤٤٤م، انظر: السخاوى: الضوء اللامع، ج ٦، ص ١٧٦.

المكرمة عام ٨٠٢هـ/١٤٠٠م، وما أعقبه من حدوث حريق بالحرم المكي في نفس العام.<sup>(١)</sup> وخلال تلك الأزمات قام سلاطين المماليك بإرسال المؤن والغلال، وكل ما يلزم من نفقات وأموال لأشراف وأهالي مكة المكرمة، ومن أمثلة ذلك ما قام به السلطان الناصر محمد بن قلاوون من إرسال الأمير سيف الدين سلار أميراً على حج عام ٧٠٣هـ/١٣٠٤م، وجهاز معه "عشرة آلاف إردب قمح"، بالإضافة إلى ما حمله الأمراء المصاحبون له في هذا الحج من أموال وغلال. ويقرر المؤرخ الفاسي أنه بهذه الأموال والغلال "سد بها فاقة نوى الحاجات، وانتفع بها المجاورون بمكة، وأهلها والأشراف وغيرهم".<sup>(٢)</sup> كذلك أثناء انتشار الغلاء بمكة المكرمة عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م، أرسل إليها المؤن والغلال "صحبة الركب الرجبي الذي خرج من القاهرة في ١٧ رجب من عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م متوجهاً إلى مكة المكرمة، فكان فيه فوق ألفي جمل وراحلة" مما أدى إلى انخفاض الأسعار بمكة المكرمة، وانتعاش أحوال أهلها.<sup>(٣)</sup>

ومن بين تلك الأعمال ما قام به السلطان الظاهر برقوق عندما حدث غلاء شديد بمكة المكرمة عام ٧٩٣هـ/١٣٩١م لدرجة أنه بيعت غرارة القمح بـ "خمسمائة درهم كاملية وأربعين درهما".<sup>(٤)</sup>

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢١٣-٢٧٨.

(٢) شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٧٢.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٧٤.

- السلطان الظاهر برقوق، اسمه الطنبغا، وسمى برقوقاً لنتوء في عينيه، كان مملوكاً لرجل يقال له الخواجا عثمان، ثم اشتراه السلطان الأشرف شعبان، أخذ في الترقى إلى أن وصل إلى السلطنة عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، واستمر يليها حتى وفاته عام ٨٠١هـ/١٣٩٩م. انظر: ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، ج ٤، ص ٢٦-٢٨؛ الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، نشر دار المعرفة، عن مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٨هـ، ج ١، ص ١٦٢-١٦٤.

- الغرارة: جاء في المعجم الوسيط، وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه. والجمع غرائر. نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٥م، ج ٢، ص ٦٧٢.



ولم تقف جهود المماليك عند حد إمداد مكة المكرمة بما يلزمها من مؤن وغلل، وإنما تعداه إلى العمل من أجل نشر الأمن والاستقرار بها، ورفع الظلم والجور عن أهلها وعن الحجاج والمعتمرين. ومن أمثلة ذلك ما قام به السلطان الناصر حسن (٧٤٨-٧٥٣هـ / ١٣٤٧-١٣٥٢م، ٧٥٥-٧٦٢هـ / ١٣٥٤-١٣٦١م) عام ٧٦٠هـ / ١٣٥٩م من إرسال فرقة عسكرية إلى مكة المكرمة لتكون تحت إمرة كل من الشريف محمد بن عطيفة بن أبي نُمى، والشريف سند بن رميثة بن أبي نُمى، أميرى مكة؛ وذلك لمساعدتهما في حفظ الأمن، ومساندتهما في إدارة شئون البلاد، وكان من نتيجة ذلك كما يقول الفاسى "أن ارتفع من مكة الجور والظلم، وانتشر العدل والأمان"<sup>(١)</sup>.

كذلك من بين الأعمال التي قام بها سلاطين المماليك بمكة المكرمة ما بذلوه من جهد من أجل رفع وتخفيف العناء عن الأهالي والحجاج مما أثقل كاهلهم من ضرائب فرضت على البضائع والمأكولات، وكان أول سلاطين المماليك الذين قاموا بذلك هو السلطان الظاهر بيبرس أثناء حجه عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م عندما أمر برفع المكوس - الضرائب - التي كانت مقررة على الحجاج، وعوض أميرى مكة أبا نُمى وعمه إدريس عنها بأموال خصصها لهما كل عام.<sup>(٢)</sup>

وبالإضافة إلى ذلك فقد بذل سلاطين المماليك جهدا كبيرا من أجل راحة

(١) شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٤٨.

- الشريف محمد بن عطيفة بن أبي نُمى محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم الحسنى المكي، تولى إمرة مكة ما يقرب من عام ونصف العام، توفي عام ٧٦٣هـ / ١٣٦٢م. انظر: الفاسى: العقد الثمين، ج ٢، ص ١٤٠، ١٤١.

- الشريف سند بن رميثة بن أبي نُمى محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة، وهو ابن عم الشريف محمد بن عطيفة، تولى إمرة مكة شريكا لابن عمه محمد، توفي عام ٧٦٣هـ / ١٣٦٢م. انظر: الفاسى: العقد الثمين، ج ٤، ص ٦١٧، ٦١٨.

(٢) الفاسى: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٤٠.

الحجاج والزائرين، وبخاصة توفير مياه الشرب اللازمة، ومن ذلك ما عزم عليه السلطان الناصر محمد من إجراء العيون إلى مكة المكرمة مثلما كان عليه الحال في الماضي،<sup>(١)</sup> غير أن بعض مستشاري السلطان الناصر محمد أثتوه عن هذا العمل، وقالوا له: "إن هذا متعذر الإمكان".<sup>(٢)</sup>

وعندما علم الناصر محمد بأن الأمير جوبان نائب خان مغول الخان بوسعيد بن أولجاتيو محمد خدابنده (٧١٦-٧٣٦هـ/١٣١٦-١٣٣٥) قد استطاع في عام ١٣٢٥هـ/١٣٢٥م إزالة الردم والتراب من على العيون القديمة بمكة المكرمة، وأعاد جريان المياه بها، حزن حزنا شديدا على عدم قيامه بهذا العمل، وأظهر غضبه لرسول جوبان الذي قَدِمَ إلى مصر ليخبر السلطان بإعادة إجراء الماء في عيون مكة، وقال له: "من أذن لك في هذا؟ ولم لا تشاورني؟؟".<sup>(٣)</sup>

(١) وعن العيون التي كانت بمكة المكرمة، انظر: الأزرقى: كتاب أخبار مكة، طبع المدرسة المحروسة بمدينة غنتغة عام ١٢٧٥هـ، ص ص ٤٤٢-٤٤٥؛ الفاسى: شفاء الغرام، ج ١، ص ص ٣٤٦، ٣٤٧، ومن أشهر تلك العيون "عين زبيدة" التي جلبت إليها الماء السيدة زبيدة "أمة العزيز" زوجة الخليفة هارون الرشيد، انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد أو مدينة السلام، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ج ١٤، ص ص ٤٣٣، ٤٣٤.

(٢) ابن الجزرى: تاريخ حوادث الزمان ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزرى، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٩٨م، ج ٢، ص ١٢٧.

(٣) ابن الجزرى: تاريخ حوادث الزمان وأنبائه، ج ٢، ص ص ١٢٥-١٢٧؛ المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ص ٢٧٤-٢٧٥؛ انظر أيضا: فؤاد عبدالعاطى الصياد: الشرق الإسلامى فى عهد الأليخانيين، ص ٤٦١. وعن العين التي أجراها جوبان بمكة المكرمة، انظر: المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٢٧٥؛ النجم عمر بن فهد: إتخاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، مكة المكرمة، ١٩٨٤م، ج ٣، ص ص ١٨١-١٨٢؛ الجزيرى: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: محمد حسن، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ١، ص ٣٩٤.

- جوبان: هو جوبان النوين الكبير، تولى وزارة الخان أبى سعيد خدابنده، ووصف بأنه كان "بطلا شجاعا مهيبا شديد الذكاء، على الهمة، صحيح الإسلام"، ثم غضب عليه بوسعيد، وانتهى أمره بالقتل عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م. انظر: ابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأبصار، ص ص ٢٢٨-٢٣٠؛ ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ص ٧٨، ٧٩.

- بوسعيد بن الوجاتيو محمد خدابنده، تولى خانية مغول فارس عام ٧١٦هـ/١٣١٦م،

ولم يقتصر الاهتمام بأمر مكة المكرمة على السلاطين فقط، وإنما تعداه إلى الأغنياء من الأمراء والنساء، ومن أمثلة ذلك ما قام به الأمير يلبغا الخاصكى عام ١٣٦٥هـ/ ١٧٦٦م من إرسال ألف إردب قمح إلى مكة المكرمة على إثر تعرضها لقحط شديد، حيث انعدمت الأقوات لدرجة أن القاضى الفاسى مؤرخ وشاهد عيان هذه الفترة يقول عنها: "حصل للناس مشقة عظيمة بحيث أكل الناس الميتة"، وعُرفت هذه السنة باسم "سنة أم الجرب"، فكان لما أرسله الأمير يلبغا من غلال أثره فى تخفيف هذه الأزمة". (١)

من بين النساء اللاتى اهتمن بأمر مكة المكرمة "الست حدق" التى اصطحبت معها أثناء حجها فى عام ١٣٢٨هـ/ ١٧٢٨م من الأموال والغلال الشئ الكثير، وتحدث الجميع عما قامت به من أعمال البر والمعروف أثناء إقامتها بمكة المكرمة (٢)

وعمره اثنا عشر عاما مما جعل الوزراء يسيطرون عليه، ولكنه بعد أن بلغ مبلغ الرجال قبض على زمام الأمور، واستمر يلى الخانية حتى توفى مسموما على يد زوجته عام ١٢٣٥هـ/ ١٧٣٦م. البناكتى: روضة أولى الألباب فى معرفة التواريخ والأنساب، ترجمة: محمود عبدالكريم على، القاهرة ٢٠٠٧م، ص ص ٥٠٢، ٥٠٣؛ ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٧٩؛ انظر أيضاً: فؤاد عبدالمعطى الصياد: الشرق الإسلامى، ص ص ٤٠٩-٤١١، عبدالسلام عبدالعزيز فهمى، تاريخ الدولة المغولية فى إيران، القاهرة، ١٩٨١م، ص ص ٢١٩-٢٣١.

(١) الفاسى: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٧٤.

- يلبغا الخاصكى: هو الأمير سيف الدين يلبغا العمري المعروف بالخاصكى، اشتراه الملك الناصر حسن وأعتقه، وجعله من خواصه، وترقى إلى أن صار من كبار الأمراء، شارك فى قتل الناصر حسن، وأقام فى السلطنة المنصور محمد، ومن بعده الأشرف شعبان، ووصل إلى درجة كبيرة فى دولة الممالِك، حيث كان بيده الحل والعقد، واستمر ذلك حتى مقتله فى ربيع الآخر عام ١٣٦٨هـ/ ديسمبر ١٣٦٦م. انظر: ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، ج ١٢، ص ص ١٥٧-١٦٢.

(٢) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٣٠٣.

لدرجة أنه ضرب المثل بما فعلته من الخير أثناء حجها. (١)  
وتتجلى مساندة سلاطين المماليك لأشراف مكة المكرمة وأهلها أثناء حدوث  
الأزمات التي مروا بها فيما حدث في عام ١٤٠٠/٥٨٠٢م عندما تعرضت مكة  
المكرمة لحدثين خطيرين؛ الأول هو السيل الشديد الذي أصاب مكة المكرمة في  
العاشر من شهر جمادى الأولى من هذا العام مما أدى إلى امتلاء المسجد الحرام  
بالماء (٢) لدرجة أن ارتفاع الماء بلغ باب الكعبة المشرفة، وتسرب داخلها من شق  
بالباب، وتهدم نتيجة ذلك السيل أحد الأروقة بالحرم، (٣) كما تهدمت بعض منازل  
أهل مكة، وتوفى عدد ليس بالقليل من أهلها نتيجة ذلك السيل، قدرهم المقريزي  
وهو معاصر لذلك السيل بنحو "ستين إنساناً". (٤)

ولم يتأخر سلاطين المماليك في إصلاح ما تهدم من المسجد الحرام خلال ذلك  
السيل، إذ تشير المصادر التاريخية إلى أن الذي قام بالإصلاح هو الأمير بيسق  
الظاهري الذي أرسله السلطان الناصر فرج بن الظاهر برقوق أميراً على ركب الحج  
المصري عام ١٤٠٣/٥٨٠٣م، (٥) وأمره بإصلاح ما تهدم بالمسجد الحرام، وبالفعل  
فبعد أدائه لمناسك الحج تخلف بيسق بمكة المكرمة، ولم يعد إلى الديار المصرية إلا

(١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٨٨.

- الست حدق: هي حدق القهرمانية الناصرية، إحدى جوارى السلطان الناصر محمد بن  
قلاوون، جعل لها أمور نسائه، فتحكمت في داره تحكما عظيما حتى صار لا يقال لها إلا  
الست حدق، أنشأت جامعا ظاهر القاهرة، توفيت دون أن تتزوج. انظر: ابن حجر  
العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٨٧-٨٨.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٦٨.

(٣) النهروالي: كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، طبع مدينة غنتغة، ١٢٧٤هـ، ص ١٩٢.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٩٩٨.

(٥) السلطان الناصر فرج بن برقوق، تولى السلطنة بعد وفاة والده عام ١٣٩٣/٥٨٠١م. انظر:

ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٣، ص ١٨٨-١٩٠؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب

في أخبار من ذهب، نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ج ٧، ص ١١٢.

بعد أن قام بتتظيف الحرم الشريف من أكوام التراب التي تخلفت عن ذلك الهدم، وقام بإعادة الأسطوانات التي سقطت بعد حفر أساسها، وإعادة إقامتها على أحسن ما يكون.<sup>(١)</sup>

أما الحدث الثاني الذي وقع في عام ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م فكان الحريق الكبير الذي نشب بالمسجد الحرام في ليلة ٢٨ من شهر شوال من عام ٨٠٢هـ / ٢٣ يونيو ١٤٠٠م، والذي بدأ من رباط رامشت الواقع بالجانب الغربي من المسجد الحرام، ثم امتد شرره حتى وصل إلى سقف المسجد من هذا الجانب فاحترق، واحترقت أيضا بعض الأروقة في الجانب الشامي، وكما يقول المقريزي: "عم الحريق إلى محاذاة باب العجلة"، وتهدمت عدة أساطين بالمسجد الحرام نتيجة ذلك الحريق".<sup>(٢)</sup>

وقد سارع السلطان الناصر فرج بن برقوق بإرسال الأمير بيسق الظاهري لإصلاح ما تهدم من سقف المسجد الحرام جراء هذا الحريق، وبالفعل أحضر الأمير بيسق الأخشاب اللازمة وجلبها من بلاد الروم، بالإضافة إلى إحضار خشب العرعر من جبال الحجاز، وقام بإصلاح الجانب الغربي من المسجد، كما أصلح أيضا الجانب الشامي إلى باب العجلة، ولم يكتف الأمير بيسق بذلك، وإنما قام

(١) ذكر الفاسي تفاصيل كثيرة عما قام به الأمير بيسق من إصلاحات بالمسجد الحرام. انظر: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٦٧، ٢٦٨، وانظر أيضا: النهروالي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ١٩٢، ١٩٣.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠١٩.

- رباط رامشت، أما الرباط فيقول المقريزي: هي دار يسكنها أهل طريق الله"، أي اتخذها الصوفية سكناً لهم، وهي في الأصل مكان في الثغور كان يربض فيه الجنود، ويربطون فيه الخيل لحمايته من الأعداء، والجمع رُبط. انظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف باسم خطط المقريزي، طبع بولاق ١٢٧٠هـ، ج ٢، ص ٤٢٦. أما رامشت فهو الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي الذي وقف هذا الرباط على جميع الصوفية الرجال دون النساء عام ٥٢٩هـ / ١١٣٥م، ويقع هذا الرباط عند باب الحزورة. انظر: الفاسي: شفاء الغرام، ج ١، ص ٣٣٢.

بتجميل سقف المسجد الحرام بالألوان، كما قام بتهيئة السلاسل النحاسية بالسقف لتعليق القناديل في تلك الأروقة<sup>(١)</sup> وبذلك عاد المسجد الحرام في أبهى صورة. وعلى هذا النحو لم يدخر سلاطين المماليك جهدهم، ولم يتأخروا في تقديم العون وإصلاح ما عساه تهدم بالمسجد الحرام بمكة المكرمة، وذلك رغم ما كان يسود الديار المصرية من اضطراب سياسى، وما أحاط بالسلطان الناصر فرج من أخطار<sup>(٢)</sup>.

(١) النهروالى: كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ١٩٥، ١٩٦.

(٢) عن الأحوال السياسية التي عاصرت فترة حكم السلطان الناصر فرج، انظر: حامد زيان: المماليك، التاريخ السياسى، القاهرة، ٢٠١١م، ص ١٢٩ - ١٣٤.

## الفصل الثاني

تنافس بني رسول مع المماليك  
حول مكة المكرمة





يعود تأسيس الدولة الرسولية باليمن إلى نور الدين عمر بن علي بن رسول الكردي<sup>(١)</sup> الذي قرّبه منه الملك المسعود صلاح الدين أبوالمظفر يوسف (أقسييس) الأيوبي صاحب اليمن، وجعله استاداره،<sup>(٢)</sup> وفي عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م عندما عزم الملك المسعود (أقسييس) على الذهاب إلى الديار المصرية لمقابلة والده الملك الكامل محمد طامعا في وضع يده على دمشق بعد أن أخذها والده من ابن عمه الملك الناصر داود،<sup>(٣)</sup> أناب عنه في حكم اليمن عمر بن علي بن رسول، وكما يقول الخزرجي عهد إليه بحكم "اليمن كله سهله ووعره، بره وبحره".<sup>(٤)</sup>

وفي أثناء توجهه إلى دمشق عرّج على مكة المكرمة التي كان قد فرض

(١) يذكر ابن الفوطي أن نور الدين علي بن رسول تركماني الأصل، ولد باليمن ونشأ بها. غير أن مؤرخ اليمن يحيى بن الحسين ينفى ذلك، وينسبه إلى جبلة بن الأيهم الغساني، ويقول: "ينسبهم من لا يعرف حقيقة خبرهم إلى التركمان". انظر: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق: بشار عواد، وآخرين، بيروت، ١٩٩٧م، ص ١٥٩ (يتشكك محققو الكتاب في صحة نسبه إلى ابن الفوطي)؛ يحيى بن الحسين: غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٦٨م، ق ١، ص ص ٤١٨، ٤١٩.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، تحقيق: محمد ضياء الدين الرئيس، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٥٩.

- الاستادار: يقول الفلقشندي: "موضوعه التحدث في أمر بيت السلطان.. وهو الذي يمشى بطلب السلطان، ويحكم في غلمانه وباب داره"، انظر "صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠.

(٣) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج ٢، ص ص ٦٥٨، ٦٥٩، المقرئزي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من خلفاء الملوك، ص ٧٨.

- الملك الناصر داود هو ابن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبي، ولد عام ٦٣٠هـ / ١٠٢٧م، وبعد وفاة والده استقر في حكم دمشق، ثم دخل في صراع مع عمه الملك الكامل حيث انتزعا منها، واستقر بعد ذلك في الكرك، وأخذت تتقلب به الأحوال حتى وفاته في ٢٦ جمادي الأولى من عام ٦٥٦هـ / ٣ يونيو ١٢٥٨م. انظر: الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، العراق، ١٩٧١م، ص ص ٣٤٦-٣٥٧.

(٤) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ج ١، ص ٤٣.

نفوذه عليها من قبل، فما كان إلا أن مرض بها مرضاً شديداً توفى على إثره، ودفن بها في مقابر المُعلا في ثالث عشر جمادى الآخرة من عام ١٠ مايو ١٢٢٩م. (١)

وقد أتاحت وفاة الملك المسعود صلاح الدين أبوالمظفر يوسف الفرصة أمام الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول لكي يوطد أقدامه باليمن، وينفرد بحكمها، وساعده في ذلك حسن سيرته في أهل اليمن، ومحبتهم له، (٢) ولم يلبث أن تلقب بالملك المنصور، وسك السكة باسمه، وخطب له على منابر اليمن. (٣)

ولما كان الملك المنصور عمر بن علي بن رسول ذو دهاء - كما وصفه الخزرجي - (٤)، فلم يعمل على إثارة الأيوبيين ضده، فأعلن ولاءه للملك الكامل محمد الأيوبي، وأرسل إليه الأموال والهدايا، فما كان من الملك الكامل إلا أن أقره على حكم اليمن، (٥) ولم يحاول بنو أيوب استرداد اليمن من يد بني رسول؛ وذلك لانشغالهم بمحاربة الصليبيين مما ساعد على استقلال بني رسول بحكم اليمن. (٦)

أما علاقة بني رسول بمكة المكرمة فتعود إلى عام ١١٧٠هـ / ١٢٢٠م عندما

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٤٢.

- يعقد سبط بن الجوزي مقارنة بين حال الملك المسعود وهو في حال مرضه بمكة وبين حاله عندما دخلها في أواخر عام ١١٩٠هـ، وما قام بها من أعمال سيئة حيث يقول سبط بن الجوزي: "بيست يداه ورجلاه، ورأى في نفسه العبر"، وكان ذلك كان عقاباً له، ويعلق سبط بن الجوزي بقوله: "فعوقب سريعاً، وضربه القدر ضرباً وجيعاً". انظر: مرآة الزمان، ج ٢، ص ٦٥٩.

(٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٤٣، ٤٤.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣١.

(٤) العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٤٦.

(٥) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٩، ص ١٥٩.

(٦) محمد جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس في مصر، القاهرة، د. ت، ص ١٢٨، حامد

زيان: الممالك، ص ٩٠.

عهد الملك المسعود صلاح الدين الأيوبي بولاية مكة المكرمة إلى الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول، فأحسن الأمير إلى أشرفها وأهلها، وأقام بها هو وأولاده. ومن الجدير بالذكر أنه كان من بين هؤلاء الأولاد ولد اسمه المظفر يوسف كان محبباً لأهل مكة لدرجة أنه تسمى بالمكي. (١)

وعلى الرغم من أن الملك المسعود أعاد عمر بن علي بن رسول إلى اليمن، حيث جعله أتباعه، وولاه أمر عساكره، إلا أن علاقة علي بن رسول لم تنقطع بمكة المكرمة وأهلها وأشرفها. (٢)

وقد كان للعلاقة الودية التي ربطت الملك المنصور عمر بن علي بن رسول بأهل مكة وأشرفها أثرها بعد انفراده بحكم اليمن، حيث أخذ في التفكير في مد نفوذه إلى مكة المكرمة، ولذلك أرسل عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م إلى الشريف راجح بن قتادة هدايا وأموالاً وقوة عسكرية تعمل تحت إمرته، وقد شجعت هذه القوة الشريف مكة على القيام بطرد القوات العسكرية الأيوبية الموجودة بمكة المكرمة، (٣) لكن دون إسقاط اسم السلطان الأيوبي من الخطبة؛ وذلك لمسارعة الملك الكامل محمد في إرسال القوات العسكرية إلى مكة لتثبيت سلطانه بها. (٤)

وفي محاولة من الملك المنصور عمر بن علي بن رسول لإكساب حكمه في اليمن صفة الشرعية، أرسل في عام (٦٣١هـ / ١٢٣٤م) رسولا إلى الخليفة العباسي يطلب منه تقليدا شريفا بنيابة اليمن، فجاءه الجواب بالإيجاب، وأن هذا التقليد

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٣٣.

(٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٣٣.

(٣) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٥٤.

- الشريف راجح بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم الحسنى المكي، تولى إمرة مكة أكثر من مرة، توفي في عام ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م. انظر الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ٣٧٢-٣٧٩.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ٣٧٤.

الشريف سوف يصله وهو بعرفة مؤدياً مناسك حج نفس العام، وبالفعل خرج الملك المنصور في حج هذا العام (٥٦٣١هـ / ١٢٣٤م) غير أن التقليد الشريف لم يصل إليه وذلك بسبب تعطل وإعاقة ركب حجاج العراق الذي لم يصل إلى بيت الله الحرام في هذا العام. (١)

ولم ييأس الملك المنصور، وعاود مراسلة الخليفة العباسي في شأن إرسال التقليد الشريف بحكم اليمن نيابة عنه، حيث أرسل في العام التالي (٥٦٣٢هـ / ١٢٣٠م) رسولا إلى بغداد محملا بالهدايا والتحف، فاستقبله الخليفة أحسن استقبال، وأنهى إلى الديوان العزيز استيلاء مرسله - أي عمر بن رسول - على جميع بلاد اليمن، وأنه مخلص في طاعة الديوان"، وقد استجاب الخليفة لطلبات عمر بن رسول". (٢)

وبعد أن اطمأن عمر بن رسول إلى تثبيت حكمه باليمن أخذ في التطلع لبسط نفوذه على مكة المكرمة يعاونه في ذلك الشريف راجح بن قتادة، الذي كان في صراع مع الملك الكامل محمد الأيوبي، وكما يذكر الفاسي فإن عمر بن رسول أرسل إلى راجح بن قتادة عام ٥٦٣٢هـ / ١٢٣٥م "بخزانة كبيرة، وأمره باستخدام الجند". (٣)

غير أن الملك الكامل محمد الأيوبي لم يكن على استعداد للتفريط في رعاية الحرمين الشريفين، وفي خروج حكم مكة عن يد الأيوبيين، لذلك سارع بإرسال خيرة الأمراء بصحبة مجموعات كبيرة من الجند لوضع حد لتدخل الملك المنصور في شؤون مكة المكرمة مما أدى إلى حدوث معركة بين قوات الأيوبيين وقوات

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٥٥.

(٢) ابن الساعي: تاريخ ابن الساعي، تحقيق: محمد عبدالله القذحات، الأردن، ٢٠٠٩م، ص ٣٢٦، ٣٢٧.

(٣) العقد الثمين، ج ٤، ص ٣٧٧.

عمر بن رسول بقيادة أحد أمراء اليمن المسمى الشهاب بن عبدان في مكان يقال له الخريقين، يذكر الفاسي أنه بين مكة والسرّين الواقعة على ساحل البحر الأحمر قرب جدة، وكانت الهزيمة من نصيب قوات اليمن، ومن ساندها من قوات راجح بن قتادة، ووقع القائد اليمنى الشهاب بن عبدان في أسر القوات الأيوبية، وأرسل مقيدا إلى الديار المصرية. (١)

ولم تفت هذه الهزيمة في عضد المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول، فتابع محاولاته لبسط نفوذه على مكة المكرمة، كما تابع إرسال الأموال والهدايا للشريف راجح بن قتادة لمساندته في الوقوف أمام قوات الأيوبيين، واستمر ذلك إلى حين وفاته في عام ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م. (٢)

ولا تعنى وفاة الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول انقطاع صلة بنى رسول بمكة المكرمة، إذ إن ابنه الملك المظفر يوسف الذى خلفه في حكم اليمن ارتبط برباط قوى مع أشرف مكة وأهلها وذلك منذ صباه، أيام إقامته مع والده بمكة المكرمة، لدرجة أنه حمل في اسمه لقب " المكي "، كما سبق ذكره، وما أن تولى الملك المظفر حكم اليمن حتى بادر إلى إرسال الأموال والهدايا إلى أهالى مكة المكرمة وأشرفها، وكذلك إرسال الجند لمساندة أشرف مكة المكرمة، ولإظهار قوته وسطوته. (٣)

من ذلك ما قام به المظفر يوسف بن الملك المنصور في شوال من عام ٦٥٢هـ / نوفمبر ١٢٥٤م من إرسال قائده مبارز الدين حسين بن على بن برطاس على رأس قوة عسكرية مؤلفة من مائتى فارس، وقد حاول شريف مكة أبونمى محمد التصدى له فلم يستطع، واستمر مبارز الدين بمكة حتى موسم الحج، حيث

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ٣٧٧، ٣٧٨.

(٢) الخزرجى: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٦٤، ٦٥، ٨٣، ٨٤.

(٣) الخزرجى: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ١٣٤.

حج بالناس في هذا العام. (١)

وقد ازداد النفوذ اليمني بمكة المكرمة عقب سقوط الخلافة العباسية في يد المغول في عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، وما تلا ذلك من انقطاع إرسال كسوة الكعبة من بغداد التي وقعت في يد المغول، حيث يحدثنا التاريخ أن المظفر يوسف أرسل كسوة الكعبة، وكذلك كسوة الحجرة الشريفة في عام ٦٦١هـ / ١٢٦٣م. (٢)

غير أن قيام دولة المماليك في مصر، وما قام به السلطان الظاهر بيبرس من تثبيت الحكم المملوكي بالديار المصرية والشامية، ثم تطلعه لبسط نفوذه على مكة المكرمة، وضع حداً للنفوذ اليمني بمكة المكرمة، ثم إن ما قام به المماليك من إحراز النصر على المغول في عين جالوت في عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م، جعلهم يتبوأون الزعامة في العالم الإسلامي، ومما يدل على ذلك ما حدث في حج عام ٦٥٩هـ / ١٢٦١م عندما أثار الملك المظفر يوسف أن يقدم أعلام السلطان الظاهر بيبرس على أعلامه، وعندما سأله أحد أصدقائه عن عدم تقديم أعلامه على أعلام الظاهر بيبرس رد عليه قائلاً: أتراني أؤخر أعلام من كسر التتر بالأمس، وأقدم أعلامي لأجل حضورى؟؟" (٣).

لكن لا يعنى ذلك انعدام التنافس بين حكام اليمن من بنى رسول وبين حكام مصر من المماليك حول مد نفوذهم إلى مكة المكرمة، لكنه استمر ولكن بصورة خفية غير معلنة، وقد حاول الظاهر بيبرس أثناء تأديته فريضة الحج عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م إشعار حاكم اليمن بالدور البطولى الذى قام به المماليك في العالم

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، ق ١، ص ٤٤٠.

- الملك المظفر يوسف هو الابن الأكبر للملك منصور، تولى حكم اليمن بعد وفاة والده عام ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م، واستمر في الحكم إلى حين وفاته في عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م. انظر:

الخرزجى: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٨٨-٢٧٥.

(٢) الخرزجى: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ١٣٤.

(٣) الخرزجى: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ١٣٤.

الإسلامي، وهو الأمر الذي لم يتحقق لأحد من حكام الدول الإسلامية، حيث أرسل إلى الملك المظفر يوسف رسالة يقلل فيها من شأنه؛ وذلك حتى يرفع يده عن مكة المكرمة، ولا يدس أنفه في شئون الحرمين الشريفين، فكتب إليه يقول: "الملك هو الذي يجاهد في الله حق جهاده، ويبذل نفسه في الذب عن حوزة الدين، فإن كنت ملكا فاخرج فאלق التتار"،<sup>(١)</sup> والمعروف أن الحرب مع المغول لم تنته بهزيمتهم في عين جالوت، ولكنهم استقروا في العراق وإيران (الدولة الإيلخانية)، وأخذوا في مناوأة مختلف القوى الإسلامية المجاورة، وهو الأمر الذي تصدى له سلاطين المماليك وعلى رأسهم الظاهر بيبرس.<sup>(٢)</sup>

وقد أيقن بنو رسول في اليمن عدم مقدرتهم على مجابهة المماليك، لذلك آثروا إقامة العلاقات الودية معهم، وقد ساعد ذلك على تخفيف حدة التنافس على السيطرة أو بسط النفوذ بمكة المكرمة، فكانت السفارات تخرج في كل عام من اليمن محملة بالهدايا متوجهة إلى القاهرة؛ وذلك إثباتا لصدق نوايا حكام اليمن، وتأكيدا لعلاقتهم الطيبة مع سلاطين المماليك، وفي المقابل كان سلاطين المماليك يبعثون بالهدايا إلى بنى رسول باليمن.<sup>(٣)</sup>

ومرة أخرى نؤكد على أن تلك العلاقات الودية التي تم تبادلها بين المماليك وبنى رسول أدت إلى تخفيف حدة التنافس حول بسط نفوذهم على مكة المكرمة،

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨٢.

(٢) وعن المعارك التي دارت بين المماليك ومغول فارس انظر: السيد الباز العرينى: المغول، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٥٣-٣٢٠، فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٦٣-٢٠٤، برتولد شبولر: العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة: خالد أسعد، دمشق، ١٩٨٢م، ص ٥٧-٨٤.

(٣) عن هذه السفارات والهدايا المتبادلة بين المماليك وبنى رسول انظر: بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق: عبدالحميد صالح حميدان، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٣٨؛ الجزرى: تاريخ حوادث الزمان وأنباء وفيات الأكابر والأعيان، ص ٦٨-٩٤؛ الخزرجى: العقود اللؤلؤية، ج ٢، ص ٣٦٠، ٣٦١.

وليس اختفاء ذلك التنافس، فقد حدثت -في بعض الأحيان- مناوشات بين قوات المماليك وقوات بنى رسول بمكة المكرمة خصوصا أثناء تأدية فريضة الحج، كما أن موقف أشراف مكة المتأرجح بين الانحياز إلى جانب أحد الفريقين كان عاملا مساعدا على إثارة النزاع بين المماليك وبنى رسول.

ومن مظاهر ذلك التنافس ما ذكره الفاسي في أحداث عام ٥٧٤٢هـ / ١٣٤٢م عندما حج الملك المجاهد سيف الدين علي بن داود حاكم اليمن (٧٢١ - ٥٧٦٤هـ / ١٣٢١ - ١٣٦٣م)، وحمل معه من خيرات اليمن الشيء الكثير، فخشى من قيام الفرق العسكرية المملوكية المتواجدة بمكة المكرمة من التعرض له، ومنعه من أداء مناسك الحج، فطلب من أشراف مكة حمايته، فلم يتأخر الشريف رُميثة بن أبي نُمى من حمايته حتى قضى مناسك الحج. (١)

كذلك ما حدث في حج عام ٥٧٨١هـ / ١٣٧٩م عندما اصطحب حاكم اليمن الملك الأشرف إسماعيل بن الملك الأفضل (٧٧٨ - ٥٨٠٣هـ / ١٣٧٦ - ١٤٠١م) لمحمل يضم الكثير من أصناف المأكّل والمشرب والثياب، وحاول بعض أمراء المماليك الموجودين بمكة الحط من شأن هذا المحمل، لكن أمير مكة الشريف أحمد بن عجلان استطاع حماية هذا المحمل، ولم يمكن أمراء المماليك من تحقيق هدفهم في الحط من شأنه. (٢)

(١) شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٤٧.

- الملك المجاهد سيف الدين علي بن الملك المؤيد، تولى حكم اليمن بعد وفاة والده عام ٧٢١هـ / ١٣٢١م، واستمر في الحكم حتى وفاته في عام ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م. انظر: الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٤٤٠، ج ٢، ص ١٢٣؛ الفاسي: العقد الثمين، ج ٦، ص ص ١٥٨-١٧٤.

(٢) الفاسي: شفاء القلوب، ج ٢، ص ٢٥٠.

- الملك الأشرف إسماعيل بن الملك الأفضل، تولى حكم اليمن بعد وفاة والده عام ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م، واستمر في الحكم حتى وفاته في عام ٨٠٣هـ / ١٤٠١م. انظر: الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج ٢، ص ١٥٧، ٣١٦.



## الفصل الثالث

مكة المكرمة في ظل حكم الشريف أبي نهمى



تعتبر فترة حكم الشريف أبي نُمى محمد (٦٥٢ - ٧٠١هـ / ١٢٥٤ - ١٣٠٢م) من أهم فترات تاريخ مكة المكرمة، ويعود ذلك إلى عدة أسباب يأتي في مقدمتها ما تمتع به هذا الرجل من فطنة وحنكة سياسية استطاع بها أن ينجو بمكة المكرمة من دوامة الصراع بين مختلف القوى التي أحاطت بها، وتطلعت لبسط نفوذها عليها، وثانياً لقدرته على إقامة التوازن بين كل من قوة دولة المماليك المتزايدة وقوة دولة بني رسول الطامعة في بسط نفوذها على مكة المكرمة، وثالثاً استطاعته كبح جماح مختلف القوى داخل مكة المكرمة المتمثلة في بعض القبائل العربية الطامعة في إيجاد نفوذ لها داخل مكة، وقدرته على إرضاء أشرف مكة فنال محبتهم. ورابعاً عمل على استتباب الأمن، وبذل جهداً كبيراً من أجل الاستقرار الاقتصادي، فلم تشهد مكة المكرمة طيلة حكمه الطويل أزمات اقتصادية مما أدى إلى ارتباط أهالي مكة المكرمة به، وزاد من محبتهم له.

أما الشريف نجم الدين محمد هذا فهو ابن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب،<sup>(١)</sup> وهو بذلك من سلالة بني قتادة أشرف مكة المكرمة الذين ينتمون إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وبعد مقتل والده أبي سعد حسن عام ٦٥١هـ / ١٢٥٣م<sup>(٢)</sup> دخلت مكة المكرمة في صراع انتهى بولاية كل من أبي نُمى محمد وعمه إدريس بن قتادة لها في عام ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م،<sup>(٣)</sup> واستمرت إمرة أبي نُمى لمكة المكرمة مشاركا لعمه إدريس،

(١) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ص ٩٢٦، ٩٢٧، ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ص ١٩٩، ٢٠٠.

(٢) العز بن فهد: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ج ١، ص ٦٣٥.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ص ٢٠١ - ٢٠٢، العقد الثمين، ج ١، ص ٤٥٧، تولى أبوسعد

حسن والد أبي نُمى إمرة مكة في الفترة الواقعة بين شوال عام ٦٤٧هـ وشعبان ٦٥١هـ / يناير ١٢٥٠ - أكتوبر ١٢٥٣م.

وإن تخللتها بعض فترات الاضطراب حتى حكمها بمفرده بعد تخلصه من عمه إدريس بالقتل في عام ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م،<sup>(١)</sup> واستمر يليها حتى وفاته في شهر صفر من عام ٧٠١هـ / أكتوبر عام ١٣٠١م.<sup>(٢)</sup>

وقد وصف الشيخ الذهبي الشريف أبا نُمى بأنه كان أسمر اللون، ضخماً، شجاعاً، سائساً، مهيباً، وروى الذهبي عن أحد العلماء قوله: "لولا أنه زيدي لصلح للخلافة لحسن صفاته".<sup>(٣)</sup> وقد أكد معظم المؤرخين على تمتعه بذكاء سياسي، وحسن تصرف.<sup>(٤)</sup>

وبالإضافة إلى ذلك كان الشريف أبو نُمى محمد ملماً بالأدب محباً لسماعه، يقول الخزرجي إنه كانت له "الإجازات للشعراء الوافدين عليه من إطلاق الخيال، وإجازات القصائد"<sup>(٥)</sup>.

كما أحاط أبي نُمى محمد نفسه بهيبة كبيرة لدرجة أنه أذهلت الكثيرين ممن زاروا مكة في تلك الفترة، فهذا هو الرحالة ابن رُشيد الذي زارها في عام ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م، وأدى فريضة الحج في نفس هذا العام يقول واصفاً هيئة الشريف أبي نُمى محمد: "إنه يبني بمنى، ويحيى غداة يوم عرفة، وينزل بالآراك في مضارب له في نهاية من الاحتفال يعجز عنه الوصف، تحيط بها دهاليز... قد رفعت عليها الألوية، وأعمدة بيت آدم في نهاية الارتفاع، وكذلك خيله ورحائله الفرس والفارس، مجلّان بالسلاح، وعلى الخيل لباس يسمونه الجوشن، والرحائل

(١) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ١٣٤، انظر: الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠١. ابن

ظهيره: الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، ص ٦٥٢، ٦٥١.

(٢) أبو الفدا: المختصر، ج ٤، ص ٤٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٩٩، ٢٠٠.

(٣) ذيول العبر في خبر من غير، تحقيق: أبو هاجر محمد، بيروت، ١٩٨٥م، ج ٤، ص ٣، ٤.

(٤) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٩٢٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،

ج ٨، ص ٩٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٦، ص ٢.

(٥) العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٣٣٥.

عليها قباب الحرير المختمة بالذهب".<sup>(١)</sup>

ومنذ أن تولى أبو نَمي محمد حكم مكة حاول استقطاب مختلف القوى المعاصرة له، خصوصاً أنه واكب انهيار قوة الخلافة العباسية، وظهور المغول كقوة كاسحة في الشرق الإسلامي، وانهيار وسقوط الدولة الأيوبية في مصر، واضطراب الأمور بالديار المصرية إثر قيام الصراع بين أمراء المالِك وبعضهم البعض.

لذلك بعد أن تولى محمد بن أبي زكريا يحيى الحفصي (٦٤٧-٦٧٥هـ/ ١٢٤٩-١٢٧٦م)) حكم تونس في عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م،<sup>(٢)</sup> وإعلان نفسه خليفة عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م، واتخاذ لقب المستنصر بالله<sup>(٣)</sup> سارع أبو نَمي بمبايعته، ودعا له على منابر مكة المكرمة عام ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م.<sup>(٤)</sup>

ويرى البعض أن الدافع الرئيسي وراء اعتراف أبي نَمي بخلافة الأمير الحفصي هو كون الأخير قرشياً، حيث أعلن الحفصيون أنهم ينتسبون إلى الخليفة أبي حفص عمر بن الخطاب.<sup>(٥)</sup>

(١) ملء العيبة بطول الغيبة في الوجهة الوجيبة إلى الحرمين مكة وطيبة، الجزء الخامس المعروف باسم: "الحرمان الشريفان ومصر والإسكندرية عند الصدور"، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٩٦.

- الأراك : بقعة من الأرض يكثر بها نبات الأراك، وهو نبات شجري، كثير الفروع، وهو شجر المسواك. انظر: المعجم الوسيط، ج ١، ص ١٥.

- الجوشن : نوع من أنواع الدروع يلبس على الظهر، يتكون من عدة حلقات ترتبط ببعضها بصفائح رقيقة. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٧٣، هامش رقم ١.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٦، ص ٣٥٥.

(٣) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ق ٤، ص ٧٩١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٣٢.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٣٢.

(٥) ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، تونس، د.ت، ص ٢٩٢.

- محمد بن أبي زكريا يحيى : تولى حكم تونس بعد وفاة والده أبي زكريا عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، حمل أولاً لقب سلطان، ثم تلقب بأمير المؤمنين، ثم حمل لقب خليفة، واستمر يحكم تونس حتى وفاته في عام ٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م. انظر: المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٣٥٥، ٦٣٤.

ومن الواضح أن الأمير الشريف أبا نُمى محمد كان يسعى في ذلك الوقت إلى أن يستمد قوته من مختلف القوى المعاصرة له، ومما يدل على ذلك، أنه أقام علاقة قوية مع حكام اليمن من بنى رسول في نفس الوقت، حيث يشير الخزرجي إلى أن السلطان المظفر شمس الدين يوسف الأول (٦٤٧ - ٦٩٤هـ/١٢٤٩-١٢٩٥م) تولى أمر الحرم الشريف وعمارته في عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م.<sup>(١)</sup>

غير أنه بعد ظهور المماليك، واستتباب أحوال الديار المصرية والشامية لهم بعد أن استطاع السلطان بيبرس القبض على زمام الأمور، أخذ الشريف أبونُمى في تغيير سياسته تجاه المماليك، كما بذل جهدا كبيرا من أجل إقامة توازن بين القوتين؛ قوة المماليك وقوة بنى رسول.

وخير مثال على ذلك ما حدث في حج عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م، عندما وصلت إلى مكة المكرمة فرقة عسكرية مصاحبة لحجاج اليمن، رافعة أعلامهم، كما وصلت أيضا من مصر فرقة عسكرية مصاحبة لحجاج مصر، رافعة أعلامهم أيضا، واجتمع الجميع يوم عرفة، وهنا احتار أبونُمى إلى أي القوتين ينحاز، لكنه بذكائه أراد ألا يغضب أحد الطرفين بانحيازهم إلى الطرف الآخر، لذلك أثار الانسحاب تماما من مكة المكرمة، ولم تحدث مناوشات بين الفريقين، وانتهى حج هذا العام بسلام.<sup>(٢)</sup>

وخلال فترة حكم الشريف أبي نُمى محمد لمكة المكرمة بذل جهدا كبيرا من أجل راحة حجاج بيت الله الحرام، ونشر الأمن بينهم، وقد اتبع في ذلك أساليب كثيرة اتسمت بالدبلوماسية، ومن ذلك على سبيل المثال ما حدث في حج عام ٦٥٣هـ/١٢٥٦م عندما كادت أن تتشب فتنة كبيرة على إثر حدوث احتكاك بين الحرس المصاحب للحجاج المصريين وبين أهل مكة مما أدى إلى اعتزام أمير

(١) العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ١٢٨.

(٢) ابن الفوطى: الحوادث الجامعة، ص ٣٢٨.

الحج المصري فلَّكُ الدين محمد بن علاء الدين الطبرسي الدويدار الكبير قتال أمير مكة، فما كان من أبي نُمى محمد إلا أن قدم اعتذاراً له، وقال له إن ما وقع كان من الجهال، وسأله الكف عن القتال، فهدأت نائرة الأمير فلك الدين محمد، وانتهت الفتنة، ومر موسم الحج بسلام. (١)

وتأكيداً لما اتصف به الشريف أبونمى محمد من حُسن السياسة والتصرف الجيد هو استماعه لنصائح السلطان الظاهر بيبرس في إنهاء خلافاته مع عمه الشريف بهاء الدين إدريس، وفي مقابل ذلك منحه بيبرس الأموال والهدايا، وإطلاق الأوقاف المخصصة للحرم المكي بالديار المصرية مما أنعش الأحوال الاقتصادية بمكة المكرمة (٢).

ومما يدل على براعة الشريف أبى نُمى محمد، وقدرته على اكتساب ود واحترام الملوك والحكام، ذلك الاستقبال الباهر الذى استقبل به السلطان الظاهر بيبرس عند قيام الأخير بأداء مناسك الحج فى عام ٥٦٦٧هـ/١٢٦٩م، حيث قدم له فروض الطاعة والولاء مما أدى إلى أن يخلع عليه الظاهر بيبرس الخلع السنية، وأن ينعم عليه وعلى أهالى مكة المكرمة بالإنعامات الوفيرة مما أدى إلى زيادة الرخاء بمكة المكرمة (٣). كما أن الظاهر بيبرس عندما لمس منه فطنة وحُسن سياسة أقره على إمرة مكة المكرمة مشاركا لعمه بهاء الدين إدريس، وأصدر بذلك منشورا (٤).

وحتى يستفيد الشريف أبونمى محمد من قوة دولة الممالِك بعد أن علم برجاحة كفتهم، وأنهم أصبحوا أقوى من دولة بنى رسول، طلب من السلطان

(١) ابن الفوطى: الحوادث الجامعة، ص ٣٢٨.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٧٩.

(٣) اليونينى: ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٤٠٩، الخزرجى: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ١٧١.

(٤) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨٢.

الظاهر ببيرس أن يعين له أحد الأمراء يكون عوناً وسنداً له في حكم مكة المكرمة، وقد وافق الظاهر ببيرس على هذا الطلب، وأقر الأمير شمس الدين مروان ليكون نائباً له بمكة المكرمة<sup>(١)</sup>، وقد اعتمد الشريف أبونمي على الأمير شمس الدين مروان اعتماداً كبيراً لدرجة أن أصبح الحل والعقد بيديه<sup>(٢)</sup>.

ومن الأمور التي توضح دبلوماسية الشريف أبي نمي محمد، ودهائه السياسي قيامه بإقرار ابن عمه الشريف غانم بن إدريس شريكاً له في إمرة مكة المكرمة بعد مقتل والده الشريف إدريس عام ٥٦٦٩هـ/١٢٧١م؛ وذلك حتى يعمل على تهدئة الفتنة التي حدثت بمكة المكرمة بعد مقتل الشريف إدريس<sup>(٣)</sup>، ثم قام بعزله بعد ذلك، فلم تستمر إمرة غانم على مكة المكرمة سوى أيام قليلة<sup>(٤)</sup>.

كذلك فإن الشريف أبا نمي محمد عمل على تطبيق سياسة التوازن بين قوة المماليك وقوة الرسولين باليمن، فعلى الرغم من علاقته الطيبة بالمماليك، فيما عدا بعض الفترات التي اضطربت خلالها تلك العلاقة، فإنه حافظ على علاقته الطيبة مع حكام الدولة الرسولية، ولم يقطع صلته بهم، وكان يُظهر ولاءه واحترامه لهم في بعض الأحيان، ومن ذلك مثلاً ما حدث في عام ٥٧٠١هـ/١٣٠٢م عندما توجه حاكم اليمن السلطان الملك المؤيد هزير الدين داود بن يوسف (٦٩٦-٥٧٢١هـ/١٢٩٧-١٣٢١م) إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، فاستقبله الشريف أبونمي محمد استقبالا حافلاً، وقدم له ما يليق بمقامه من الإجلال والاحترام مما

(١) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٨٢.

(٢) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٨٢.

(٣) العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ١٧٨، وانظر أيضاً: زامبور: معجم الأنساب، ج ١، ص ٣١.

- بعد حدوث خلافات بين الشريف أبي نمي محمد وعمه الشريف إدريس وقعت بينهما حرب في عام ٥٦٦٩هـ/١٢٧١م، فانهزم إدريس، ووقع من على جواده، فقام الشريف أبونمي بقطع رأسه. انظر الفاسي: العقد الثمين، ج ٣، ص ٢٧٨-٢٨٠.

(٤) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ١٩٤.



أسعد قلب السلطان الملك المؤيد هزير الدين، وأدى إلى إغداقه بالإنعامات على أشرف مكة المكرمة وأهلها، ومما يجدر ذكره أن السلطان هزير الدين حمل معه إلى مكة المكرمة " الغلة والكساوى والطيب والمسك والعود والصندل والعنبر والثياب الملونة والخلع النفيسة"، فضلا عن تلك الأموال التي يقدرها الخزرجى بأنها كانت "ثمانية آلاف درهم". (١)

وعلى الرغم من حُسن سياسة الشريف أبى نُمى محمد، وعلاقاته الخارجية الجيدة، إلا أنه لم يهتم كثيرا بأمر نظافة المسجد الحرام، الذى تشد إليه الرحال من مختلف أنحاء الأرض؛ فعندما زار الرحالة المغربى العبدرى مكة المكرمة فى عام ١٢٩٠هـ/١٢٩٠م قدم نقدا لاذعا لما وجده من عدم الاهتمام بنظافة المسجد الحرام، وما وجده عند قبة زمزم من أوساخ، وما شاهده من ازدحام، وعدم وجود نظام، (٢) وقد أوصى العبدرى بضرورة وجود من يقوم على الإشراف على المسجد الحرام، فيقول: "وبودى لو أتاح الله لهم محتسبا يذيقهم النكال، فإن حرم الله أولى المواضع

(١) العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٣٣٥.

- الملك هزير الدين داود بن يوسف بن محمد بن علي بن رسول، تولى حكم اليمن بعد وفاة أخيه الأشرف عمر بن يوسف عام ٦٩٦هـ/١٢٩٧م، واستمر فى الحكم حتى وفاته فى عام ٧٢١هـ/١٣٢١م. انظر: يحيى بن الحسين: غاية الأمانى، ق ١، ص ٤٧٨، ٤٩٤.

(٢) رحلة العبدرى: تحقيق: على إبراهيم كردى، دمشق، ٢٠٠٥م، ص ٣٧١.

- العبدرى هو عبدالله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدرى، ينتهى نسبه إلى عبدالدار بن قصي بن كلاب، مغربى الأصل، ولد فى حوالى منتصف القرن السابع الهجرى، نال تعليمه الأول فى بلدته حاحة، ثم انتقل إلى مراكش، ووصل إلى درجة متقدمة فى علوم القرآن والحديث، توفى فى أوائل القرن الثامن الهجرى. انظر: كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، ١٩٦٣م، ق ١، ص ٣٦٧، العبدرى: رحلة العبدرى، ص ٧، ٨.

بالهيبية، ولزوم السكنينة".<sup>(١)</sup>

والمعروف أن كتابات الرحالة تكون مرآة صادقة، فهم يصورون ما يشاهدونه، خصوصا إذا لم تكن لديهم أهواء خاصة تجعلهم يزيّفون بعض الحقائق،<sup>(٢)</sup> وقد وُصِفَ العبدري بأنه كان صادقا فيما نقله من معلومات خاصة عن الحياة الاجتماعية للبلاد التي زارها،<sup>(٣)</sup> كما أن الرحالة التّجيبى الذى كان معاصرا للعبدري،<sup>(٤)</sup> وزار مكة المكرمة بعد زيارة العبدري بسبع سنوات، أى فى عام ١٢٩٧/٥٦٩٦م، وهو زمن أبى نُمى محمد شاهد أيضا بعض السلبيات خصوصا فى المسجد الحرام، والكعبة المشرفة، ومن ذلك ما يرويه من قيام بعض القائمين على أمر بيت الله الحرام من أخذ أموال الحجاج بشتى الطرق.<sup>(٥)</sup>

ويبدو أن السبب فى وجود هذه السلبيات هو ترك أبى نُمى محمد لبعض أشرف مكة والقائمين على أمر بعض الوظائف بها وشأنهم، وعدم التدخل فيما يقومون به من أعمال، وذلك حتى لا يثير حفيظتهم ضده، خصوصا أن فترة حكمه التى استمرت ما يقرب من خمسين عاما، تخللتها فترات صراع وتنافس شديد على إمارة مكة المكرمة.

(١) رحلة العبدري، ص ٣٧١.

- المحتسب: وظيفة دينية يتولى صاحبها الأمر والنهى، والإشراف على مختلف المقاييس والأوزان والصناع، والإشراف أيضا على الأسواق، ويعاقب الخارجين. المقرئى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ١، ص ٤٦٣، ٤٦٤.

(٢) حامد زيان : دراسات تاريخية فى المصادر العربية، القاهرة، د.ت، ص ٨٤.

(٣) كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى، ص ٣٦٧.

(٤) التّجيبى: هو القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التّجيبى السبتي، إمام محدث، ولد فى حدود حوالى ٦٧٠هـ، وتوفى فى عام ٧٣٠هـ. انظر: الصفدى: الوافى بالوفيات، ج ٢٤، ص ص ١٢٩، ١٣٠؛ ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ص ٣٢٤، ٣٢٥.

(٥) التّجيبى: مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبدالحفيظ منصور، تونس، ١٩٧٥م، ص ص ٢٦٤، ٢٦٥.

## الفصل الرابع

الصراع بين أشرف مكة المكرمة  
وأثره على الوضع الداخلي بها



إذا كان الأمير الشريف أبو نُمى محمد قد أتاه الله من الحكمة وحُسن السياسة ما استطاع به التغلب على منافسيه، وعَمِل على تخفيف حدة الصراع بين أشرف مكة المكرمة وبعضهم البعض، إلا أنه بعد وفاته عام ١٣٠١/٥٧٠١م دخلت مكة المكرمة فى سلسلة من الصراعات التى كان لها تأثير سلبى على الأوضاع الداخلية بها.

وقد ذكر المؤرخ النويرى أن الشريف أبا نُمى محمد ترك من الأولاد واحدا وعشرين ولدا،<sup>(١)</sup> تصارعوا فيما بينهم على الوصول إلى السلطة، وساعد على ذلك الصراع الانشقاق الذى سرى بين معظم أشرف مكة المكرمة وقوادها.<sup>(٢)</sup>

فبعد وفاة الشريف أبى نُمى محمد تولى ابنه الأكبر رُميثة إمرة مكة المكرمة، واشترك معه أخوه حُميضة، حيث تحالف الاثنان مع بعضهما، وساندهما جماعة من أشرف مكة المكرمة وقوادها، وفى نفس الوقت وحتى يخلص لهما حكم مكة المكرمة قاما بالتخلص من أخويهما أبى الغيث وعطيفة بأن زجاهما فى السجن!!<sup>(٣)</sup> غير أن سجن كل من أبى الغيث وعطيفة لم يطل، فلم يلبثا أن خرجا بعد أن تحايلا على ذلك بشتى الطرق، وقاما بالاستجداد ببعض قواد مكة وأشرفها<sup>(٤)</sup> ومن الجدير بالذكر فإن ولاء أشرف مكة وقوادها توزع بين كل من رميثة ويحالفه حُميضة، وبين أبى الغيث وأخيه عطيفة مما أدى إلى حدوث صراع وشقاق كبير بين مختلف القوى بمكة المكرمة.<sup>(٥)</sup>

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج ٣٢، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٥.

(٢) الخزرجى: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٣٣٦.

(٣) النويرى: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٥، ابن قاضى شُهبة: تاريخ ابن قاضى شُهبة، تحقيق:

عدنان درويش، دمشق، ١٩٩٤، المجلد ٢، الجزء ١، ص ٥٢١.

(٤) الفاسى: العقد الثمين، ج ٤، ص ٤٠٥.

(٥) الخزرجى: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٣٣٦.

وبعد وصول ركب الحج المصري (لحج عام ٥٧٠١/١٣٠٢م) وعلى رأسه الأمير الكبير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وبصحبه ثلاثون أميراً،<sup>(١)</sup> وتأييده مناسك الحج، شكا إليه أبو الغيث وعطيفة من أخويهما رُميثة وحميضة، وأنها إلى مسامعه ما قاما به في حقهما من أفعال سيئة، فغضب بيبرس الجاشنكير، وقبض على كل رُميثة وحميضة، وعزلهما عن إمرة مكة المكرمة، وأقر على حكمها كلا من الشريف أبي الغيث بن أبي نُمى محمد، وابن عمه الشريف محمد بن إدريس، بعد أن أقسما على الإخلاص للسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون،<sup>(٢)</sup> بينما أخذ معه، وهو عائد إلى الديار المصرية كلا من الشريف رميثة والشريف حُميضة، وهما مقيدان في الحديد، حيث تم اعتقالهما بالقاهرة.<sup>(٣)</sup>

ولم يلبث أن طمع الشريف أبو الغيث في حكم مكة بمفرده، فقام بعزل ابن عمه الشريف محمد بن إدريس في عام ٥٧٠٣/١٣٠٤م مما أدى إلى حدوث فتنة بين أشرف مكة المكرمة لدرجة أن المؤرخ الخزرجي يعلق على هذا الحدث بقوله:

(١) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٥.

- الأمير بيبرس الجاشنكير: هو بيبرس البرجي العثماني، كان من مالِك المنصور قلاوون، أخذ في الترقى، ثم قفز إلى عرش السلطنة عام ٥٧٠٨/١٣٠٩م، لكن لم تطل سلطنته فلم يلبث أن عزل في أواخر عام ٥٧٠٩/مارس ١٣١٠م. انظر: ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦م، ج ٢، ص ٣٦-٤٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٧٠-١٨١.

(٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٣٣٦.

- الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٣.

- يذكر كل من بيبرس الدوادر والنويري أنه أقيم في إمرة مكة المكرمة بعد القبض على كل من رميثة وحميضة، وكل من الشريفين أبي الغيث وعطيفة ابني أبي نُمى محمد. انظر: زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٣٤٨، (تحقيق: زبيدة عطا، القاهرة، د.ت)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣٢، ص ١٥.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٥.

"واشتد الأمر، وحدثت بينهما حروب كثيرة، قُتل فيها جماعة من الأشراف".<sup>(١)</sup>  
ومن النص السابق يمكن أن نستنتج عدة نتائج ذات أهمية كبيرة عن أوضاع مكة المكرمة في تلك الفترة:

أولاً: وصول هذا الصراع الذي حدث بين أشراف مكة إلى درجة الحرب، ووقوع العديد منهم قتلى.

ثانياً: حدوث فوضى عارمة في مكة المكرمة، واشتداد الأمر على كل من بها سواء من أهلها أو المقيمين من الزوار والمجاورين والحجاج حيث اضطربت الأحوال الاقتصادية، وخلت الأسواق من مختلف الأغذية.

ثالثاً: توقع تدخل السلطات المملوكية في شئون مكة المكرمة، وذلك لحسم ذلك الصراع لمصلحتها، وتشديد قبضتها عليها، وتزويد مكة بما يلزمها من مؤن وغذاء.

وهنا فكر الشريف أبو الغيث في البحث عن قوة تحميه من غضب سائر أشراف مكة من ناحية، ومن غضب السلطات المملوكية من ناحية أخرى، لذلك أرسل إلى حاكم اليمن السلطان الملك هزير الدين داود بن يوسف يطلب مساعدته، ويعلن طاعته له، فوافق السلطان هزير الدين على مد يد المساعدة إليه.<sup>(٢)</sup>

ولم يكن من المتوقع أن يقف السلطان المملوكي الناصر محمد موقف المتفرج من هذه الأحداث، ويرضى بخروج الشريف أبي الغيث عن طاعته، واللجوء إلى الدولة الرسولية باليمن، لذلك أرسل في نفس العام (٣٠٤هـ/١٣٠٤م) جيشاً كثيفاً وضع على رأسه الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة المملوكية، وصحب سلار معه ثلاثين أميراً من كبار أمراء المالِك.<sup>(٣)</sup>

(١) العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٣٣٦.

(٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٣٣٦.

(٣) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٥٤.

- نائب السلطنة: يقول القلشندي: هو "من ينوب عن السلطان بحضرته أو خارجاً عنها"، =

ويبدو أن السلطان الناصر محمد كان قد أعد العُدَّة لعزل الشريف أبي الغيث عن إمارة مكة المكرمة، لذلك أصدر أوامره بإطلاق سراح الشريفين رميثة وحميضة اللذين كانا محبوسين في القاهرة، وأخذ عليهما الموائيق والعهود، وتعهدا بالولاء للسلطان وعدم الخروج عن طاعته، ثم أرسلهما إلى مكة المكرمة بصحبة الأمير عز الدين أيدمر الكوكندى.<sup>(١)</sup>

وما أن وصلت القوات المملوكية إلى مكة المكرمة إلا وألقت القبض على الشريف أبي الغيث وأخيه عطيفة، في حين تمت إعادة الشريفين رميثة وحميضة إلى إمارة مكة المكرمة، أما أبو الغيث وعطيفة فقد أرسلوا إلى الديار المصرية، حيث تم اعتقالهما بها حتى لا يثيرا الفتن في مكة المكرمة من جهة،<sup>(٢)</sup> وحتى يكونا تحت أعين السلطات المملوكية للاستفادة بأحدهما بعد ذلك كما سيتضح فيما بعد.

لم يغادر الأمير سلار ومن معه من الأمراء مكة المكرمة إلا بعد أن أدوا مناسك حج هذا العام (٥٧٠٣هـ / ١٣٠٤م)، وقاموا بالتوسعة على أهالي مكة المكرمة والحجاج والمجاورين، حيث أغدقوا على الجميع الأموال والغلال،<sup>(٣)</sup> ويقدر

= وهو "القائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها". انظر صبح الأعشى، ج ٤، ص ص ١٦-١٨، ج ٥، ص ٤٥٣، وعن مهام نائب السلطنة انظر: محمد عبدالغنى الأشقر: نائب السلطنة المملوكية في مصر، القاهرة، ١٩٩٩، ص ص ٦٧-٨٩.

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج ٩، ص ٣٦٢، تحقيق: دنالد س. ريتشاردز، بيروت، ١٩٩٨، ص ٣٨٢، التحفة المملوكية في الدولة التركية، تحقيق: عبدالحميد صالح حميدان، بيروت ١٩٨٧، ص ١٧٤. يذكر العيني سببا آخر للإفراج عن رميثة وحميضة، وهو ما أخبر به أحد أمراء المالِك من أن الشريف أبا الغيث غير قادر على ضبط أمور مكة دون أن يذكر شيئاً عن استعانتة بحاكم اليمن. انظر: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد أمين، القاهرة، ١٩٩٢، ج ٤، ص ٢٢٩-٣٠٠.

(٢) بيبرس الدوادار: التحفة المملوكية، ص ١٧٤، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٦٩.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٦٩.



المقریزی مقدار الغلال التي صاحبها معه سلا ر بـ " عشرة آلاف إردب غلة"، هذا بخلاف تلك الغلال التي أخذها معهم الأمراء المصاحبون له.<sup>(١)</sup> ويذكر ابن تغرى بردى أن الأمير سلا ر في هذه الحجة فرق في أهل الحرمين أموالاً كثيرة، وغللاً وثياباً تخرج عن حد الوصف، حتى أنه لم يدع بالحرمين فقيراً.<sup>(٢)</sup>

وعلى هذا النحو كان للخلاف والتنافس الذي حدث بين أبناء الشريف أبى نى، أثره في زيادة تدخل السلطات المملوكية في شئون مكة المكرمة، فلم يقتصر الأمر على مساندة أحد الأشراف ضد الآخر، وإنما وصل إلى حد التحكم في شخص هؤلاء الأشراف، والإقدام على القبض على من يقف ضد السلطان المملوكى منهم وإرساله مكبلاً بالحديد إلى السجون بالديار المصرية، وإقامة من يدين بالولاء والطاعة للممالك.

وقد تابع السلطان الناصر محمد تدخله في شئون مكة المكرمة، وساعده على ذلك أشراف مكة أنفسهم؛ ففي عام ٧١٣هـ/١٣١٣م عندما ازدادت الشكوى من الشريفين رُميثة وحميضة، قام بعزلهما عن إمرة مكة المكرمة، وأقام مكانهما أخاهما الشريف أبا الغيث الذي كان مقيماً بالديار المصرية، وقد زود السلطان الناصر محمد الشريف أبا الغيث بقوة عسكرية لمساندته في حكم مكة المكرمة، وقبل أن يصل أبو الغيث إلى مكة المكرمة وبصحبه تلك القوة تم إخراج كل من رُميثة وحميضة من مكة المكرمة حتى لا تحدث مشاحنات بين أتباع كلا الفريقين.<sup>(٣)</sup>

غير أن مدة ولاية أبى الغيث لمكة المكرمة لم تطل، فقد أساء السيرة، وأساء التدبير،<sup>(٤)</sup> وحتى يكون حُر التصرف أعاد القوة العسكرية المملوكية التي كانت تسانده

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٢٤.

(٢) النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١٩.

(٣) الفاسى: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٣.

(٤) الفاسى: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٤.

إلى مصر مما أفقده القدرة على مجابهة الأخطار المحيطة به، ودفع ذلك أخاه حُميضة إلى إزاحته من حكم مكة المكرمة والجلوس مكانه،<sup>(١)</sup> وانتهى أمر هذا الصراع بوقوع أبي الغيث أسيرا في قبضة أخيه حُميضة الذي لم يرحمه، وإنما قتله شر قتلة في شهر ذي الحجة من عام ٧١٤هـ/١٣١٤م، وتولى إمرة مكة المكرمة مكانه.<sup>(٢)</sup>

وقد حاول حُميضة كسب ود السلطان الناصر محمد ورضائه، فأرسل إليه رسولا وبعض الهدايا لتحقيق ذلك الهدف، لكن السلطان الناصر محمد لم يعر حُميضة أدنى اهتمام، وقام باعتقال رسوله.<sup>(٣)</sup>

وفي العام التالي (٧١٥هـ/١٣١٥م) أرسل السلطان الناصر محمد جيشا كثيفا إلى مكة المكرمة للقبض على الشريف حُميضة، وعزله عن حكمها، فلم يسع حُميضة إلا الهرب من مكة، واللجوء إلى إيلخان مغول فارس خدابنده، بينما أقام السلطان الناصر محمد في إمرة مكة المكرمة الشريف رُميثة بن أبي نَمي.<sup>(٤)</sup>

وقد رحب الإيلخان خدابنده بالشريف حُميضة وأكرمه، حيث انتهزها فرصة لكي يتدخل في شئون مكة المكرمة، وييسط نفوذه على بلاد الحجاز، ويُخطب باسمه على منابرها، لذلك أشار على حُميضة بأن يعود إلى مكة المكرمة ومعه قوات مغولية لكي يتقوى بها، ويستولى عليها بمساعدتهم، فوافق الشريف حُميضة على

(١) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ١٩٥.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٣.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ٢٠٧.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٤.

- خدابنده: هو أولجايتو بن أرغون خان بن أباخان بن هولاقو خان، ولد في عام ٦٨٠هـ/١٢٨٢م، تولى حكم مغول فارس فيما بين عامي ٧٠٣-٧١٦هـ/١٣٠٣-١٣١٦م، حمل أكثر من اسم، فبعد ولادته تسمى باسم أولجايتو (أولجايتو)، ثم أطلقت عليه والدته اسم نيقولا بعد اعتناقه المسيحية، ثم تسمى باسم "تمودر"، ثم باسم خربنده، وبعد إسلامه تسمى باسم خدابنده. انظر: فؤاد عبدالمعطي الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص ٣٤٥، ٣٤٦.

ذلك، وبالفعل تم تجهيز أربعة آلاف جندي مغولي، توجه بهم الشريف حُميضة إلى مكة المكرمة، وأثناء الطريق توفي خدابنده في أواخر عام ١٣١٦هـ/١٣١٦م مما شجع بعض العربان على مهاجمة حُميضة والقوات المغولية المصاحبة له، وإنزال الهزيمة بهم، وقتل وأسر أعداد كبيرة منهم، بينما لاذ حُميضة بالفرار عائداً إلى دولة مغول فارس.<sup>(١)</sup>

ثم عاود الشريف حُميضة محاولة التوجه إلى مكة، والاستيلاء على حكمها، ليشهد شهر رمضان من عام ١٣١٧هـ/نوفمبر ١٣١٧م توجهه إلى مكة المكرمة، وفي صحبته قوة عسكرية مغولية أخرى قوامها خمسون فارساً، وقد حاول الشريف رُميثة التصدي له ومنعه من الدخول إلى مكة المكرمة، وشجعه على ذلك السلطان الناصر محمد حينما كتب إليه رُميثة بذلك، لكن لم يلبث حُميضة أن تغلب على قوة أخيه رُميثة، واستطاع الدخول إلى مكة المكرمة، وتولى حكمها، وخطب على منابرها للإيلخان بوسعيد بن خدابنده مسقطاً بذلك الخطبة للمالِك.<sup>(٢)</sup>

يبدو أن الشريف رُميثة اضطر إلى موافقة أخيه حُميضة وممالأته،<sup>(٣)</sup> حيث اتفق معه على تسليمه حكم مكة المكرمة، ولذلك ما أن علم السلطان الناصر محمد بهذه التطورات حتى سارع بإرسال قوة عسكرية قوامها ثلاثمائة فارس على رأسها كل من الأميرين صارم الدين أزيك الجرمكي، والأمير سيف الدين بهادر الإبراهيمي، وذلك بصحبة ركب الحج المصري لعام ١٣١٧هـ/١٣١٧م، وأمرهما بالقبض على الشريف حُميضة<sup>(٤)</sup> وفي نفس الوقت أصدر السلطان الناصر محمد

(١) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص١٤٨.

(٢) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص١٧٥، ١٧٦.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص٢٤٣.

(٤) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص١٧٦.

- الأمير صارم الدين أزيك: هو أحد الأمراء المشهورين زمن المالِك، توفي في عام

٧٣٢هـ/١٣٣٢م. انظر: ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج٣، ص٥٨٣.

- الأمير بهادر الإبراهيمي: أحد أمراء المالِك، تنقل في مختلف الوظائف، لكن انتهى

أمره بسمل عينيه على يد السلطان الناصر محمد عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م. انظر: ابن

حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣١.

تقليداً بولاية الشريف عَظيفة بن أبي نُمى إمرة مكة المكرمة.<sup>(١)</sup> وأمر بأن توضع تحت يده قوة عسكرية كبيرة يستعين بها في إقرار الأمن بمكة المكرمة.<sup>(٢)</sup>

غير أن الشريف حُميضة استطاع أن يفلت من القبض عليه، وذلك بمصانعة الأمير سيف الدين بهادر الإبراهيمي، لذلك بعد عودة هذه القوة إلى الديار المصرية في مطلع عام ٥٧١٨هـ/١٣١٨م بعد انقضاء مناسك الحج شكَا الأمير صارم الدين أربك للسلطان من بعض الأفعال المشينة التي أقدم عليها الإبراهيمي، كذلك أشار إلى أنه لم يمكنه من القبض على الشريف حُميضة، فأصدر السلطان أمراً باللقاء القبض على الأمير الإبراهيمي،<sup>(٣)</sup> كما تم القبض أيضاً على الشريف رُميثة لاتهامه بممالة أخيه حُميضة والاتفاق معه.<sup>(٤)</sup>

لم يلبث السلطان الناصر محمد أن عزم على أداء فريضة الحج في العام التالي (٥٧١٩هـ/١٣١٩م)،<sup>(٥)</sup> وذلك حتى يقف بنفسه على أحوال مكة المكرمة، ويطمئن على استتباب الأمن بها، وقد صحب السلطان الناصر محمد في هذه الحجة عدد كبير من الأمراء والعلماء،<sup>(٦)</sup> ويذكر المقرئزي أن الناصر محمد أظهر من التواضع والذلة والمسكنة أثناء هذه الحجة أمراً زائداً، وفرق في أهل مكة مالا عظيماً، وأفاض التشاريف على أمراء مكة وأرباب وظائفها<sup>(٧)</sup>، وغسل الكعبة بيديه، وأبطل كثيراً من المكوس التي كانت تفرض على الحجاج وعوّض أمير مكة

(١) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ٢٨٤.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٤.

(٣) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٨٠.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ٢٤٢.

(٥) هذه هي الحجة الثانية للسلطان الناصر محمد، وقد كانت حجتَه الأولى في عام

٥٧١٢هـ/١٣١٣م، كما حج حجة ثالثة في عام ٥٧٣٢هـ/١٣٣٢م. انظر المقرئزي: الذهب

المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، ص ٩٩-١٠٦.

(٦) البرزالي: المقتفى على كتاب الروضتين، ج ٤، ص ٣٩٧.

(٧) الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، ص ١٠٢، ١٠٣.

عنها بإقطاعات في مصر والشام.<sup>(١)</sup>

وقد أتت سياسة السلطان الناصر محمد بنتائج طيبة على مكة المكرمة، فما أغدقه عليها من الأموال، وما أرسله من جند ساعد على استتباب الأمن، وانتشار الرخاء، هذا فضلا عما اشتهر به الأمير الشريف عطيفة بن أبي نُمى محمد من أنه كان مشكور السيرة، حيث أحبه أهالي مكة المكرمة لعدله.<sup>(٢)</sup>

وبالإضافة إلى ذلك فقد ساعد على هدوء الأوضاع بمكة المكرمة ما حدث من التخلص من الشريف حميضة بن أبي نُمى بالقتل في شهر جمادى الآخرة من عام ٧٢٠هـ/يناير ١٢٧٢م،<sup>(٣)</sup> وهو الرجل الذي كان يثير الخوف والفرع في ربوع مكة المكرمة،<sup>(٤)</sup> لذلك خلا الجو للشريف عطيفة فحكَم مكة المكرمة بمفرده لسنوات عديدة، وشاركه أخوه رُميثة في إدارتها في بعض السنوات،<sup>(٥)</sup> وذلك حتى تم إبعاده عن إمرة مكة عام ٧٣٧هـ/١٣٣٧م بأمر من السلطان الناصر محمد حيث استبقاه بالديار المصرية حتى وفاته في عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م، في حين انفرد الشريف رُميثة بن أبي نُمى بإمرتها.<sup>(٦)</sup>

والمعروف أن الشريف رُميثة بن أبي نُمى كان محتجزا بقلعة الجبل منذ ٢٥ من شهر ربيع الآخر عام ٧١٩هـ/١٧ يونيو ١٣١٩م، وحتى تم الإفراج عنه في ٨

(١) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٩٧.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ٦، ص ٩٧.

(٣) قُتل حميضة بيد المملوك "أسندمر"؛ وهو أحد المالِك الذين خرجوا عن طاعة السلطان الناصر محمد وانضموا إلى جانب حميضة، وعندما أحس هؤلاء المالِك أن الشريف حميضة ربما يدخل في طاعة السلطان قتله أسندمر حتى لا يقع في قبضة السلطان الناصر محمد. انظر: النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ٣٢١، ٣٢٢؛ الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ٢٤٥.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ٢٤٥.

(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٤.

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ج ٦، ص ١٠١.

من شهر صفر عام ٧٢٠هـ / ٢١ مارس ١٣٢٠م،<sup>(١)</sup> حيث غادرها إلى مكة المكرمة، وشارك أخاه عطيفة في إمرتها في بعض السنوات باتفاقهما، أي "بلا قتال" على رأي المؤرخ الفاسي.<sup>(٢)</sup>

وخلال السنوات القليلة التالية استمرت العلاقات بين أشرف مكة المكرمة وبين السلطنة المملوكية على خير وجه، وذلك نتيجة حسن سياسة كل من الشريفين عطيفة ورُميثة، ومحاولاتهما عدم إثارة المماليك ضدهما، ومن ذلك على سبيل المثال ما حدث عام ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م؛ فقد روى الرحالة ابن بطوطة، وكان شاهداً عياناً على هذه الأحداث، حيث كان مجاوراً بمكة المكرمة في هذا العام، وعلى ما حدث من فتنة واضطراب بين الأمير الشريف مبارك بن عطيفة وبين الأمير أيذمر أمير جندار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى درجة أن جنود مبارك وعبيده قاموا بقتل الأمير أيذمر وولده خليل. فلما علم بذلك، السلطان الناصر محمد غضب لذلك وأرسل على الفور جيشاً كثيفاً للأخذ بثأر الأمير أيذمر، فخاف أمراء مكة وهربوا منها.<sup>(٣)</sup>

وإزاء هذا الموقف العصيب الذي أمسى فيه أشرف مكة المكرمة، ولعدم مقدرتهم على التصدي لقوة المماليك، لجأ الأمير رُميثة إلى الدبلوماسية، حيث أرسل أحد أولاده إلى قائد الجيش المملوكي يطلب منه الأمان له ولولده، فأعطاه الأمان،

(١) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ٢٩٤؛ ابن قاضي شهبه: تاريخه، مجلد ٢، جزء ١، ص ٥٢١، ٥٢٢.

(٢) شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٤.

(٣) تحفة النظار المعروفة باسم: رحلة ابن بطوطة، ص ٢٤٢، وانظر أيضاً: ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٤٣٤-٤٣٥؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٣، ص ١٨٤.

- الأمير أيذمر: يذكره ابن حجر العسقلاني تحت اسم "الدُّمْر، ويقول عنه أنه كان أحد أمراء المماليك بالديار المصرية، قُتل بمنى بالحجاز يوم عيد الأضحى من عام ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م. انظر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٤٣٥، ٤٣٤.

فحضر رُمَيْثَة حاملاً على يديه كفته، فما كان من قائد القوات المملوكية إلا أن عفا عنه، وأعادته إلى حكم مكة المكرمة، وخلع عليه الخلع السنية، ثم عاد الجيش المملوكي إلى الديار المصرية.<sup>(١)</sup> ويعلق الرحالة ابن بطوطة على موقف السلطان الناصر محمد وعفوه عن أشرف مكة المكرمة بقوله: "وكان الملك الناصر، رحمه الله، حليماً فاضلاً".<sup>(٢)</sup>

كذلك من المواقف الدبلوماسية التي وقفها الشريف رُمَيْثَة ما حدث من مشاحنات عام ٥٧٣٣/٣٣٣م بين بعض جنود المالِك وجنود الشريف رُمَيْثَة، ونتيجة ذلك أشار البعض عليه بألا يحضر مناسك الحج في هذا العام (٥٧٣٣) وذلك اتقاء تأجج هذه الفتنة، فوافق رُمَيْثَة على هذا الرأي مما يدل على فطنته وحِكمته السياسية، وبالفعل تم أداء مناسك هذا العام دون حدوث فتن أو قلاقل.<sup>(٣)</sup>

غير أن الذي عكر صفو الحياة بمكة المكرمة في تلك الفترة، ذلك الصراع الذي حدث بين الأخوين عَطِيفَة ورُمَيْثَة، ومن ذلك مثلاً ما حدث في شهر رمضان من عام ٥٧٣٧/ أبريل ٣٣٧م، من معارك طاحنة بين الاثنين، وسبب ذلك هو قيام الأمير الشريف مبارك بن الشريف عَطِيفَة بالإعتداء على التجار المقيمين بمكة المكرمة، والاستيلاء على أموالهم، وغضبُ عمه رُمَيْثَة من ذلك، وقيامه بمحاربة مبارك ورجاله، إلا أن قوات رُمَيْثَة هُزمت هزيمة شنيعة أمام قوة الشريف مبارك بن عَطِيفَة، وذلك نتيجة ما كان لديه من ممالِك مدربين على الحرب والقتال، حيث

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٤٢.

(٢) تحفة النظار، ص ٢٤٢. يذكر ابن تغرى بردى أن القوات المملوكية أخذت بثار الأمير أيدير " وقتلوا جماعة كثيرة من العبيد وغيرهم"، وهذا على عكس ما شاهده وذكره ابن بطوطة وهو شاهد عيان هذه الحادثة. انظر: المنهل الصافي، ج ٣، ص ١٨٦.

(٣) اليوسفي: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطييط، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٣٨.

قاموا بقذف قوات رُميثة بالنشاب مما أدى إلى فراره. (١)

ولا شك في أن ذلك الصراع والتنافس بين أشرف مكة المكرمة قد أدى إلى زيادة تدخل السلطات المملوكية في شئونها، وقد اتضح ذلك جليا عقب حدوث الفتنة السابق ذكرها، عندما أصدر أمير ركب الحج المصري شمس الدين آقسنقر السلاري قرارا بالألا يحضر كل من الشريفين رُميثة و عطيفة مناسك حج هذا العام، وذلك حتى لا يحتك أحدهما بالآخر، وتتأجج الفتنة بينهما، ويحدث تشويش على الحجاج، فانصاع كلاهما لأوامره مما دفعه إلى إرسال الخلع والهدايا لهما. (٢)

كذلك مما يدل على مدى تدخل السلطان الناصر محمد في شئون مكة المكرمة، نتيجة ذلك الصراع الناشب بين أشرفها هو ما حدث في عام ١٣٣٧/٥٧٣٨م عندما حضر إلى الديار المصرية كل من الشريفين عطيفة ورُميثة، شاكين من بعضهما، على إثر ما نشب بينهما من خلافات، فما كان من الناصر محمد إلا أن ألقى القبض على الشريف عطيفة وأودعه السجن، بينما أعاد رُميثة إلى مكة المكرمة ليتولى إمرتها منفردا بعدما زوده بقوة عسكرية حتى يتمكن من ضبط الأمور بها. (٣)

ومما يجدر ذكره أن الشريف مبارك بن عطيفة أراد أن يطمئن على والده،

(١) اليوسفي: نزهة النظر، ص ٣٤١؛ المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٤٠٨.

(٢) اليوسفي: نزهة النظر، ص ٣٤١.

- الأمير شمس الدين آقسنقر السلاري، تنقل في خدمة السلطان الناصر محمد، كما تولى بعد وفاته بعض الوظائف إلى أن كان عام ١٣٤٣/٥٧٤٤م، حيث قبض عليه وبعدها لم يعد له ذكر. انظر: الصفي: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: فالح أحمد البكور، نشر مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨، ج ١، ص ٣٣٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٤٢١، ٤٢٢.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٥؛ ابن قاضي شهبه: تاريخه، المجلد ٢، الجزء ١، ص ٥٢٢. استمر سجن الشريف عطيفة بالديار المصرية حتى وفاته بها في عام ١٣٤٢/٥٧٤٣م. انظر: الفاسي: العقد الثمين، ج ٦، ص ١٠١.



فتوجه إلى الديار المصرية في العام التالي (١٣٣٨/٥٧٣٩م)، فما كان من السلطان الناصر محمد إلا أن ألقى القبض عليه، وسجنه مع والده، وذلك عقاباً له على ما أقدم عليه من أعمال سيئة في مكة المكرمة، أو كما ذكر المقرئزي " لكثرة إفساده بالحجاز".<sup>(١)</sup>

وقد استمر الشريف رُميثة بن أبي نَمى في تولى إمرة مكة المكرمة بتأييد من السلطان الناصر محمد حتى وفاة الأخير في عام ١٣٤٠/٥٧٤١م، وتولية ابنه المنصور سيف الدين أبي بكر سلطنة المماليك، إلا أن حكمه لم يطل، فقد توفي بعد مرور شهرين من توليه السلطنة، وذلك في (٢٠ صفر من عام ١٣٤٢/٥٧٤٢ أغسطس ١٣٤١م)، فتولى أخوه الأشرف علاء الدين كجك السلطنة وله من العمر خمس سنوات، ولم تطل له هو الآخر مدة حكمه، فقد عزله الأمراء بعد مرور خمسة أشهر وأيام، وأقاموا مكانه الناصر شهاب الدين أحمد في شهر شوال من عام ١٣٤٢/٥٧٤٢ مارس ١٣٤٢م، ولم يلبث أن خلعه الأمراء في مطلع العام التالي بسبب تركه القاهرة وإقامته بحصن الكرك، وولوا مكانه أخاه الصالح إسماعيل في المحرم عام ١٣٤٣/٥٧٤٣ يونية ١٣٤٢م.<sup>(٢)</sup>

وخلال فترة حكم السلطان الصالح إسماعيل اضطربت أحوال الديار المصرية

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص٤٦٣؛

- يذكر الفاسي أن مبارك بن عطيفة توجه بعد ذلك إلى مدينة سواكن باليمن، واستولى عليها، واستمر بها إلى أن توفي في عام ١٣٥١/٥٧٥١م. انظر: العقد الثمين، ج٧، ص١٢٣.

(٢) حامد زيان: المماليك، ص٤٢.

- السلطان الصالح إسماعيل بن السلطان الناصر محمد: تولى السلطنة عام ١٣٤٢/٥٧٤٣م وله من العمر سبعة عشر عامًا، وقع تحت سيطرة أمراء المماليك، ومكث في السلطنة ثلاث سنوات وعدة أيام، حيث توفي في عام ١٣٤٥/٥٧٤٦م. انظر: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص١٣٨-١٤٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٩٥-٥٠٦.

والشامية، بسبب انغماسه في اللهو، وشغفه بالجوارى، وتركه شئون الحكم.<sup>(١)</sup> ولم يكن متوقفا إزاء هذا الوضع المتردى في السلطنة المملوكية أن تتعم مكة المكرمة بالاستقرار والأمن والرخاء، فقد اضطربت أحوالها، خصوصا بعد أن قام بعض أشرافها بالاعتداء على جنود المماليك الموجودين بمكة المكرمة، وقد شجعهم على ذلك ما أمست عليه هذه القوة من ضعف.<sup>(٢)</sup>

ولا يعنى هذا أن أمير مكة المكرمة الشريف رُمَيْثة بن أبى نَمَى لم يعد يعتمد على قوة المماليك، ولكنه كان يلجأ إليها عندما تتأزم الأمور، ويذكر المقرئى فى أحداث عام ١٣٤٢/٥٧٤٣م، أنه عندما نشب نزاع بين الشريف رُمَيْثة وبين بنى حسن وهم أحد بطون العرب الموجودين بمكة المكرمة لم يتردد فى الاستعانة بأمير الحج المصرى ومن معه من جنود المماليك، وفى المقابل لم يتأخر أمير الحج فى مساندة الشريف رُمَيْثة، وقاىل إلى جانبه مما ساعد على تراجع عرب بنى حسن، وهدوء الأحوال، وانتهت مشاعر الحج بسلام.<sup>(٣)</sup>

وعلى هذا النحو كان أشراف مكة المكرمة - حتى أثناء فترات ضعف سلطنة المماليك - يسعون دائما إلى الاستعانة بالقوات المملوكية للوقوف ضد بعضهم البعض، أو لمؤازرتهم ضد أى مغتصب من بطون العرب الموجودين بمكة المكرمة، وأدى هذا بطبيعة الحال إلى استمرار تدخل المماليك فى شئون مكة المكرمة.

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٦٧٨.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٦٣٦.

(٣) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٦٣٦.

# الفصل الخامس

مكة المكرمة

زمن الشريف عجلان بن رميثة



بعد أن تقدم العمر بالشريف رُميثة بن أبي نُمى، وشعر بأنه غير قادر على مباشرة شئون الحكم بمكة المكرمة، رأى أن يتنازل عن حكمها لولديه ثَقَبَة وَعَجْلان، ويذكر المؤرخ الفاسي أن الشريف رُميثة تنازل عن إمرة مكة المكرمة لولديه في مقابل مبلغ ستين ألف درهم، وذلك عام ٥٧٤٤هـ / ١٣٤٣م. (١)

وعندما توجه ثَقَبَة إلى الديار المصرية ليحصل من السلطان المملوكي الصالح إسماعيل على تقليد إمرة مكة المكرمة له ولأخيه عجلان، ألقى الصالح إسماعيل القبض عليه، (٢) ولم يسمح لرميثة بأن يتصرف في أمر مكة المكرمة كيف يشاء، وصدرت الأوامر المملوكية بأن يظل كما هو أميراً على مكة المكرمة، فخشى عجلان على نفسه، وغادر مكة متجهاً صوب اليمن، واستمر بها حتى حلول موسم الحج، وعاد إلى مكة المكرمة حيث شارك أباه في الإشراف على موسم الحج. (٣)

وفي بداية عام ٥٧٤٦هـ / ١٣٤٥م توجه الشريف عجلان إلى الديار المصرية، (٤) حيث منحه السلطان الصالح إسماعيل إمرة مكة المكرمة بمفرده دون أبيه وأخيه، واستمر موجوداً بمصر حيث شهد وفاة السلطان الصالح إسماعيل، وولاية أخيه السلطان الأشرف شعبان السلطنة المملوكية، والذي أصدر له مرسوماً بإمارة مكة المكرمة، وبعدها عاد إليها في شهر جمادى الآخرة من عام ٥٧٤٦هـ / أكتوبر ١٣٤٥م،

(١) العقد الثمين، ج ٦، ص ٥٩.

(٢) استمر الشريف ثَقَبَة مسجوناً بالديار المصرية، وبعدها أفرج عنه وعاد إلى مكة المكرمة، وبعد أن تولى أخوه عجلان إمرة مكة المكرمة غادرها عام ٥٧٤٦هـ / ١٣٤٥م متوجهاً إلى وادي نخلة الذي يقع على بعد مسيرة ليلتين من مكة المكرمة. انظر الفاسي: العقد الثمين، ج ٣، ص ٣٩٥.

(٣) المقرئزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٦٩١.

(٤) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٦٨.

بعد أن تزود بعدد كاف من الجنود المماليك ليكونوا عوناً له.<sup>(١)</sup>

وقد استمر الشريف عجلان بن رميثة موالياً للسلطان المملوكي، ولم يحاول الخروج عن طاعته، واستمد منه القوات اللازمة للوقوف أمام الخارجين عليه والمعارضين له سواء من أشرف مكة، أو من سائر قبائل العرب الموجودين بها. وخير شاهد على محاولة الشريف عجلان توطيد أواصر الصداقة بالسلطنة المملوكية، هو قيامه بتوثيق علاقته بالأمير أرغون العلاني مدبر السلطان المملوكي الملك الكامل شعبان وزوج والدته.<sup>(٢)</sup>

غير أن كل ذلك لم يمنع الشريف ثَقَبَة من المطالبة بنصيبه في إمرة مكة المكرمة، لذلك توجه إلى القاهرة في شهر رمضان من عام ٥٧٤٦هـ/يناير ١٣٤٦م، حاملاً معه عدة هدايا من بينها خيول عربية أصيلة، ويبدو أنه وجد في مصر أذانا صاغية له، لذلك "وَعِدَ خيراً" على حد قول المؤرخ المقرئ.<sup>(٣)</sup>

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ٦، ص ٥٩، ٦٠.

- وعن أحداث مصر في تلك الفترة انظر: المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٦١٩-٦٧٧؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٧٨-٩٦.

- توفي الشريف رميثة بن أبي نُمى في يوم الجمعة ٨ ذى القعدة عام ٥٧٤٦هـ/٣ مارس ١٣٤٦م. انظر: الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ٤١٧.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخه، المجلد ٢، ق ١، ص ٤٤٦، ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١١٦.

- أرغون العلاني أصله من ممالك السلطان الناصر محمد، تولى عدة وظائف، وتزوج من والدة السلطان الصالح إسماعيل، وفي زمن سلطنة الصالح إسماعيل زادت ثروته زيادة كبيرة، وانتهت حياته في زمن الكامل شعبان، حيث سجن، ثم قتل داخل السجن عام ٥٧٤٧هـ/١٣٤٦م. انظر: ابن قاضي شهبة: تاريخه، المجلد ٢، ج ١، ص ٤٨٦؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٦م، ج ٣، ص ٩٢.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٦٩١.

ومما يدل على تأثير زيارة تَقَبَّة على علاقة السلطنة المملوكية بالشريف عجلان، وما أدت إليه من فتور بين الجانبين، هو عدم استقبال السلطان الكامل شعبان للشريف عجلان عند زيارته للديار المصرية فى شهر ربيع الأول من عام ١٣٤٧هـ/ أغسطس ١٣٤٦م، ولم يتم الإنعام عليه كما جرت العادة. (١)

وعلى الرغم من الاضطراب السياسى الذى شهدته سلطنة الممالِك فى تلك الفترة، وخصوصا عندما انغمس السلطان الكامل شعبان فى المذات واللهو، وكثرة النفقات على النساء والخدام، وما صحب ذلك من غضب أمراء الممالِك عليه، ذلك الغضب الذى انتهى بقتله، وإقامة أخيه حاجى فى السلطنة المملوكية فى شهر جمادى الآخرة من عام ١٣٤٧هـ/ سبتمبر ١٣٤٦م، (٢) فقد كان أمر مكة المكرمة محط أنظار أولى الأمر بالديار المصرية، وبخاصة تتبع أحوال الحجيج، حيث تم السؤال عن أخبار موسم حج عام ١٣٤٧هـ/ ١٣٤٧م، فجاءت الأخبار: "برخاء أسعار مكة، وحسن سيرة الشريف عجلان". (٣)

غير أن السلطان المملوكى زين الدين حاجى (٧٤٧-١٣٤٦هـ/ ١٣٤٧م) رأى أن يشرك الشريف تَقَبَّة بن رُمَيْثَة مع أخيه عجلان فى إمرة مكة درءا للفتنة، وأصدر بذلك مرسوما فى عام ١٣٤٧هـ/ ١٣٤٧م يقضى بمشاركة

(١) المقرئزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٦٩١.

(٢) الصفدى: أعيان العصر وأعوام النصر، ج ٢، ص ٧٩٦، ٧٩٧؛ ابن قاضى شهبه، تاريخه، المجلد الثانى، الجزء الأول، ص ٤٩٠.

- الملك المظفر زين الدين حاجى هو ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، تولى السلطنة يوم الاثنين بداية شهر جمادى الآخرة عام ١٣٤٧هـ/ سبتمبر ١٣٤٦م، وعمره نحو تسعة عشر عاما، ولم يستمر فى الحكم سوى عام وثلاثة أشهر وعدة أيام، حيث قتل فى ١١ رمضان عام ١٣٤٨هـ/ ١٦ ديسمبر ١٣٤٧م. انظر: المقرئزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٧١٣-٧٤٤؛ ابن قاضى شهبه: تاريخه، المجلد ٢، ج ١، ص ٥٠٩.

(٣) المقرئزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٧٢٥.

الشريف ثَقَبَة لأخيه عجلان في إمرة مكة المكرمة. (١)

ولم تقف أطماع الشريف ثَقَبَة عند حد مشاركة أخيه عجلان في إمرة مكة المكرمة، لكنه طمع في الانفراد بها، لذلك انتهاز فرصة مغادرة أخيه عجلان مكة المكرمة أثناء زيارته للديار المصرية في عام ١٣٤٩/٥٧٥٠م، وقام بعزله، والانفراد بحكمها. (٢)

وقد أدى موقف ثَقَبَة الطامع في الانفراد بإمرة مكة المكرمة إلى حدوث خلاف بين الأخوين، أو على حد تعبير الفاسي "حصل بينهما وحشة"، (٣) وازدادت حدة هذه الخلافات بعد عودة الشريف عجلان من الديار المصرية، حيث انفرد بحكمها بمساندة السلطان المملوكي الناصر حسن أثناء سلطنته الأولى (٧٤٨-٧٥٣/١٣٤٧-١٣٥٢م) (٤). وقد أدى ذلك إلى أن يكتب الشريف ثَقَبَة إلى السلطان الناصر حسن في شهر رجب من عام ٥٧٥١/سبتمبر ١٣٥٠م رسالة متضمنة محضرا يثبت فيه حسن سيرته في مكة المكرمة، ويكذب فيه ادعاءات أخيه عجلان فيما نسبه إليه من سوء تدبير واستبداد بالحكم، فلم يسع السلطان الناصر إلا أن أعاد إصدار القرار الخاص باشتراك الشريف ثَقَبَة مع أخيه عجلان في إمرة مكة المكرمة. (٥)

غير أن الشريف عجلان استمر منفردا بإمرة مكة المكرمة مما أدى إلى

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٢٠٥.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٢٠٥.

(٣) العقد الثمين، ج٣، ص٣٩٥.

(٤) السلطان الناصر حسن : هو السلطان الناصر بدر الدين أبوالمعالى الحسن بن السلطان

الناصر محمد، تولى السلطنة مرتين؛ الأولى بين عامي ٧٤٨-٧٥٣/١٣٤٧-١٣٥٢م،

والثانية بين عامي ٧٥٥-٧٦٢/١٣٥٤-١٣٦١م. انظر: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر،

ج٤، ص ص١٤٥-١٤٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد

مصطفى، القاهرة، ١٩٨٣م، ج١، ق١، ص٥٥٣-٥٨٠.

(٥) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص٨٢١.



غضب الشريف ثَقَبَة الذي لم يجد نصيراً له، ولذلك أخذ يبحث عن قوة تساعد في تحقيق أهدافه في الانفراد بإمارة مكة المكرمة. (١)

وأخيراً وجد هذه القوة في بلاد اليمن، فتوجه إليها، وتقابل مع حاكمها الملك المجاهد سيف الدين على بن داود (٧٢١ - ٥٧٦٤هـ/١٣٢-١٣٦٣م)، وشكا إليه ما حدث من أخيه عجلان، وانفراده بإمارة مكة المكرمة، وعرض عليه الحضور إليها، وأن يتولى حكمها، وينال شرف كسوة الكعبة. (٢)

وقد صادف هذا العرض هوى الملك المجاهد، فقد كان بنو رسول يأملون منذ قيام دولتهم في شرف كسوة الكعبة المشرفة، وتولى حكم مكة المكرمة، ولذلك لبي رغبة الشريف ثَقَبَة، وتوجه إلى مكة المكرمة في شهر ذي الحجة من عام ٥٧٥١هـ/يناير ١٣٥١م، مظهراً أنه يريد الحج، (٣) ولكنه كان مسلحاً تسليحاً كبيراً، وكما يقول المقرئ: "في جفيل كبير بأولاده وأمه"، فوصلها قبل وصول ركب الحج المصرى". (٤)

وعندما علم الأمير عجلان بهذه التطورات، سارع بالاستعداد لحرب أخيه ثَقَبَة وحليفه الملك المجاهد، وحتى يدفع أمير الركب المصرى الأمير طاز للوقوف بجانبه همس إليه بأن الملك المجاهد حضر لأنه "يريد أن يكسو الكعبة"، وفي نفس الوقت كتب إلى السلطان الناصر حسن يخبره بما عزم عليه حاكم اليمن. (٥)

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٢٦.

(٢) المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٨٣١؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٢٦.

(٣) الخزرجى: العقود اللؤلؤية، ج ٢، ص ٨٣؛ يحيى بن الحسين: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، ق ٢، ص ٥١٦.

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٣٨١.

(٥) الفاسى: العقد الثمين، ج ٦، ص ١٧٠.

- الأمير طاز: هو طاز بن قطغاج، نشأ فى دولة السلطان الناصر محمد، ثم أخذ فى الترقى فى زمنى السلطان الصالح إسماعيل، والسلطان الناصر أحمد، ثم صار مدبراً للسلطنة فى زمن السلطان المظفر حاجى، وفى سلطنة الناصر حسن الثانية تولى نيابة حلب، ثم تزعم ثورة على السلطان، فأنتهى أمره بالقبض عليه، وسمل عينيه، توفى عام ٥٧٦٣هـ/١٣٦٢م. انظر: ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣١٤، ٣١٥.

لم يكن منتظرا أن يقف السلطان الناصر حسن موقف المتفرج من هذه الأحداث، فأرسل رسالة شديدة اللهجة إلى الملك المجاهد يؤنبه فيها على مسلكه المشين في المسير إلى مكة المكرمة حاجا وبصحبته جيش كثيف يثير الرعب في صفوف حجاج بيت الله الحرام، ومما جاء في هذه الرسالة: "إن من يريد الحج إنما يدخل مكة بذلة ومسكنة، وقد ابتدعت من ركوبك والسلاح حولك بدعة لا يمكنك أن تدخل بها، وابعث ثَقَبَةَ ليكون عندنا حتى تنتقضى أيام الحج، ثم نرسله إليك".<sup>(١)</sup>

ولم يستطع الملك المجاهد معارضة السلطان الناصر حسن، فاستجاب لأمره، وأرسل الشريف ثَقَبَةَ إلى أمراء المماليك الموجودين بمكة المكرمة، ليكون رهينة لديهم - كما أمر السلطان الناصر حسن - وذلك حتى لا يثير فتنة وقلقا بين الحجاج، كما أن الملك المجاهد دخل مكة المكرمة دون أن تصاحبه قوات عسكرية، وفي نفس الوقت لم يحمل على رأسه الغاشية، وهي علامة الملك، ولم يُسَيِّر أمراءه ولا جنوده في موكبه، وإنما مشى أمراء المماليك إلى جواره أثناء دخوله مكة المكرمة.<sup>(٢)</sup>

ويدعو موقف الملك المجاهد إلى التساؤل، هل تخلى عن حليفه الشريف ثَقَبَةَ، وعن آماله في الإشراف على حكم مكة المكرمة، وكسوة الكعبة الشريفة؟ إن المتتبع لما تلا ذلك من أحداث يتضح له أن الملك المجاهد أراد أن يستخدم ذكاءه السياسي، فعندما شاهد قوة المماليك، ومجموعة الأمراء الأقوياء الذين أرسلهم السلطان الناصر حسن أمثال الأمير بز لار، والأمير ببيغا آرس، والأمير طاز لم يسعه إلا

(١) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٨٣١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٢٦.

(٢) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٨٣١.

- الغاشية: عبارة عن قطعة من الجلد مخرزة بالذهب يعتقد الناظر إليها أنها مصنوعة كلها من الذهب، تحمل بين يدي السلطان أثناء ركوبه في الموكب والاحتفالات. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٧.

إظهار الطاعة للسلطان الناصر حسن، والامتثال لأوامره، والاعتذار لهؤلاء الأمراء عما بدر منه من أفعال، لكنه في نفس الوقت أخذ في مراسلة الشريف ثَقَبَة سرًا، والاتفاق معه على التخلص من هؤلاء الأمراء، وتنفيذ ما سبق الاتفاق عليه.<sup>(١)</sup>

وتنفيذًا لذلك فما أن انتهى الأمراء من الوقوف بعرفة، وأخذوا في التوجه إلى منى حتى بدأ الملك المجاهد في تنفيذ مخططه الرامي إلى القبض على الشريف عجلان، وإعادة الشريف ثَقَبَة إلى إمرة مكة المكرمة، وقام أحد جنوده بالاعتداء على أحد ممالِك الأمير بزَلار معلنا بذلك إشعال القتال بين الجانبين، فاستعد الجميع للحرب، وهاجت مكة، واضطرب أمر الحجيج، وحاول الشريف عجلان أن يتدخل في القتال الدائر، فما كان من الأمير طاز إلا أن أرسل إليه يقول: "احفظ الحاج، ولا تدخل بيننا في حرب، ودعنا مع غريمنا"، ولم يلبث أن وقعت الهزيمة في صفوف الملك المجاهد، وتم القبض عليه، حيث تحفظ عليه الأمير طاز، كما وقعت والدته وأولاده أسرى، وقام الشريف عجلان بالتحفظ عليهم. بينما فر الشريف ثَقَبَة هاربًا خارج مكة المكرمة.<sup>(٢)</sup>

ومع بداية العام التالي (المحرم من عام ٧٥٢هـ/ فبراير ١٣٥١م) رحل الأمير طاز من مكة المكرمة متوجهًا إلى الديار المصرية، وبصحبته الملك المجاهد

(١) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ص ٨٣١، ٨٣٢؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ٢٢٦.

- الأمير بزَلار: هو الأمير بزَلار العمرى من ممالِك الناصر حسن، تولى عدة وظائف منها نيابة دمشق، وصفه ابن حجر العسقلاني بأنه كان شجاعًا فطنًا، توفي عام ٧٩١هـ/١٣٨٩م. انظر: الدرر الكامنة، ج٢، ص ٩.

- الأمير ببيغا آرس الناصرى: كان من الأمراء الخاصكية في زمن السلطان الناصر محمد، ذاع صيته في دولة كل من الصالح إسماعيل، ثم المظفر حاجي، له أعمال جليلة في وقت انتشار الطاعون في العام ٧٤٨هـ/١٣٤٨م، قتل عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، انظر: ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، ص ص ٤٤، ٤٥.

(٢) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٨٣٢؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ٢٢٧.

ومجموعة من الأمراء اليمنيين ليرى السلطان الناصر حسن فيهم رأيه، بينما استقر الشريف عجلان في إمرة مكة المكرمة.<sup>(١)</sup>

لم ييأس الشريف ثَقَبَة لما حدث له، وأيقن أن الطريق إلى حكم مكة يبدأ من مصر، لذلك انتهز فرصة تولى السلطان الصالح صلاح الدين صالح حكم دولة المماليك،<sup>(٢)</sup> وتوجه في شهر رمضان من عام ٧٥٢هـ / أكتوبر ١٣٥١م إلى مصر حاملاً معه هدايا جليلة وبخاصة الخيول العربية الأصيلة هدية للسلطان وللأمراء. وقد استقبل السلطان الصالح صلاح الدين صالح الشريف ثَقَبَة استقبالا حافلا، وخلق عليه، وأمره على إمرة مكة المكرمة منفردا دون أخيه عجلان.<sup>(٣)</sup>

ورغبة من الشريف ثَقَبَة في أن تكون له قوة يعتمد عليها في مواجهة أخيه عجلان في حالة عدم امتثاله لقرار السلطان الصالح صلاح الدين، والتتحي عن إمرة مكة المكرمة وتركها له، رأى أن يستعين بقوة من الجنود المماليك، لذلك وقبل أن يغادر الديار المصرية قام باقتراض مبلغ من المال من كبار أمراء المماليك وخصوصا من الأمير شيخو الذي ارتبط معه برباط الصداقة، ومن بعض كبار التجار، وذلك لشراء عدد من المماليك والخيول والأسلحة.<sup>(٤)</sup>

(١) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٨٣٦، ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، ج ٨، ص ٧٨، يحيى بن الحسين: غاية الأمانى، ق ٢، ص ٥١٦.

(٢) تولى السلطان الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد السلطنة بعد عزل أخيه الناصر حسن من سلطنته الأولى في ١٧ جمادى الآخرة من عام ٧٥٢هـ / ١٢ أغسطس ١٣٥١م، وعمره أربعة عشر عاما، واستمر يلى السلطنة لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ونصف، حتى عزل عنها في الثاني من شهر شوال من عام ٧٥٥هـ / ٢٠ سبتمبر ١٣٥٤م. انظر: ابن داود الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان، تحقيق: حسن حبشى، القاهرة، ١٩٨٦م، ج ٣، ص ١٤٨-١٧٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥٣٨-٥٥٣.

(٣) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٨٥٢؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٦٤، ٢٦٥.

(٤) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٨٥٢؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٦٤-٢٦٥.

- الأمير شيخو: هو الأمير شيخو العُمري الناصري، بدأ ظهوره في زمن السلطان المظفر =

وقد حدث ما توقعه الشريف ثَقَبَة، فبعد عودته إلى مكة المكرمة رفض أخوه الشريف عجلان التّحى عن إمرة مكة المكرمة، ولذلك نشب خلاف شديد بين الأخوين، واستمر ذلك الخلاف حتى قدم ركب الحج المصرى، وكان على رأسه الأمير طيبيغا المَجْدى، الذى طلب منه ثَقَبَة أن يقف إلى جواره ضد أخيه عجلان، غير أن الأمير طيبيغا رفض الانصياع لأمره، وإزاء تأزم الأمر، وقيام الشريف ثَقَبَة بالاستعداد للحرب، جرت عدة مفاوضات استطاع خلالها قاضى القضاة عز الدين بن جماعة الذى كان مشاركا فى ركب الحج المصرى، أن يتوصل إلى اتفاق ينهى هذا الخلاف، على أساس أن تكون إمرة مكة المكرمة شركة بين الأخوين عجلان وثَقَبَة، وبناء على ذلك، تقدم ثَقَبَة إلى مكة حيث دخلها ورحب به عجلان وأنعم عليه بسبعين ألف درهم عنوانا لإنهاء الخلاف بينهما. (١)

غير أن هذا الوفاق بين الأخوين عجلان وثَقَبَة لم يستمر طويلا، ففى بداية

=حاجى، وشغل عدة مناصب فى سلطنة الناصر حسن الأولى، لكن لم يلبث أن تم القبض عليه، وبعد سلطنة الصالح صلاح الدين أفرج عنه، وشارك فى إدارة الدولة، ثم شارك فى خلع الصالح وإعادة الناصر حسن، وفى عام ١٣٥٧/٥٧٥٨م وثب عليه أحد المالِك فجرحه بالسيف فى وجهه، ثم عولج وشفى، ولكنه لم يلبث أن توفى فى أواخر نفس العام (١٣٥٧/٥٧٥٨م). انظر ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٨٥٨،

- عز الدين بن جماعة: هو القاضى أبو محمد عبدالعزيز بن البدر بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنانى الحموى، ولد فى المحرم من عام ٦٩٤هـ/نوفمبر ١٢٩٤م بدمشق، تفقه وتعلم، ونال شهرة كبيرة، وتولى التدريس والخطابة والقضاء بكل من الديار المصرية والشامية لمدة عشرين عاما، وكان حسن السيرة، ثم ترك القضاء، وجاور بمكة المكرمة إلى أن توفى بها فى شهر جمادى الآخرة من عام ٧٦٧هـ/فبراير ١٣٦٦م. انظر: المقرئى، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ١٢٥.

- الأمير طيبيغا المَجْدى: هو علاء الدين المَجْدى الجمدار، من الأمراء المقدمين فى زمن السلطان الناصر محمد، تولى عدة وظائف، كما خدم السلطان الصالح صالح، وكان آخر العهد به عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م. انظر: الصفدى، الوافى بالوفيات، ج ٦، ص ٢٩٣.

عام ١٣٥٢/٥٧٥٣م ألقى الشريف ثَقَبَة القبض على أخيه عجلان، وألقاه في السجن، وانفرد بإمرة مكة المكرمة. (١) غير أن عجلان لم يستمر في السجن طويلاً فقد هرب منه بمساعدة بعض أمراء العرب من بني حسن وبني شُعبة، واستمر خارج مكة حتى قدم ركب الحج المصري لموسم حج عام ١٣٥٣/٥٧٥٤م، وعلى رأسه الأمير ركن الدين عمر شاه الحاجب، حيث استقبله عجلان خارج مكة، وشكا له ما حدث من أخيه ثَقَبَة، وذكر له ما فعله به لدرجة أنه بكى من شدة تأثره من قسوة أخيه ثَقَبَة عليه. (٢)

ومن الجدير بالذكر أن السلطان الصالح صلاح الدين، وسائر مدبري السلطنة المملوكية، كانوا قد أوصوا عمر شاه بأن يقبض على الشريف ثَقَبَة، ويعيد الشريف عجلان إلى إمرة مكة المكرمة بمفرده، وبالفعل بعد دخول الأمير عمر شاه إلى مكة المكرمة تقدم الشريف ثَقَبَة لاستقباله، فألقى القبض عليه، ووضعت القيود في يديه، كما ألقى القبض على من معه من القواد والعبيد، في حين ألبسوا الشريف عجلان التشاريف السلطانية، وطيف به في كل أنحاء مكة إعلاناً بانفراذه بإمرة مكة

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٢٠٥، المقرئزي: السلوك، ج٢، ص٨٨٨.

(٢) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص٩٠٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٨٥.

- بنو حسن: مجموعة من القبائل العربية حملت اسم بنو حسن، والتي انتشرت في سوريا والعراق والأردن والجزيرة العربية ومصر، ولعل المقصود هنا هم بنو حسن الذين ينتمون إلى آل شريف من ثقيف الذين سكنوا بالطائف، وانتشروا في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة. راجع: عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، ج١، ص١٧٤.

- بني شُعبة: إحدى القبائل العربية التي سكنت قرب مكة المكرمة مما يلي اليمن. راجع عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، ج٢، ص٥٩٦.

- الأمير عمر شاه: هو الأمير ركن الدين عمر شاه التركي، تدرج في مختلف الوظائف مثل الطباخاناه، ونيابة حماة، وحاجب حجاب دمشق، توفي بدمشق في عام ١٣٦٩/٥٧٧١م. انظر: ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٧٧٦.

المكرمة. أما الشريف ثَقَبَة فبعد انتهاء موسم الحج عام ١٣٥٣/٥٧٥٤م حُمل إلى الديار المصرية وهو مكبل بالحديد، حيث سُجن بالقاهرة. (١)

وقد استمر الشريف ثَقَبَة مسجوناً بالقاهرة لمدة قاربت العامين، حيث استطاع الهرب من سجنه في عام ١٣٥٥/٥٧٥٦م، وتوجه بعد ذلك إلى مكة المكرمة، وبعد حدوث عدة مناوشات مع قوات الشريف عجلان تم الاتفاق بينهما في مطلع عام ١٣٥٦/٥٧٥٧م على أن تكون إمرة مكة المكرمة مناصفة بينهما. (٢)

وكما هي عادة الشريف ثَقَبَة فإنه لم يقنع بالاشتراك مع أخيه عجلان في إمرة مكة المكرمة؛ ففي نفس العام وفي شهر جمادى الآخرة قام بإزاحة عجلان عن إمرة مكة المكرمة، وانفرد بها، غير أن عجلان لم يستسلم، وأخذ في منازعته، واستطاع أن يتولى الإشراف على حج هذا العام (١٣٥٦/٥٧٥٧م)، وفي بداية العام التالي تصافيا، واشتركا سويا في إمرة مكة المكرمة، واشتركا سويا في الإشراف على حج عام ١٣٥٧/٥٧٥٨م. (٣)

على هذا النحو استمر الصراع بين الأخوين عجلان وثَقَبَة ابني رُمَيْثَة بن أبي نُمى منذ أن قرر والدهما التتحى عن إمرة مكة المكرمة عام ١٣٤٣/٥٧٤٤م مما أدى إلى اضطراب الأمور داخل مكة المكرمة، وما صحب ذلك من عدم تقديم الخدمات اللازمة للحجاج والزائرين والمعتمرين، وقد دفع هذا الوضع السلطان المملوكي الناصر حسن أن يصدر قراراً في عام ١٣٥٩/٥٧٦٠م بعزل كلا من الشريفين عجلان وثَقَبَة عن إمرة مكة المكرمة، وأسند إمرتها إلى كل من الشريفين

(١) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٧؛ الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج١، ص١٨١.

- يذكر الفاسي أنه لم يتم القبض على الشريف ثَقَبَة إلا بعد رفضه التصالح مع أخيه عجلان، وأن يشتركا سويا في إمرة مكة المكرمة. انظر: العقد الثمين، ج٣، ص٣٩٧.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٣٩٧.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٢٠٥؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٩٦.

سند بن رُمَيْثَة بن أبي نُمَيْ، وابن عمه محمد بن عُطَيْفَة الذي كان مقيماً بالديار المصرية، والذي اصطحب معه أثناء توجهه إلى مكة المكرمة قوة عسكرية من المماليك، وكان في صحبته أيضاً أربعة من أمراء المماليك على رأسهم الأمير جَرَكَتْمُر المارداني حاجب الحجاب بالقاهرة. (١)

لم يرض الشريف ثَقَبَة بإبعاده عن إمرة مكة المكرمة، فتوجه إلى جدة حتى حلول موسم الحج عام ٥٧٦١/١٣٦٠م، وكان خلال تلك المدة يعد العدة لمهاجمة الركب المصري ومن يصحبه من أمراء المماليك، وبالفعل قام بمهاجمة أمير الركب المصري الأمير المملوكي قُنْدَس، وأنزل به هزيمة ساحقة، وقتل عدد كبير من رجاله، وأسر عدداً آخر، ودخل مكة المكرمة منتصراً، حيث انضم إليه أخوه سند، بينما فر الشريف محمد بن عطيفة إلى ينبع، ثم غادر الجزيرة العربية تماماً، حيث عاد إلى القاهرة بصحبة ركب الحج المصري في أوائل عام ٥٧٦٢/١٣٦٠م. (٢)

غير أن الأجل لم يطل بالشريف ثَقَبَة لنرى ماذا سيفعل في مكة المكرمة بعد إنزاله هزائم متتالية بالقوات المملوكية، فبعد أن أنزل الهزيمة السابقة بقوات الأمير

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٧١.  
- الأمير جَرَكَتْمُر المارداني: كان من ممالك الناصر محمد، أخذ في الترقى، ونال عدة وظائف كبرى مثل التقديم، والحجوبية للناصر حسن، توفي في عام ٥٧٦٩/١٣٦٧م.  
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ١٦٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٧١.  
- حاجب الحجاب: وجدت هذه الوظيفة منذ أيام الدولة الأموية، وكان يتولى صاحبها حجب الخليفة عن العامة، وفي زمن دولة المماليك ازدادت مهامه فصار ينصف بين الأمراء والجند، بالإضافة إلى تفقده من يريد الدخول على السلطان. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ٥٤، الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ١٨٢.

- الأمير قُنْدَس: لم نعثر على ترجمة له في المصادر المتاحة.



قُدس أنزل هزيمة أخرى بالقوات المملوكية التي حضرت من دمشق إلى مكة المكرمة بصحبة الأمير ناصر الدين بن قراسنقر،<sup>(١)</sup> ويذكر ابن كثير أنه: "كبسهم، وقتل من حواشيهم، وأخذ خيولهم، وأنهم ساروا جرائد بغير شيء مسلوبين إلى الديار المصرية". وقد توفي الشريف ثَقَبَة في شهر شوال من عام ٥٧٦٢هـ / أغسطس ١٣٦١م.<sup>(٢)</sup>

وقد انتهز الشريف عجلان بن رميثة فرصة وفاة أخيه ثَقَبَة، فدخل مكة، وتولى إمرتها، ثم أشرك ابنه أحمد معه في حكمها، ثم تنازل له عن إمرتها في عام ٥٧٧٤هـ / ١٣٧٢م بشرط أن يدفع له مبلغا من المال، وأن يستمر الدعاء له في الخطبة (أى لعجلان) مدة حياته، ووفى أحمد لأبيه بما شرطه عليه إلى أن توفي والده في ١١ جمادى الأولى من عام ٥٧٧٧هـ / ١٠ نوفمبر ١٣٧٢م.<sup>(٣)</sup>

ثم استمر أحمد بن عجلان أميرا على مكة المكرمة حتى وفاته في ٢٠ شعبان من عام ٥٧٨٨هـ / ١٧ سبتمبر ١٣٨٦م، وخلال هذه المدة الطويلة التي قاربت الستة عشر عاما، والتي قضى بعضًا منها شريكًا لوالده، والبعض الآخر منفردًا، ثم شريكا لابنه محمد منذ عام ٥٧٨٠هـ / ١٣٧٨م<sup>(٤)</sup> وخلال هذه المدة ساس مكة المكرمة سياسة جيدة، إذ مدحه المؤرخون، حيث يقول عنه الفاسي (ت ٥٨٣٢هـ / ١٤٢٩م): "وكان لأحمد بن عجلان سيرة مشكورة، ومحاسن مذكورة؛ لأنه كان كثير العدل في الرعية، مكرمًا للتجار،<sup>(٥)</sup> حيث يقول عنه ابن حجر (٥٨٥٢هـ / ١٤٤٨م): "كان شهما شجاعًا.. رأيته يطوف بالكعبة سنة ٥٧٨٥هـ / ١٣٨٣م مرارًا، وكان عظيم الأبهة،

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ٦، ص ص ٦٧، ٦٨.

(٢) البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٢٧٦؛ الفاسي: العقد الثمين، ج ٣، ص ٣٩٨.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج ٦، ص ص ٦٩، ٧٠.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٧٤؛ الفاسي: العقد الثمين، ج ٣، ص ٩٠؛ ابن زهير:

الجامع اللطيف، ص ١٩٦.

(٥) العقد الثمين، ج ٦، ص ٩٥.

واسع الحرمة، كثير الرياسة .. وكان يحب العدل، ويقمع المفسدين، وحسنت سيرته  
جدا بالنسبة إلى أيام أبيه وعمه"<sup>(١)</sup> وقال عنه مؤرخ اليمن المعاصر له الشيخ  
الخرجي (ت ٥٨١٢هـ / ١٤٠٩م): "وكان أميراً جواداً كريماً سيداً حليماً، حسن السيرة  
في البلاد والعباد"<sup>(٢)</sup>.

(١) الدرر الكامنة، ج ١، ص ٢١٥.

(٢) العقود اللؤلؤية، ج ٢، ص ١٨٧.

## الفصل السادس

العلاقات بين أشرف مكة المكرمة  
وأشرف المدينة المنورة



تنوعت علاقات أشرف مكة المكرمة بأشراف المدينة المنورة ما بين علاقات ودية، وأخرى عدائية، وذلك نتيجة ما حدث من صراع بينهما بسبب أطماع بعض أشرف مكة في مد نفوذهم إلى المدينة المنورة، أو العكس.

ومع بداية عصر المماليك شهدت المدينة المنورة صراعا داخليا كان له تأثير كبير على علاقتها بمكة المكرمة، فبعد وفاة الأمير الشريف مُنيف بن شيحة الحسنى أمير المدينة المنورة عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م حدث تنافس بين ابنه مالك وبين عمه الشريف جماز بن شيحة على إمرة المدينة المنورة، وخصوصا أن إمرتها المدينة كانت شركة بين الشريف مُنيف وأخيه جماز. (١)

غير أن الشريف جماز استولى على إمرة المدينة المنورة دون أن يشرك معه ابن أخيه مالكا، الذى كان له الحق فى أن يرث أبيه فى إمرة المدينة المنورة، (٢) ويبدو أنه انتهز وجود مالك بعيدا عن المدينة المنورة فى ذلك الوقت، حيث كان يتولى حكم ينبع. (٣)

لكن الشريف مالك لم يقف ساكنا أمام اغتصاب عمه لحقه فى إمرة المدينة المنورة، وفي نفس الوقت لم يشأ أن يدخل فى صراع مع عمه الشريف جماز، ولذلك توجه إلى القاهرة فى شهر رمضان من عام ٦٦٥هـ/ يونيو ١٢٦٧م شاكيا للسلطان الظاهر بيبرس ما قام به عمه الشريف جماز من اغتصاب حقه فى إمرة المدينة المنورة، موضحا أن إمرتها كانت شركة بين عمه ووالده، وبعد أن تحقق السلطان الظاهر بيبرس من صحة شكاية الأمير مالك، وأحقيته فى إمرة المدينة المنورة، أصدر تقليدا بتولى الشريف مالك نصف إمرة المدينة المنورة مع عمه جماز، كما شمل هذا التقليد أيضا أحقيته فى تحصيل ريع نصف أوقاف المدينة

(١) الفاسى: العقد الثمين، ج٣، ص٤٣٦؛ السخاوى: التحفة اللطيفة، ج١، ص٤٢٣.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٥٦٠.

(٣) الفاسى: شفاء الغرام، ج٢، ص٢٠٢.

المنورة الموجودة بمصر والشام. (١)

وقد امتثل الشريف جمار لمرسوم السلطان الظاهر بيبرس، وأشرك معه ابن أخيه مالك في إمرة المدينة المنورة، وتولى الاثنان إمرتها منذ عام ٥٦٦٥هـ / ١٢٦٧م. (٢)

ولم يلبث الشريف مالك بن مُنيف أن أقصى عمه في عام ٥٦٦٦هـ / ١٢٦٨م عن حقه في إمرة المدينة المنورة، وانفرد بإمرتها، (٣) ولما لم تكن لدى الشريف جمار قوة كافية تسانده في الوقوف أمام قوة ابن أخيه مالك، فقد لجأ إلى أمير مكة المكرمة أبي نُمى محمد طالبا مساعدته في استعادة حقه في إمرة المدينة المنورة. (٤)

وقد استجاب الشريف أبو نُمى محمد لطلب الشريف جمار، وتوجه على رأس قوة عسكرية إلى المدينة المنورة لمساندته، وعلى الرغم من وقوف بعض القبائل العربية إلى جانبه مساندة للشريف جمار، إلا أنهم لم يستطيعوا التغلب على قوة الشريف مالك، ولذلك عاد شريف مكة من حيث أتى تاركاً الشريف جمار في وضع لا يحسد عليه، حيث كان مغلوباً على أمره مع ابن أخيه مالك. (٥)

غير أن الشريف مالكا أحس بأنه أساء لعمه جمار، فأرسل إليه يعتذر له، ويقول له: "أراك حريصاً على إمرة المدينة، وأنت عمي وصنو أبي، ويجب علينا أن نحترمك، ونرعى لك حقوقك، وقد استخرت الله تعالى، ونزلت لك عن الإمرة طوعاً لا كرهاً". (٦)

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٦٠.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٦٠.

(٣) السخاوى: التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٤٢٣.

(٤) السخاوى: التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٤٢٣.

(٥) السخاوى: التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٤٢٣.

(٦) السخاوى: التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٤٢٣.

وعلى هذا النحو استعاد الشريف جماز إمرة المدينة المنورة، واستمر يحكمها بمفرده، حتى تنازل عنها لولده أبى غانم منصور فى شهر رمضان من عام ٥٧٠٠هـ/ مايو ١٣٠١م بعد أن تقدم فى السن، ولم يعد قادراً على إدارة إمارة المدينة المنورة،<sup>(١)</sup> ويؤكد السخاوى على عدم مقدرة الشريف جماز على حكم المدينة المنورة ببلوغه سناً متقدمة بقوله: "وكأنه أضّر فى آخر عُمره وشاخ"<sup>(٢)</sup>، وخطب لولده منصور فى حياته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.<sup>(٣)</sup>

أما عن علاقة الأمير الشريف جماز بن شئحه بمكة المكرمة، فقد سبق ذكر استنجاهه بأمرها الشريف أبى نمدى محمد عندما نازعه ابن أخيه مالك فى إمرة المدينة المنورة، وعلى الرغم من أن الشريف أبى نمدى لم يتأخر، وقدم المساعدة المطلوبة قدر طاقته، إلا أن الشريف جماز كانت تراوده أطماع فى بسط نفوذه على مكة المكرمة، وقام بعدة محاولات فى سبيل تحقيق هذا الحلم.

وقد كانت المحاولة الأولى فى عام ١٢٧١هـ/١٢٧١م عندما انتهز حدوث صراع داخل مكة المكرمة عقب مقتل الشريف بهاء الدين إدريس بن حسن بن قتادة، عم الشريف أبى نمدى محمد وشريكه فى إمرة مكة المكرمة فى عام ١٢٦٩هـ/١٢٧١م،<sup>(٤)</sup> حيث قام الشريف جماز بالاتصال بالشريف غانم بن إدريس الذى كان موجوداً خارج مكة، وكان حينئذ يتولى حكم ينبع، وشجعه على المطالبة بحقه فى إمرة مكة المكرمة، ولوح بمساعدته فى ذلك.<sup>(٥)</sup>

وكان لموقف الشريف جماز بن شئحه المساند للشريف غانم بن إدريس أثره فى تشجيع الأخير على التوجه إلى مكة المكرمة، ثم تقدم جماز بن شئحه هو الآخر

(١) الفاسى: العقد الثمين، ج ٣٠، ص ٤٣٧.

(٢) التحفة اللطيفة، ج ١، ص ٤٢٤.

(٣) ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٧٥.

(٤) الخزرجى: العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ١٧٨.

(٥) الفاسى: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٢.

بقواته إلى مكة المكرمة مساندا لقوات غانم بن إدريس وذلك في شهر صفر من عام ٦٧٠هـ/ سبتمبر ١٢٧١م، حيث انتزعاها من يد أبي نُمى. (١)

غير أن أبا نُمى محمد بما أتاه الله من فطنة وحِكمة سياسية، استطاع أن يُفوت على شريف المدينة المنورة هدفه في الوصول إلى حكم مكة المكرمة، فأخذ في تهدئة ابن أخيه غانم، وأشركه معه في إمرة مكة المكرمة، واستطاع أن يخرج الشريف جماز بن شيحة من مكة المكرمة بعد أن استمر مقيما بها أربعين يوما. (٢)

أما المحاولة الثانية فكانت في عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م عندما تحالف كل من الشريف جماز بن شيحة مع أمير ينبع إدريس بن حسن بن قتادة، واتفقا على مهاجمة مكة المكرمة، وتم تنفيذ ذلك في ١٩ ربيع الآخر من نفس العام (٢٩ سبتمبر ١٢٧٦م) حيث قامت قوات تضم ما يقرب من ٢١٥ فارساً و ٦٠٠ راجل (مشاة) من قوات أميري المدينة المنورة وينبع بمهاجمة قوات أمير مكة التي كانت تقدر بـ ٢٠٠ فارس و ١٨٠ راجلاً (مشاة)، والتقى في مر الظهران، وقد لحقت الهزيمة بقوات جماز وحليفه إدريس، وتم أسر إدريس، بينما هرب جماز عائداً إلى المدينة المنورة. (٣)

وكانت المحاولة الثالثة في عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م عندما توجه الشريف جماز بن شيحة في هذا العام بجيشه إلى مكة المكرمة، وحاصرها حصاراً شديداً، فلم يستطع أبونُمى الصمود، ففر هاربا، بينما استطاع جماز دخول مكة المكرمة، وتولى حكمها، وخطب باسمه على منابرها، وسكَّ العملة بها باسمه (٤) لكن لم تطل إقامته بمكة المكرمة، فلم يلبث أن غادرها في آخر عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م تاركاً

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ١، ص ٤٦١.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج ١، ص ٤٦١.

(٤) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٧٤٦؛ السخاوی: التحفة اللطيفة، ج ١،



حكما لأبي نُمى. (١)

ومما يجدر ذكره أن المؤرخ الفاسي ذكر أن السلطان المملوكي المنصور قلاوون (٦٧٩ - ٦٨٩ هـ / ١٢٨٠ - ١٢٩٠ م) وقف إزاء تلك المحاولة إلى جانب الشريف جماز بن شيحة مؤازرا ومعاضدا له ضد الشريف أبي نُمى محمد. وقد أجاب الفاسي عن السبب الذي دفع السلطان المنصور قلاوون إلى الوقوف إلى جانب جماز ضد أبي نُمى، فمن ناحية يعود إلى عدم وفاء أبي نُمى للسلطان المنصور قلاوون، ومن ناحية أخرى يعود إلى انحياز أبي نُمى إلى جانب حاكم اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر (٦٤٧ - ٦٩٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٩٥ م) الذي أغدق على الشريف أبي نُمى الأموال والهدايا الكثيرة مما دفعه إلى تفضيل حاكم اليمن على حاكم مصر. (٢)

وعلى كل حال فإنه إزاء أطماع الأمير الشريف جماز بن شيحة أمير المدينة المنورة في الاستيلاء على مكة المكرمة، تثار عدة تساؤلات أهمها: هل كانت هذه هي المرة الأولى التي يطمع فيها أشراف المدينة المنورة في بسط نفوذهم على مكة المكرمة؟ ثم ما هي الأسباب التي دفعت الشريف جماز إلى الإصرار على بسط نفوذه على مكة المكرمة؟

إن المتتبع لتاريخ المدينة المنورة يجد أن محاولة الشريف جماز بسط نفوذه على مكة المكرمة لم تكن هي المحاولة الأولى من نوعها لأشراف المدينة المنورة، ومن ذلك على سبيل المثال ما حدث في عام ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م من صراع بين الشريف مكة المكرمة أبو عزيز قتادة بن إدريس، وبين الشريف المدينة المنورة سالم ابن قاسم الحسيني أسفر عن هزيمة قتادة أمام قوة سالم بذي الخليفة، (٣) وما تبع ذلك من

(١) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٧٤٦.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ١، ص ص ٤٦٢ - ٤٦٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٢٠٥.

مسيرة سالم إلى مكة المكرمة وحصارها حصاراً شديداً كادت أن تسقط على إثره في يده لولا اتخاذ قتادة طريق الدبلوماسية، حيث أرسل إليه يقول: "يا ابن العم، كسرة بكسرة، وأيام الحصار بمثلها، والبادي أظلم"، فلم يلبث سالم أن رفع الحصار عن مكة، وعاد إلى المدينة المنورة.<sup>(١)</sup>

أما الأسباب التي دفعت الشريف جماز بن شيحة إلى محاولة بسط نفوذه على مكة المكرمة فتعود إلى عدة أمور؛ أولاً: ما يعود إلى شخصية جماز نفسه، فقد وصف في المصادر بأنه كان شجاعاً مهيباً حازماً، وما تبع ذلك من قيامه بضبط أحوال المدينة المنورة، واستقرار الأمن بها، وما نتج عن ذلك من ظهوره بمظهر الرجل القوي القادر على حماية الأراضي المقدسة ببلاد الحجاز، كل ذلك جعله يفكر في توسيع نفوذه ليشمل مكة المكرمة، ويتولى الإشراف على الحرمين الشريفين. ثانياً: أنه سوف يجنى من وراء وضع يده على مكة المكرمة مكاسب مادية كبيرة، فإن ما سيحصل عليه من حجاج بيت الله الحرام بمكة المكرمة والزائرين والتجار سوف يفوق ما يحصل عليه من المدينة المنورة. ثالثاً: ما يرد إلى جماز بن شيحة من عائد الأوقاف الموقوفة على بيت الله الحرام بمكة المكرمة في كل أنحاء البلاد الإسلامية. رابعاً: ما يدفعه سلاطين المماليك من أموال لمن يتولى الإشراف على مكة المكرمة تفوق بكثير ما يدفعونه لأمراء المدينة المنورة. كل ذلك جعل جماز بن شيحة يفكر في بسط نفوذه على مكة المكرمة.

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ٧، ص ٤٢.

## الفصل السابع

علاقة سلاطين المماليك  
بأشراف المدينة المنورة وأثرها على مكة المكرمة



لا شك في أن تاريخ مكة المكرمة قد تأثر بعلاقة سلاطين الممالك بأشراف المدينة المنورة، سواء كانت تلك العلاقة بالسلب أو بالإيجاب، وذلك لارتباط تاريخ مكة المكرمة بالمدينة المنورة، كحرمين شريفين.

ومع بداية عصر الممالك لم تكن علاقة أشراف المدينة المنورة طيبة مع سلاطين الممالك، وقد وضع ذلك جليا عند زيارة السلطان الظاهر بيبرس للمدينة المنورة أثناء حجه عام ٦٦٧هـ/١٢٦٩م، وتشرفه بالسلام على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولم يستقبله كل من الشريف جماز بن شيحة، ولا ابن أخيه مالك أميري المدينة المنورة، فضلا عن نزوحهما من المدينة المنورة حتى لا يتقابلا مع السلطان الظاهر بيبرس،<sup>(١)</sup> وقد تأثر بيبرس بذلك تأثرا بالغا،<sup>(٢)</sup> لذلك لم ينعم عليهما بالخلع والأموال والهدايا، بينما زاد من مخصصات أشراف مكة المكرمة، وبالغ في الإنعام عليهم، مع ملاحظة أن السلطان الظاهر بيبرس لم يحرم أهالي المدينة المنورة وزوارها من الإنعامات والهدايا، حيث يشير المؤرخ ابن تغرى بردى إلى أنه "تصدق في المدينة المنورة بصدقات كثيرة".<sup>(٣)</sup>

والواقع أن سبب غضب السلطان الظاهر بيبرس على الشريف جماز بن شيحة أمير المدينة المنورة يعود إلى ما قبل زيارته للمدينة المنورة أثناء حجه في عام ٦٦٧هـ/١٢٦٩م، وبالتحديد عام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م عندما وردت إلى السلطان الظاهر بيبرس أموال الزكاة والعُشر من المدينة المنورة، وكانت مبلغا أقل مما كان يرد من قبل، فاستقل السلطان الظاهر بيبرس ذلك المبلغ، وأعادته مرة ثانية إلى

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨١؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٦.

(٢) على الرغم من غضب السلطان الظاهر بيبرس على أمراء المدينة المنورة، وبخاصة الشريف جماز بن شيحة، إلا أنه قال: "لو كان جماز يستحق القتل ما قتلته؛ لأنه في حرم النبي صلى الله عليه وسلم". انظر ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٦.

(٣) النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٦.

المدينة المنورة، وعهد إلى بعض القبائل العربية الأخرى الموجودة بالمدينة المنورة مثل بنو صخر وبنو لام وبنو غزة بتحصيل الأموال وإحضارها إلى القاهرة.<sup>(١)</sup>

ومنذ تلك الواقعة لم يعد الظاهر ببيرس واثقا في الشريف جماز، ولذلك عندما حدثت في شهر رمضان عام ٦٦٧هـ/ مايو ١٢٦٩م فتنة واضطراب بالمدينة المنورة على إثر قيام بعض قطاع الطرق بنهب ثروات وأموال أشرف المدينة المنورة، ثم ما حدث من قيام رجال ببيرس من استعادة تلك الأموال والثروات، لم يعهد لجماز وابن أخيه مالك بإعادتها إلى أصحابها، وإنما عهد إلى القاضي الشريف شمس الدين قاضي المدينة المنورة بإعادتها إلى أصحابها<sup>(٢)</sup> مما يدل على فقدان الثقة تماما بين ببيرس وكل من الشريفين جماز ومالك.

كما أن المنتبج لتاريخ المدينة المنورة منذ وفاة الشريف جماز بن شيحة عام ١٣٠٤هـ/ ١٣٠٤م وحتى نهاية عصر الممالك البحرية يجده مليئا بالمشاحنات والمنازعات التي ثارت بين أشرفها، وقد ساعد ذلك على زيادة تدخل السلطة المملوكية في شئون المدينة المنورة، وما تبع ذلك من أثر كبير على تاريخ مكة المكرمة.

فبعد وفاة الشريف جماز تولى ابنه الشريف ناصر الدين أبو عامر منصور إمرة المدينة المنورة، لكن لم تمض على ذلك فترة طويلة حتى نافسه في إمرتها أخوه الشريف مقبل بن جماز، وحدث قتال عنيف بين الأخوين في عام ١٣٠٩هـ/ ١٣٠٩م توجه على أثره الشريف مقبل إلى القاهرة شاكيا أخاه منصور للسلطان ببيرس الجاشنكير (٧٠٨ - ١٣٠٩هـ/ ١٣٠٩ - ١٣١٠م)، طالبا إشراكه في إمرة المدينة المنورة.<sup>(٣)</sup>

(١) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٦٢، ٥٦٣.

(٢) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥٨٢.

(٣) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٨٤.

- ببيرس الجاشنكير، هو ركن الدين ببيرس الجاشنكير المنصوري، أصله من ممالك المنصور قلاوون، ترقى في مختلف الوظائف، وقفز إلى كرسى السلطنة عام =

ولما كانت علاقة الشريف منصور طيبة بالسلطنة المملوكية، لذلك لم يشأ السلطان بيبرس الجاشنكير أن يمسه بسوء، وفي نفس الوقت أراد أن يحافظ على علاقته الودية بالشريف مقبل، ولذلك أصدر أوامره بأن يتولى الشريف مقبل نصف إمرة نجد. (١)

المدقق في قرار السلطان بيبرس الجاشنكير بتولية الشريف مقبل نصف إمرة نجد، يجده قراراً صائباً؛ لأنه جاء في مصلحة المدينة المنورة بصفة خاصة وفي مصلحة الحرمين الشريفين مكة والمدينة بصفة عامة، فقد أدى هذا القرار إلى إبعاد الشريف مقبل عن المدينة المنورة، ولم يعد يسبب المضايقات لأخيه الشريف منصور (٢) مما أدى إلى استقرار أحوال المدينة المنورة، وإلى أن يسود الأمن والرخاء بالمدينة المنورة مما عاد بالخير العميم على الحرمين الشريفين؛ إذ تزايدت أعداد الحجيج والزوار لكل من مكة والمدينة مما أدى إلى انتعاش أحوالهما، وهذا يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أن تاريخ مكة والمدينة تاريخ مشترك، فما يحدث في إحداهما من أحداث يؤثر بالضرورة على الأخرى سواء سلبا أم إيجابا.

وعلى كل حال فقد استقر حكم الشريف منصور بالمدينة المنورة، وعمل على توطيد علاقته بالسلطنة المملوكية، وقام بزيارة السلطان الناصر محمد عام ١٣١٠هـ/ ١٣١٠م حاملاً معه الهدايا الكثيرة، وطلب منه أن ينعم عليه بما كان مخصصاً

= ١٣٠٩/٥٧٠٨م، ولم تطل سلطنته، فلم يلبث أن عزل في العام التالي

(١٣١٠/٥٧٠٩م)، ثم انتهى أمره بالقتل خنقاً في نهاية عام ١٣١٠/٥٧٠٩م. انظر ابن

حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٦ - ٤٠.

(١) المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ق ١، ص ٨٤.

(٢) بعد قرار السلطان بيبرس الجاشنكير بولاية الشريف مقبل نصف إمرة نجد دخل في مناقشات

مع الشريف بدر الدين كبيشه بن الشريف منصور انتهت بمقتل الشريف مقبل، وبذلك خلت

إمارة المدينة المنورة للشريف منصور. انظر: المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢،

لأخيه مقبل، فاستجاب السلطان لطلبه مما يدل على تلك العلاقة الطيبة التي ربطته بسلاطين المماليك<sup>(١)</sup> لدرجة أن المؤرخ المقریزی يعلق على تلك العلاقة، وما كان يقوم به الشريف منصور من زيارات متكررة للقاهرة بقوله: "وقدم منصور إلى القاهرة مرارا"<sup>(٢)</sup>.

ولم يمنع ذلك من حدوث خلافات وتنافس بين أبناء الشريف جماز حول إمرة المدينة المنورة؛ فلم يلبث أن طمع الشريف ودي بن جماز في إمرتها، ويبدو أن السلطان الناصر محمد كان غاضبا في تلك الأيام على الشريف منصور، فأقر ودي على إمرتها، بينما تقرر القبض على الشريف منصور وإرساله إلى القاهرة، ولم يطل سجن منصور بالقاهرة، فلم يلبث أن أفرج عنه، وأعيد إلى إمرة المدينة المنورة في موسم حج عام ٥٧١٧/١٣١٨م تصاحبه فرقة عسكرية لمساندته في إقرار الأمور بالمدينة المنورة على رأسها الأمير عز الدين أيدير الكوندي<sup>(٣)</sup>.

وقد استمر الشريف منصور في تولي إمرة المدينة المنورة حتى سقط قتيلًا بيد ابن أخيه حديثة في ٢٤ رمضان من عام ٥٧٢٥/٤ سبتمبر ١٣٢٥م، وخلفه في إمرة المدينة المنورة ابنه الشريف بدر الدين كُبَيْش<sup>(٤)</sup>.

وتشير الأحداث التاريخية إلى أن الأمور لم تهدأ بالمدينة المنورة طيلة عهد الشريف كُبَيْش، وعلى حد قول السخاوي: "لم تصف له تلك الأيام"<sup>(٥)</sup>، ذلك أن الشريف ودي بن جماز ناصب أولاد أخيه منصور بن جماز العدا، وبذل محاولات عديدة لانتزاع إمرة المدينة المنورة من يد كُبَيْش، ومن بين تلك المحاولات ما أشار

(١) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٩٤.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٢٦٩؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣٣، ص ١٩٢.

(٣) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٧٥.

(٤) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٣، ص ٤٢٦.

(٥) التحفة اللطيفة، ج ٣، ص ٤٢٧.



إليه المقریزی من انتهاز الشريف ودي فرصة غياب الشريف بدر الدين كُبَيْش عن المدينة المنورة، فقام في شهر صفر من عام ٥٧٢٧هـ/ ديسمبر ١٣٢٦م بمحاصرتها لمدة سبعة أيام، وقام بالدفاع عنها خلال تلك الأيام السبعة الشريف طفيل الأخ الثاني للشريف كُبَيْش وجماعة من أعوانه، غير أن طفيل لم يستطع الصمود أمام حصار عمه الشريف ودي، فاستسلم له، ودخل ودي المدينة المنورة، وأنزل عقابا شديدا بأتباع طفيل، وصادر ممتلكاتهم، كما أنزل عقوبة شديدة بمن ناصرهم لدرجة أن عددا كبيرا منهم مات تحت العقوبة، ولم يكتف الأمير ودي بذلك، وإنما تعرض لبعض أعيان المدينة المنورة، مثل القاضي هاشم بن علي،<sup>(١)</sup> واستمر الشريف ودي يعيث بالمدينة المنورة وأهلها حتى قدم الشريف بدر الدين كُبَيْش بقواته، ففر ودي هاربا بعد أن أنزل أضرارا بالغة بأهل المدينة المنورة!!<sup>(٢)</sup>

ومما يجدر ذكره أنه ما أن نمت إلى علم السلطان الناصر محمد هذه الأحداث المؤسفة إلا وسارع بإرسال قوة عسكرية للمدينة المنورة للعمل تحت قيادة الشريف كُبَيْش، وذلك لاستتباب الأمن بها.<sup>(٣)</sup>

كذلك من بين محاولات الشريف ودي من أجل انتزاع المدينة المنورة من يد أولاد أخيه ما قام به في نفس العام (٥٧٢٧هـ/١٣٢٧م) من اعتداءات على أبناء أخيه منصور مما أثار فزعا شديدا بالمدينة المنورة.<sup>(٤)</sup>

(١) اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، تحقيق: خليل المنصوري، بيروت، ١٩٩٧م، ج٤، ص٢٠٨.

- القاضي هاشم بن علي: هو شهاب الدين هاشم بن علي بن سنان، قاضي الشيعة بالمدينة المنورة. انظر: النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص٢٢٤.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص٢٢٤؛ المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص٢٨٠، ٢٨١.

(٣) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص٢٨١.

(٤) المقریزی: السلوك، ج٢، ص٢٨٨.

وقد كان من نتيجة هذه الصراعات حول إمرة المدينة المنورة أن توجه جميع المتصارعين إلى القاهرة فى شهر ذى القعدة من عام ٧٢٧هـ/ سبتمبر ١٣٢٧م ليوضح كل منهم أحقيته فى هذه الإمرة، واستطاع الشريف طفيل بن منصور أن يتفوق على الشريف ودى، وأثبت اعتداءات الأخير على أهالى المدينة المنورة وأمرائها، وأبدى من الحجج ما دفع السلطان الناصر محمد إلى إصدار أمر بالقبض على الشريف ودى، وإقرار بدر الدين كُبَيْش على إمرة المدينة المنورة، كما أمر بإعداد قوة عسكرية تصاحب الأميرين طفيل وكُبَيْش أثناء عودتهما إلى المدينة المنورة جاء على رأسها الأمير علاء الدين على بن طغريل، لكى تساعد الشريف كُبَيْش فى حكم المدينة المنورة، وتقوم بالقبض على أعوان وأنصار ودى، وذلك حتى تصفو الأمور للشريف كُبَيْش، غير أن هذه القوة لم تستطع إلقاء القبض على أعوان الشريف ودى وذلك لهروبهم بمجرد سماعهم بهذه الأحداث. (١)

وهكذا أسفرت هذه الأحداث عن وقوف السلطان الناصر محمد إلى جانب الشريف بدر الدين كُبَيْش، ومساندته مساندة قوية مما ساعد على استقرار الأمور بالمدينة المنورة، وأدى أيضا إلى زيادة تدخل السلطان المملوكي فى شئون المدينة المنورة، وفى المقابل أخلص الشريف بدر الدين كُبَيْش إخلاصا تاما للسلطان الناصر محمد لدرجة أن عقب المقرئى على ذلك بقوله: "ودعا للسلطان عقب كل صلاة، كما يُدعا له بمكة"، وذلك بعد أن كان يدعا له فقط فى خطبة يوم الجمعة والعيدى. (٢)

(١) المقرئى: السلوك، ج٢، ص٢٨٨.

- الأمير علاء الدين بن طغريل الحاجب الكبير بدمشق، وصفه ابن حجر العسقلاني بقوله: "كان أحد الرؤساء الأبطال"، توفى بالطاعون فى عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م. انظر: الصفدي: الوافى بالوفيات، ج٢١، ص١٠٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص١٢٧.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص٢٨٨.

ولم يكن الشريف ودى وحده الذى ناصب أبناء أخيه منصور العداء، وإنما شاركه فى ذلك العداء أخوه مُقبل بن جمار. يقول الرحالة ابن بطوطة الذى كان مقيماً بالمدينة المنورة خلال تلك الأحداث؛ إنه نتيجة موقف الشريف مُقبل المعارض لابن أخيه بدر الدين كُبَيْش قام الأخير بالتخلص منه بالقتل فى عام ٥٧٢٧/١٣٢٧م<sup>(١)</sup> مما أثار نائرة أولاد مُقبل، فقاموا بالفتك بالشريف بدر الدين كُبَيْش وقتلوه فى شهر شعبان من عام ٥٨٢٨/يونية ١٣٢٨م.<sup>(٢)</sup>

وبعد مقتل الشريف بدر الدين كُبَيْش، فوض السلطان الناصر محمد إمرة المدينة المنورة لأخيه سيف الدين طُفَيْل، وكان موجوداً فى ذلك الوقت بالقاهرة، وخلع عليه السلطان الناصر الخلع السنية،<sup>(٣)</sup> ثم توجه إلى المدينة المنورة فى شهر شوال من عام ٥٧٢٨/أغسطس ١٣٢٨م.<sup>(٤)</sup>

وتعتبر فترة إمرة الشريف طُفَيْل للمدينة المنورة من الفترات التى شهدت اضطراباً شديداً، وصراعاً كبيراً بين مختلف القوى بالمدينة المنورة، فقد عُزل عنها أكثر من مرة، واستعادها أيضاً بالقوة حيناً، وبالديبلوماسية حيناً آخر.<sup>(٥)</sup>

وفى البداية كان المنافس للشريف طُفَيْل عمه الشريف ودى بن جمار، الذى رأيناه فى السابق منافساً لابن أخيه أيضاً الشريف بدر الدين كُبَيْش، والذى سجنه السلطان الناصر محمد بقلعة الجبل بمصر منذ شهر شوال عام ٥٧٢٩/أغسطس ١٣٢٩م، وفى شهر رمضان ٥٧٣١/يونيه ١٣٣١م رضى عنه السلطان الناصر محمد، وأفرج عنه، وأصدر أمراً بتوليته إمرة المدينة المنورة مشاركاً لابن أخيه

(١) تحفة النظر، ص ١٢٤.

(٢) النويرى: نهاية الأرب، ج ٣٣، ص ٢٦٠.

(٣) النويرى: نهاية الأرب، ج ٣٣، ص ٢٦٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٧٣.

(٤) السخاوى: التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ٢٥٩.

(٥) ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٢٥.

طُفيل. (١)

ولم يقبل الشريف طُفيل أن يشاركه عمه الشريف ودى فى إمرة المدينة المنورة، ومن ثم أخذ النزاع والتخاصم يَدُبُ بين الاثنين مما دفع السلطان الناصر محمد إلى أن يصدر أمراً بعزل الشريف طُفيل عن إمرة المدينة المنورة نهائياً فى عام ٧٣٦هـ/١٣٣٥م، (٢) وكانت ولايته لها هذه المرة ثمانى سنوات وثلاثة عشر يوماً. (٣) وحتى يعمل السلطان الناصر محمد على إبعاد الشريف طُفيل عن المدينة المنورة لكى لا يثير بها الفتن والقلق فقد منحه إقطاعاً بمدينة حوران ببلاد الشام. (٤)

ولم يكن من المتوقع أن يستكين الشريف طُفيل بحوران تاركاً المدينة المنورة التى نشأ وتربى بها، فضلاً عما تمثله له من أهمية من كافة النواحي وبخاصة الناحية الدينية، لذلك لم يستمر كثيراً بحوران، وحضر إلى المدينة المنورة فى عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م، وقام بمهاجمتها، واستولى عليها من يد عمه ودى، وحتى يرضى السلطنة المملوكية فقد أرسل أخاه الشريف حميد بن منصور إلى السلطان سيف الدين شعبان يطلب منه تقليداً بإمرة المدينة المنورة، فاستجاب له السلطان شعبان، وأرسل له تقليداً بإمرتها. (٥)

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٣٣٣.

(٢) ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٢٥.

(٣) السخاوى: التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ٢٥٩.

(٤) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٣٩٢.

- حوران: إحدى مدن دمشق، ذات قرى كثيرة، ومزارع واسعة. ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣١٧.

(٥) ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٢٥.

- السلطان سيف الدين شعبان هو ابن السلطان الناصر محمد، تولى الحكم فى شهر ربيع الثانى من عام ٧٢٦هـ/أغسطس ١٣٤٥م، ولم يستمر فى الحكم طويلاً، إذ لم يلبث أن قتل خنقاً فى جمادى الآخرة من عام ٧٤٧هـ/سبتمبر ٣٤٦. انظر أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج ٤، ص ١٤٥-١٤٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥٥٣، ٥٨٠.

وعلى هذا النحو تولى الشريف طفيل إمرة المدينة المنورة للمرة الثانية، وفي بداية هذه الفترة أحسن كثيرا إلى أهلها وزوارها والمجاورين بها لدرجة أن السخاوى وصف حكمه فى هذه الفترة بأنه كان "على طريقة حسنة"،<sup>(١)</sup> غير أنه بعد فترة قصيرة أخذت سياسته تتبدل وتساء مما دعا السلطان الناصر حسن إلى عزله عن إمرة المدينة المنورة عام ١٣٤٩/٥٧٥٠م، ويعهد بإمرتها للشريف سعد بن ثابت بن جماز.<sup>(٢)</sup> ويحاول السخاوى تبرئة الشريف طفيل من هذه الأفعال السيئة، ويعزو سببها إلى أنها كانت "بتدبير بعض الوزراء لا تليق بمثله".<sup>(٣)</sup>

ومرة أخرى يرفض الشريف طفيل قرار السلطان الناصر حسن بعزله عن إمرة المدينة المنورة، فيقوم بشن هجمات متتالية عليها، ونهب كل ما يصل إليه حتى أن حجاج بيت الله الحرام وزوار رسوله الكريم لم يسلموا من النهب والسلب، مما دفع السلطان الناصر حسن إلى إصدار قرار بالقبض عليه فى موسم حج عام ١٣٥١/٥٧٥١م، وإحضاره إلى القاهرة حيث سجن بها، واستمر سجينا بالديار المصرية حتى وفاته فى رمضان من عام ١٣٥٢/٥٧٥٢ أكتوبر ١٣٥١م.<sup>(٤)</sup>

وقد انتهز الشريف ودى فرصة سجن الشريف طفيل بالديار المصرية، وقام فى شهر ربيع الأول من عام ١٣٥٢/٥٧٥٢ مايو ١٣٥١م بمهاجمة سعد بن ثابت الأمير الذى كلفه السلطان الناصر حسن بتولى حكم المدينة المنورة، وكان معه جمع كبير ضم معظم أولاده، وانتهى أمر هذا الهجوم بمقتل الشريف سعد بن ثابت، ودخول ودى المدينة المنورة، ونهب ثرواتها.<sup>(٥)</sup>

(١) التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ٢٥٩.

(٢) ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٢٥.

(٣) التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ٢٥٩.

(٤) ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٢٥؛ السخاوى: التحفة اللطيفة، ج ٢،

ص ٢٥٩.

(٥) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٨٣٩، ٨٤٠.

فما كان من السلطان المملوكى الناصر حسن إلا أن عهد بإمرة المدينة المنورة للشرىف فضل بن قاسم بن قاسم بن جماز،<sup>(١)</sup> إلا أن الشرىف قاسم لم يهنأ طويلا بإمرة المدينة المنورة، إذ هاجمه الشرىف مانع بن على بن مسعود بن جماز يحالفه أولاد طفيل، وقاموا بمحاصرة المدينة المنورة قرابة اثنى عشر يوما، لكن الشرىف قاسم استطاع التصدى لهذا الحصار، وأنزل بالمهاجمين خسائر كبير، مما اضطرهم إلى رفع الحصار.<sup>(٢)</sup>

مما يذكر أن أحداث المدينة المنورة واضطراب الأمور بها فى عامى ٧٥١هـ/١٣٥٠م، ٧٥٢هـ/١٣٥١م أثرت كثيرا على مكة المكرمة؛ فقد امتلأ قلب الحجاج والزوار بالخوف الشديد، فبعد أن قدموا إلى مكة المكرمة فى حج عام ٧٥١هـ/١٣٥١م، وترامى إلى أسماعهم تلك الفوضى العارمة التى عمّت المدينة المنورة، ونهب من وجد بها من المجاورين والزوار والتجار، أحجموا عن الذهاب إليها.<sup>(٣)</sup>

وبطبيعة الحال فإن تلك الأفعال كفيلا بأن تؤثر سلبا على رحلات الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة، فتوقفت تماما، ومعنى عدم وفود قوافل الحجاج إلى مكة المكرمة انهيار اقتصادها، وهذا ما يجعلنا نقرر ارتباط تاريخ مكة المكرمة بتاريخ المدينة المنورة ارتباطا وثيقا، حيث يؤثر كل منهما فى الأخرى تأثيرا كبيرا.

(١) المقرىزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص٨٤٠.

(٢) المقرىزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص٩١٥.

(٣) المقرىزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص٨١٦.



## الفصل الثامن

النفوذ المغولي بمكة المكرمة







بعد أن اعتنق إيلخانات فارس الإسلام، أخذوا في التفكير في دس أنوفهم في شئون العالم الإسلامي، ويبدو أن الدافع الذي دفعهم إلى ذلك هو تحقيق الهدف القديم الذي وضعه لهم جدهم الأكبر جنكيزخان عندما قرر لهم مجموعة من القوانين التي أطلق عليها اسم "إلياسا" أو "إليسق"، وكان أهم ما فيها أن يصبح المغول سادة العالم.<sup>(١)</sup>

وقد بذل خانات المغول منذ أيام جنكيز خان جهودهم من أجل تحقيق هذا الهدف، غير أنهم عجزوا عن تحقيقه، خصوصاً بعد أن تصدى لهم الممالِك، وأنزلوا بهم الهزائم المتتالية، وإزاء ذلك ارتد المغول إلى إيران والعراق، حيث أقاموا لهم دولة في هذه المناطق أطلق عليها اسم "الدولة الإيلخانية".<sup>(٢)</sup>

ولم تستمر هذه الدولة على وثبيتها، فلم يلبث الإسلام إلا أن انتصر عليها، فبعد أن جلس على عرش هذه الدولة تكودار عام ٦٨٠هـ/١٢٨٢م، والذي كان مسلماً منذ مطلع شبابه، اتخذ اسم "السلطان أحمد"، وهو الاسم الذي اتخذته قبل توليه العرش ومنذ اعتناقه الإسلام،<sup>(٣)</sup> وأخذ أحمد منذ اعتلائه العرش يعمل على نشر

(١) إلياسا أو إليسق؛ هي مجموعة القوانين والشرائع التي وضعها جنكيزخان، واهتم بتطبيقها، وكان التزامهم بها سبباً لقوتهم. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣١٠-٣١٢؛ المقرئزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٢، ص ٢٢٠، ٢٢١.

- جنكيز خان: اسمه الحقيقي تيموجين، اتخذ اسم جنكيزخان بعد أن أصبح خانا للمغول، وقد أوضح المؤرخ رشيد الدين الهمداني أن الاسم الأخير مأخوذ من الكلمة الصينية Tiching ومعناها القوى. انظر: جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة، ١٩٦٠، ج ١، ق ٢، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) عن هذه الدولة انظر: فؤاد عبدالمعطي الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين.

(٣) رشيد الدين الهمداني: جامع التواريخ، المجلد ٢، ق ٢، ص ٩٠-٩٣؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٢، ص ٢٥٥.

- السلطان أحمد تكودار: هو الابن السابع لهولاكوخان، والدته قوتى خاتون، تولى حكم دولة مغول فارس عام ٦٨٠هـ/١٢٨٢م، ولم يستمر طويلاً إذ توفي مقتولاً في عام ٦٨٣هـ/١٢٨٢م. انظر: رشيد الدين الهمداني: جامع التواريخ، المجلد الثاني، ج ٢، ص ٨٨-١٠٢.

## الإسلام بين مغول فارس. (١)

وقد حاول أحمد تكودار إقامة علاقات طيبة مع سلطنة المماليك، بوصفهم حكام أكبر دولة إسلامية في ذلك الوقت،<sup>(٢)</sup> غير أن الظروف لم تكن مهيأة له لاستكمال مشروع تحالفه معهم، إذ خرج عليه ابن أخيه "أرغون"، وتزعّم المعارضة ضده، وانتهى الأمر بقتل أحمد تكودار في عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م.<sup>(٣)</sup>

وإذا كان أحمد تكودار قد فشل في نشر الإسلام بين مغول فارس في تلك الفترة، فإنه في السنوات العشر التالية أخذ الإسلام ينتشر بينهم لدرجة أن أصبح معظم القائمين على أمور دولة مغول فارس مسلمين،<sup>(٤)</sup> ولم يلبث السلطان غازان بن أرغون بن أباقا خان بن هولاقو خان أن اعتنق الإسلام في شهر شعبان من عام

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج ٩، ص ٢٢١ (تحقيق: زبيدة عطا)؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٥، ص ٤٦.

(٢) وعن علاقة أحمد تكودار بالمماليك انظر: محيي الدين بن عبدالظاهر: تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٦-٢٦؛ ابن الفوطى: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق: يشار عواد وآخرين، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٤٦٢ (يتشكك محقق الكتاب في صحة نسب الكتاب إلى ابن الفوطى)؛ ابن الفرات: تاريخه، تحقيق: قسطنطين زريق، بيروت، د.ت، ج ٧، ص ٢٧٩، ٢٨٠.

- البرزالي: المقتفى على تاريخ الروضتين المعروف باسم تاريخ البرزالي، ج ٢، ص ٤٥.  
(٣) ابن الفرات: تاريخه، ج ٨، ص ٥، ٦؛ البرزالي: المقتفى على تاريخ الروضتين المعروف باسم تاريخ البرزالي، ج ٢، ص ٤٥.

- أرغون خان: هو ابن أباقاخان بن هولاقو خان، والدته هي قيميش إيكاجي، تولى عرش دولة مغول فارس عام ٦٨٣هـ/١٢٨٢م، واستمر على العرش حتى وفاته عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م. انظر: رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، المجلد الثاني، ج ٢، ص ١٢٤-١٦٢.

(٤) فؤاد عبدالمعطي الصياد: السلطان محمود غازان، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٦، ٧.

١٦٩٤هـ/يونيه ١٢٩٥م، وتسمى باسم "محمود"<sup>(١)</sup>، وتلا ذلك إصداره قراراً بأن يكون الإسلام هو دين دولة مغول فارس الرسمي.<sup>(٢)</sup>

ولم يكن غازان ومن قبله أحمد تكودار هما أول من أسلم من المغول، فقد سبقهما إلى الإسلام أبناء عمومتهما حكام المغول في بلاد القفجاق الذين عرفوا باسم "مغول القبيلة الذهبية" نسبة إلى لون خيامهم التي وصفت بأنها كانت "ذهبية اللون".<sup>(٣)</sup>

وقد حدث في عام ١٢٥٤هـ/١٢٥٦م أن تولى عرش مملكة مغول القفجاق بركة خان بن جوجى بن جنكيزخان، الذى اعتنق الإسلام قبل توليه العرش بمدة، فيذكر القلقشندى أن بركة خان أسلم ببخارى على يد الشيخ شمس الدين الباخريزى أثناء عودته من قراقورم بعد حضوره احتفال تولية منجوخان (منكوخان) عرش الإمبراطورية المغولية فى عام ١٢٤٩هـ/١٢٥١م، ويقرر القلقشندى أنه أول من أسلم

(١) الذهبى: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج ١٤، ص ٧٢٩.

- السلطان محمود غازان : هو ابن أرغون خان بن أباخان بن هولاكوخان، ولد عام ٦٧٠هـ/١٢٧١م، نشأ نشأة جيدة في بيت جده أباخان، حيث علمه وتفقّه، وقام بتدريبه على الفروسية، تولى حكم دولة مغول فارس عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م، وقد سبق له اعتناق الإسلام قبل توليه الحكم بفترة قصيرة، فجعل الإسلام دين الدولة الرسمي، واستمر حكمه إلى حين وفاته فى عام ٧٠٣هـ/١٣٠٤م. انظر: فؤاد عبدالمعطي الصياد: السلطان محمود غازان خان المغول، ص ٣-٦١.

(٢) فؤاد عبدالمعطي الصياد: السلطان محمود غازان، ص ١٦؛ شبولر: العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة: خالد أسعد، دمشق، ١٩٨٢م، ص ٧٢.

(٣) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٧٦-١٨٦.

- بلاد القفجاق تمتد حدودها من نهر ايرتش شرقاً إلى أرض البلغار غرباً، ومن روسيا وبلاد الصقالبة فى الشمال إلى ممالك المغول فى إيران وآسيا الصغرى وبلاد ما وراء النهر وتركستان فى الجنوب. انظر: رجب محمد عبدالحليم: انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٢٥، ١٠٤.

من بني جنكيز خان. (١)

وعلى كل حال فإن الذي يهمننا في هذا المقام هو اهتمام المغول بالحرمين الشريفين، وبخاصة مكة المكرمة، ونقصد بذلك ما قام به إيلخانيو إيران من دس أنوفهم في شئون مكة المكرمة.

وقد أغضب تدخل المغول في شئون مكة المكرمة سلاطين المماليك الذين بسطوا نفوذهم على الحرمين الشريفين، وعملوا على تأكيد ولاء أشرف مكة والمدينة لهم.

والمعروف أنه كان هناك عداا شديد بين سلطنة المماليك ومغول فارس؛ فمنذ أن أسس هولاءكو الدولة الإيلخانية في إيران والعراق لم تهدأ المعارك والحروب حتى بعد إسلام بعض حكام دولة مغول فارس، (٢) وقد دخلت مكة المكرمة دائرة الصراع بين المماليك ومغول فارس، وكان لأشرفها دور كبير في الزج بها في هذا الصراع.

وخير مثال على الصراع بين المماليك ومغول فارس حول بسط نفوذهم على مكة المكرمة ما حدث في عام ٧١٥هـ/١٣١٥م، وما تلا ذلك من أحداث؛ ففي هذا العام هرب الشريف حميضة بن أبي نمي أمير مكة المكرمة أمام القوة العسكرية

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٤، ص٣٠٩.

- قراقورم: قرية تقع في هضبة منغوليا، نشأ بها جنكيز خان، ولذلك وبعد أن تولى حكم المغول اتخذها عاصمة له، واستمرت كذلك في عهد خلفائه، ويذكر أبو الفدا أن كلمة قراقورم باللغة التركية تعني الرجل الأسود، فلفظ قرا يعني أسود، ولفظ قورم بمعنى رجل. انظر: تقويم البلدان، ص٧٥؛ وانظر أيضاً: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٨٠.

(٢) من أمثلة ذلك بعد إسلام غازان خان المغول عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م شن عدة إغارات على بعض ممتلكات المماليك ببلاد الشام، وطوال حكم غازان الممتد لتسعة عشر عاماً (٦٩٤-٧٠٣هـ/١٢٩٤-١٣٠٤م) لم يهدأ القتال بين الجانبين. انظر: النويري: نهاية الأرب، ج٢٧، ص ص٤١١-٤١٣؛ البرزالي: المقتفى على كتاب الروضتين، ج٢، ق١، ص ص٢٣، ٢٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٩.

التي أرسلها السلطان الناصر محمد للقبض عليه، حيث لجأ إلى إيلخان مغول فارس خدابنده (خربندا)، واستغاث به،<sup>(١)</sup> وقد استجاب خدابنده لاستغاثة الشريف حميضة، وجهاز قوة عسكرية جعل على قيادتها القائد المغولي "الدرفندي" الذي كان يشغل وظيفة نائب حاكم البصرة في ذلك الوقت، كما أرسل إلى عرب البصرة ليساندوا هذه القوة، وزيادة من الإيلخان خدابنده في تعزيز هذه القوة، والعمل على إمدادها بما يلزمها من معدات أو قوات، فقد أعد خزانة مملوءة بالمال للإنفاق منها على ما يلزم لذلك، وليفرق منها على أهالي مكة المكرمة لكي يقفوا إلى جوار الشريف حميضة وإلى جانب القوات المغولية الموجودة بمكة المكرمة.<sup>(٢)</sup>

وإزاء هذا الوضع الجديد، وما حدث من تدخل مغول فارس في شئون مكة المكرمة، لم يستطع السلطان الناصر محمد أن يقف ساكناً؛ فقام بتجهيز نائب السلطنة المملوكية الأمير أرغون الدوادار بقوة عسكرية، وجعله أميراً على ركب الحج المصري لعام ٥٧١٦هـ/١٣١٧م، وأمره بمراقبة تحركات الفرقة المغولية الموجودة بمكة المكرمة، والتصدي لأية محاولة لإعادة الشريف حميضة إلى إمرة مكة المكرمة، وبالفعل توجه الأمير أرغون الدوادار على رأس قواته العسكرية إلى مكة المكرمة دون أن تحدث أي اشتباكات على غير ما كان يتوقعه الجميع.<sup>(٣)</sup>

أما سبب عدم حدوث الاشتباكات المتوقعة بين القوات المملوكية وبين القوات

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٤.

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٨٠.

(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٨٠.

- الأمير أرغون الدوادار: كان من ممالِك المنصور قلاوون، تربى مع ولده الناصر محمد، ولذلك كان ملازماً للناصر محمد، تولى نيابة السلطنة عام ٥٧١٢هـ/١٣١٢م، واهتم بالعلم وبخاصة دراسة المذهب الحنفي، وصفه ابن حجر بقوله: "كان خيراً، ساكناً قليل الغضب"، توفي في عام ٥٧٣١هـ/١٣٣١م أثناء نيابته على حلب. انظر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٧٤.

المغولية فهو تلك الوفاة المفاجئة للإيلخان خدابنده في ٢٧ رمضان من عام ٧١٦هـ/ ١٥ ديسمبر ١٣١٦م بعد خروج القائد "الدرفندی" على رأس القوة العسكرية المتوجهة إلى مكة المكرمة، فما أن علم أعضاء تلك الفرقة بوفاة خدابنده حتى تفرقوا، ولم يبق مع الدرْفندی سوى ثلاثمائة رجل من المغول، وأربعمائة رجل من عرب البصرة المصاحبين له.<sup>(١)</sup>

ولم يقف الأمر عند حد تمزق تلك القوة التي كانت مصاحبة للقائد المغولي "الدرْفندی"، وإنما تعدى هذا إلى خروج أحد القادة المتواجدين بالبصرة على الدرْفندی عقب خروجه منها تسانده جماعة كبيرة من عرب البصرة، وعندما دخل معهم الدرْفندی يسائده حُميضة في حرب، وقعت الهزيمة في جانب الدرْفندی وحُميضة، وفقد حُميضة ما معه من أموال وأمتعة، كما وقعت نساؤه في قبضة القوى المعادية لهم.<sup>(٢)</sup>

وعلى هذا النحو تم تدمير قوة المغول، وقوة الشريف حُميضة المصاحبة لهم، والتي كان من المقرر أن تتوجه إلى مكة المكرمة، مما أدى إلى عدم تمكنهم من تحقيق هدفهم المتمثل في إعادة الشريف حُميضة إلى إمارة مكة المكرمة، ودس أنفهم في شئون الحرمين الشريفين.

كذلك فإن من حلقات الصراع بين السلطنة المملوكية وبين المغول حول مكة

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٨٠.

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٨١؛ الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ٢٣٩.

- يشير الفاسي إلى أن سبب تعدى عرب البصرة على قوة الدرْفندی وقوة حُميضة المصاحبة له هو ما أشيع من أن الدرْفندی قد زود بأوامر من الإيلخان خدابنده الذي كان قد مال إلى المذهب الشيعي منذ عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، تفيد بنقل رفات كل من الخليفين أبي بكر وعمر بن الخطاب من جوار الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولذلك أبوا فعل ذلك، وقاموا بمهاجمتهم، والاستيلاء على ما كان معهم من معدات مثل الفئوس والجرافات التي أعدت لهذا الغرض. انظر: العقد الثمين، ج ٤، ص ٢٤٠.

المكرمة، ما حدث في رمضان من عام ٥٧١٧هـ/ نوفمبر ١٣١٧م عندما حضر الشريف حُميضة من العراق متوجها إلى مكة المكرمة مزودًا من قبَل مغول فارس بقوة عسكرية يقدرها المقریزی بنحو "الخمسين من المُغل"، فتصدى له أخوه رُميثة الذي كان يتولى إمارة مكة المكرمة في ذلك الوقت، ومنعه من دخولها، وطلب منه الاستئذان من السلطان الناصر محمد، ولم يكتف الشريف رُميثة بذلك، بل سارع بالكتابة للسلطان الناصر محمد يخبره بذلك.<sup>(١)</sup>

غير أن الشريف رُميثة لم يستطع الوقوف أمام قوة أخيه الشريف حُميضة الذي تسانده قوة المغول، فهرب من مكة المكرمة في نفس الشهر (شهر رمضان) تاركًا حكمها لكي يقع في يد أخيه الشريف حُميضة، وتوجه شاكيًا إلى الديار المصرية، في حين خطب باسم خان المغول بوسعيد بن خدابنده الذي خلف أباه في حكم دولة مغول فارس على كل منابر مكة المكرمة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما أخذ الشريف حُميضة في الاستيلاء على أموال تجار مكة ليتقوى بها.<sup>(٢)</sup>

وقد كان رد فعل السلطان الناصر محمد سريعًا، فأمر بإعداد قوة عسكرية قوامها ثلاثمائة فارس توجهت بصحبة ركب المحمل المصري إلى مكة المكرمة في نفس الشهر (شهر رمضان من عام ٥٧١٧هـ/ نوفمبر ١٣١٧م) جعل على رأسها كلا من الأميرين صارم الدين أذربك الجرمكي، وسيف الدين بهادر الإبراهيمي، وذلك بهدف القبض على الشريف حُميضة، وإسقاط الخطبة لإيلخان المغول من على منابر مكة المكرمة، وإعادة السلطان المملوكي، وفي نفس الوقت تأمين ركب الحج المصري.<sup>(٣)</sup> ويذكر المؤرخ الفاسي أن أوامر السلطان الناصر محمد كانت واضحة في "أن لا يعود إلا بحُميضة".<sup>(٤)</sup>

(١) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٧٥.

(٢) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٧٦.

(٣) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٧٦.

(٤) شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٤.

وبعد وصول هذه القوة إلى مكة المكرمة استطاعت أن تعيد الشريف رُمَيْثَة إلى إمرة مكة المكرمة، لكنها لم تنجح في القبض على الشريف حُمَيْضَة،<sup>(١)</sup> ويعود السبب في هذا الفشل إلى ذلك الخلاف الذي حدث بين الأمير صارم الدين أزيك، والأمير بهادر الإبراهيمي، حيث وقف الأخير إلى جانب الشريف حُمَيْضَة، وعارض الأمير أزيك في القبض عليه، وساعده في الهروب خارج مكة المكرمة.<sup>(٢)</sup>

وعلى هذا النحو استطاع الشريف حُمَيْضَة الهروب من رجال الناصر محمد، واتجه على الفور إلى دولة مغول فارس، حيث دخل في حماية الإيلخان بوسعيد بن خدابنده، واستمر بالعراق حتى انقضاء موسم حج عام ١٣١٨هـ/١٧١٧م، ومع بداية عام ١٣١٨هـ/١٧١٨م حضر الشريف حُمَيْضَة من العراق إلى مكة المكرمة، حيث ساندته بعض أشرافها في الحصول على اتفاق مع أخيه الشريف رُمَيْثَة، وبمقتضى هذا الاتفاق تنازل الشريف رُمَيْثَة عن إمرة مكة المكرمة لأخيه حُمَيْضَة، وذلك دون علم السلطان الناصر محمد مما أغضبه غضبا شديدا.<sup>(٣)</sup>

ومما زاد من غضب السلطان الناصر محمد قيام الشريف حُمَيْضَة بقطع الخطبة له، وإقامتها لإيلخان مغول فارس،<sup>(٤)</sup> لذلك أرسل السلطان الناصر محمد في شهر صفر من عام ١٣١٨هـ/أبريل ١٣١٨م قوة عسكرية على رأسها الأمير بدر الدين محمد بن عيسى التركمانى للقبض على كل من الشريفين حُمَيْضَة ورُمَيْثَة على اعتبار أنهما خارجان عن طاعة السلطان.<sup>(٥)</sup>

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٤.

(٢) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٨٠.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٤.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٤.

(٥) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٨٥.

- بدر الدين محمد بن عيسى التركمانى ترقى في مختلف الوظائف، وولى شد الدواوين بمصر وطرابلس، قال عنه ابن حجر "توفرت حرمة، وعظمت مكانته"، ثم استقر بطرابلس حيث تولى شد الدواوين بها. الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٢٤٩.



ولم يكتف السلطان الناصر محمد بذلك وإنما أقام على ركب الحج المصرى الذى توجه إلى مكة المكرمة فى شهر شعبان من عام ٧١٨هـ/ أكتوبر ١٣١٨م الأمير علاء الدين مغلطاي، وأمره أيضا بالقبض على كل من الشريفين حُميضة ورُميثة. (١)

وقد استطاع الأمير علاء الدين مغلطاي بالتعاون مع الأمير بدر الدين محمد بن عيسى التركمانى إلقاء القبض على الشريف رميثة، بينما استطاع الشريف حُميضة الهروب والتخفى من القوات المملوكية. (٢)

وعلى هذا النحو خَلَّت مكة المكرمة من أحد الأمراء الأشراف القائمين على حكمها، ولذلك أمر السلطان الناصر بأن يتولى الأمير بدر الدين محمد بن عيسى التركمانى أمورها إلى حين إقرار أحد الأشراف أميراً عليها، وبالفعل صدرت الأوامر بعد ذلك بأن يتولى إمرة مكة المكرمة الأمير الشريف عطيفة بن أبى نُمى محمد، وهو الأخ الثالث لكل من الشريفين حُميضة ورُميثة. (٣)

ومن الجدير بالذكر أن إيلخان مغول فارس بوسعيد بن خدابنده أرسل بصحبة

(١) المقرئزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ١٨٥.

- علاء الدين مغلطاي: هو مغلطاي الجمالى، من ممالِك الناصر محمد، ترقى فى مختلف الوظائف، مثل الإستدارية والوزارة، توفى وهو عائد من الحج عام ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م. انظر ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٥، ص ١٢٤. وذكر ابن تغرى بردى أنه توفى عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م، انظر: النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٩١.

(٢) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج ٤، ص ٨٤؛ المقرئزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٨٥.

(٣) المقرئزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٨٥.

- عطيفة بن أبى نُمى محمد بن أبى سعد حسن بن على بن قتادة الحسنى، تولى إمرة مكة المكرمة أكثر من مرة؛ كانت المرة الأولى عقب وفاة والده عام ٧٠١هـ/ ١٣٠٢م، ثم عُزل عنها، ثم تولاها بعد ذلك عام ٧١٩هـ/ ١٣١٩م بعد القبض على أخيه رُميثة ثم نازعه فيها رُميثة، وتناوب معه إمرتها، حتى عُزل عنها نهائياً عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م، وتم احتجازه فى مصر حتى وفاته فى عام ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م. انظر الفاسى: العقد الثمين، ج ٦، ص ص ٩٥-١٠١.

الحج العراقي (حج عام ٥٧١٨هـ/١٣١٩م) مَحْمَلًا به كسوة للكعبة الشريفة. (١) ويبدو أن الإيلخان بوسعيد لم يكن يعلم بما حدث من تطورات بمكة المكرمة، وبخاصة القبض على الشريف رُمِيَّة، وهروب حليفه حُمِيضة، وتغيُّر الوضع بمكة المكرمة، ولذلك فبعد وصول هذا المَحْمَل إلى مكة المكرمة لم يتمكن القائمون عليه من تعليق الكسوة على الكعبة الشريفة، كما أن معظم محتويات هذا المحمل قامت جماعة العربان بنهبها، ولم يسلم حجاج العراق أيضا من التعرض للنهب مما أنزل بهم أضرارًا بالغة دفعت الإيلخان بوسعيد إلى تعويضهم بضعف ما فقده من أموال بعد عودتهم إلى بلادهم. (٢)

وعلى هذا النحو استطاع السلطان الناصر محمد تأكيد نفوذه على مكة المكرمة، ولم يسمح لمغول فارس بمد نفوذهم إليها، كما عمل على قطع أى أمل لهم فى أن يكون لهم نصير داخلها، إذ أخذ الأمير بدر الدين محمد بن عيسى التركمانى بالتضييق على الشريف حُمِيضة، وتتبع خطواته، الأمر الذى دفع الأخير إلى الهروب إلى اليمن في شهر رجب من عام ٥٧١٩هـ/ ٦ أغسطس عام ١٣١٩م حيث لجأ إلى حاكمها الملك المؤيد هزير الدين داود بن يوسف (٦٩٦ - ٥٧٢١هـ/ ١٢٩٧ - ١٣٢١م) وخصوصا بعد أن انفض عنه معظم مؤيديه داخل مكة المكرمة. (٣)

وفى نفس الوقت قام الأمير بدر الدين محمد بن عيسى التركمانى بمنع العبيد بمكة المكرمة من حمل السلاح، حتى لا يثيروا الفتن والقلقل بها، كما أخرج كل مفسد منها، وأمر بإقامة العدل بين ربوعها مما أدى إلى استقرار الأمور وهدوء الأوضاع بها. (٤)

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ١٩٠.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ١٩٠، وانظر أيضا: فؤاد عبدالمعطى الصياد: الشرق الإسلامى، ص ٤٣٠.

(٣) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ١٩٤.

(٤) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ١٩٠.

وزيادة في استقرار الأمور بمكة المكرمة فقد تم إقصاء الشريف رُمَيْثَة عنها، حيث حمله معه الأمير علاء الدين مغلطاي أثناء عودته إلى الديار المصرية في مطلع عام ٥٧١٩هـ/١٣١٩م، ليودع في سجن القلعة. (١)

غير أن الشريف رُمَيْثَة استطاع الهرب من سجن القلعة في يوم الاثنين ١٤ ربيع الآخر من عام ٥٧١٩هـ/ ٥ مايو ١٣١٩م، فما كان من السلطان الناصر محمد إلا أن أسرع وأرسل خلفه الأميرين قطلو بغا المغربي، وأقبغا الجاشنكير، وذلك على الهجن السلطانية المشهورة بسرعتها الفائقة، حيث استطاعا إلقاء القبض عليه بعد هروبه بثلاثة أيام فقط في ليلة الخميس ١٧ ربيع الآخر (٨ مايو) وهو في طريقه إلى مكة المكرمة في "منزلة حقل"، فأعيد إلى قلعة الجبل، وفي هذه المرة ألقى في "جُب القلعة" سجيناً. (٢)

وعلى الرغم من تلك الجهود التي بذلها السلطان الناصر محمد من أجل توطيد نفوذه بمكة المكرمة، إلا أن القلق استمر مسيطراً عليه، خصوصاً من جانب الشريف حُمَيْضَة المقيم باليمن، مستتصراً بحاكمها الذي لم يدخر وسعاً في محاولة منه لمد نفوذه إلى شئون مكة المكرمة، ولم يستبعد السلطان الناصر محمد أن يؤازر الملك المؤيد هزير الدين حاكم اليمن الشريف حُمَيْضَة، ويرسل معه قوة عسكرية

(١) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٩٠.

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٨٥؛ المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ١٩٤.

- منزلة حقل: قرية بجوار آيلة تقع على البحر الأحمر في الطريق إلى بلاد الحجاز. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧٨.

- جُب القلعة: يقول المقریزی: "كان بالقلعة جُب يحبس فيه الأمراء، وكان مهولاً مظلماً كثير الوطاويط، كربه الرائحة، يقاسى المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد منه، أنشأه السلطان المنصور قلاوون عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م، واستمر هذا الجب حتى تم ردمه في زمن الناصر محمد عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م. انظر: المواعظ والأخبار بذكر الخطط والآثار، ج ٢، ص ٢١٢.

من أجل استعادة إمرة مكة المكرمة، ولذلك فضل الذهاب بنفسه إلى مكة المكرمة في العام التالي (١٣١٩هـ/١٣٢٠م) وذلك أولاً: لأداء فريضة الحج للمرة الثانية،<sup>(١)</sup> وثانياً: ليقف بنفسه على أحوالها، ويعمل على جذب سائر أهلها وأشرفها إليه، وليسد الباب أمام أية محاولة لتهديد النفوذ المملوكي بها.

بالفعل أصدر السلطان الناصر محمد أوامره لمختلف أمراء دولته بتجهيز مختلف الحوائج والمؤن لتصاحب رحلته إلى مكة المكرمة، ويشير المقرئ إلى أن القاضي كريم الدين عبدالكريم ناظر الخاص شرع في تجهيز ما يحتاج إليه السلطان الناصر محمد "فعمل عدة قدور من فضة ونحاس تحمل على البخاتي لطبخ فيها، وأحضر الخولة لعمل مباقل وخضراوات ورياحين ومشمومات في أحواض خشب لتحمل على الجمال، ويسقى طول الطريق، ويؤخذ منها كل يوم ما يحتاج إليه، ورتب الأفران وقلقي الجبن وصناع الكماج (الخبز شديد البياض أو السميد) وغير ذلك مما يحتاج إليه... وجهاز مركبين في البحر إلى اليمن، ومركبين إلى جدة.."، وهذا بخلاف ما تم تجهيزه من بلاد الشام.<sup>(٢)</sup>

وبعد أن تمت الاستعدادات خرج السلطان الناصر محمد متوجهاً إلى مكة المكرمة في بداية شهر ذي القعدة من عام ٧١٩هـ/مارس ١٣١٢، وفي صحبته

(١) المقرئ: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، ص ١٠٠.

(٢) المقرئ: الذهب المسبوك، ص ١٠١، ١٠٢.

- القاضي كريم الدين عبدالكريم: هو عبدالكريم بن هبة الله بن السيد المصري، أسلم كهلاً في زمن السلطان بيبرس الجاشنكير، ثم خدم الناصر محمد، وتولى الإشراف على خزائنه، وقرره في وظيفة ناظر الخاص، ثم غضب عليه في أواخر أيامه في عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م، وانتهى أمره بالقتل في ربيع الأول من عام ٧٢٤هـ/١٣٣٣م. انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ١٥-١٨.

- ناظر الخاص: وظيفة أحدثها السلطان الناصر محمد بعد إلغاء منصب الوزارة، ويتولى القائم عليها الإشراف على مال السلطان. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٣١٦-٣١٩.

مجموعة من الأمراء الكبار والأعيان والقضاة، ومثل الأمير الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل حاكم حماة، وقاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة.<sup>(١)</sup>

وتُجمع المصادر التاريخية على أن السلطان الناصر محمد أظهر الكثير من التواضع، والتبسط مع مختلف طبقات الحجاج، وأهالى مكة المكرمة كما "أنه فرق فى أهالى مكة ما لا عظيمًا، وأفاض التشاريف على أمراء مكة وأرباب وظائفها، وأمير ينبع، وأمير خُليص، كما أنه جمع حوله فى هذه الحجة معظم بطون العربان، فاجتمع عند السلطان من العربان ما لم يجتمع لملك قبله."<sup>(٢)</sup>

ومن الجدير بالذكر أن السلطان الناصر محمد لم يمنع مسلمى دولة مغول فارس من أداء فريضة الحج، على الرغم من وجود الخلافات والعداء مع حاكمهم، بل على العكس عندما علم بوجودهم بمكة المكرمة، وشعر بأنهم خائفون، "أحضرهم، وأنعم عليهم إنعامًا زائدًا"، وفى هذا تأكيد من السلطان الناصر محمد على أن الحج إلى البيت الحرام هو حق لكل مسلم ما دام لا يشكل خطرا على سائر المسلمين،<sup>(٣)</sup> وهو ما أشار إليه بعد ذلك السلطان الناصر حسن فى رسالة إلى حاكم

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج٤، ص٨٥؛ المقرئى: الذهب المسبوك، ص١٠٢؛ وانظر أيضًا: أمال حامد زيان: الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا حاكم مملكة حماة ودوره فى الحضارة الإنسانية، مقال منشور بمجلة المؤرخ العربى، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، العدد ٢٢، أكتوبر ٢٠١٤م، ص١٢٣-١٥٦.

- الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل هو ابن الملك الأفضل على بن الملك المظفر محمود ينتهى نسبه إلى البيت الأيوبي، تولى حكم حماة عام ٥٧٠٩هـ / ١٣١٠م، واستمر يحكمها حتى وفاته فى عام ٥٧٣٢هـ / ١٣٣٢م، وقد برع فى الأدب، وله عدة كتب فى التاريخ والجغرافيا. انظر: أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج٤، ص٧٥؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٢، ٢٩٣.

(٢) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج٤، ص٨٦؛ النويرى: نهاية الأرب، ج٣٢، ص٣٠١-٣٠٢؛ المقرئى: الذهب المسبوك، ص١٠٢، ١٠٣.

(٣) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص١٩٧.

اليمن بأنه على الحاج أن يأتي إلى مكة المكرمة مسالماً، غير حامل لسلاح، ولا يضر شراً لأحد. (١)

وعلى هذا النحو فقد اطمأن السلطان الناصر محمد على استقرار الأمور بمكة المكرمة، واستتباب الأمن بها، وإقامة الدعوة على منابرها باسمه، ومن بعده لأمير مكة الشريف عطيفة بن أبي نَمى، ولم ينازعه في ذلك أحد، سواء كان إيلخان فارس أو حاكم اليمن، ولذلك فبعد انتهائه من أداء مناسك الحج غادر بلاد الحجاز عائداً إلى الديار المصرية، حيث وصل إلى بركة الحجاج في ١٢ المحرم من عام ٥٧٢٠هـ / ٢٤ فبراير ١٣٢٠م. (٢)

وزاد من استقرار الأحوال بمكة المكرمة ما حدث في عام ٥٧٢٠هـ / ١٣٢٠م من مقتل الشريف حُميضة بعد أن أثار الفزع والقلق في مكة المكرمة لعدة أعوام (٣) لدرجة أن مقتله جاء إنقاذاً لأهل مكة مما أثاره من شرور، وعلى حد قول أبو الفدا أنه بمقتله "كفى الله شر حُميضة". (٤)

أما عن نتائج تلك الجهود التي بذلها السلطان الناصر محمد في العمل على استقرار الأمور بمكة المكرمة، ثم ما حدث من مقتل الشريف حُميضة، وأثر كل ذلك على علاقة مغول فارس بمكة المكرمة، فإنه ما أن علم بذلك إيلخان فارس بوسعيد بن خدابنده إلا وأدرك استحالة تحقيق هدفه في بسط نفوذه على مكة المكرمة، وإقامة الخطبة له بها عن طريق القوة، لذلك لجأ إلى اتباع الأسلوب

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٢٦.

(٢) المقرئى: الذهب المسبوك، ص ١٠٦.

- بركة الحجاج: تقع هذه البركة في الجهة البحرية من القاهرة، عُرِفَت بهذا الاسم نسبة

لنزول حجاج البر بها. انظر: المقرئى: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٦١.

(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٨٩؛ البرزالي: المقتفى، ج ٤، ص ٤٣١.

- وعن ظروف مقتل الشريف حُميضة راجع ما سبق ذكره في الفصل الرابع من الباب الأول.

(٤) المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٨٩.

الدبلوماسية، ومحاولة عقد الصلح مع السلطان المملوكي.

وبالفعل ففي الحادى والعشرين من شهر ذى الحجة عام ٥٧٢٠هـ / ٢٣ يناير ١٣٢١م أرسل الإيلخان بوسعيد رسوله المجد السلامى مبعوثا للسلطان الناصر محمد لطلب عقد الصلح بين الدولتين.<sup>(١)</sup>

وقد كانت سفارة المجد السلامى بمثابة سفارة استكشافية يستطلع بها نوايا القائمين على أمر دولة المماليك، فإذا تبين لهم صدق المماليك فى عقد الصلح، فسوف تصل سفارة أخرى محملة بالكثير من الهدايا ومعها شروط الصلح<sup>(٢)</sup> وليس معنى هذا أن المجد السلامى لم يحضر معه هدايا للسلطان الناصر محمد، إذ يشير المؤرخ البرزالى - وهو مؤرخ دمشقى معاصر لهذه الأحداث - (توفى فى عام ٥٧٣٩هـ) أنه أحضر معه "هدية جلييلة فيها خركاة مجوهرة، وأشياء من آلات الجند، وخيمة سقلاط، ومماليك ترك، وجوارى، وجمال بخاتى، وقماش نفيس، وخوذة مكتوب عليها أكثر الختمة الشريفة".<sup>(٣)</sup>

وعلى كل حال فبعد أن تأكد المجد السلامى من ترحيب حكام مصر بعقد الصلح مع دولة مغول فارس أرسل لإحضار رُسل الإيلخان بوسعيد محملين

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٢٠٩.

- المجد السلامى: هو مجد الدين إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلامى، وكان يعمل تاجرًا من تجار المدينة السلطانية، انظر البرزالى: المقتفى، ج ٤، ص ٤٦١.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٢٠٩.

(٣) المقتفى على كتاب الروضتين، ج ٤، ص ٤٦١.

- خركاة: يقول القلقشندى إنها بيت من خشب مغطى بالجوخ، وتحمل فى السفر. صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٨.

- خيمة سقلاط: خيمة مصنوعة من قماش السقلاط؛ وهو نوع من القماش المصنوع من الحرير الفاخر الملون. البقلى: مصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٨١.

- جمال بخاتى: هى الجمال الخرسانية، وتشتهر بالفخامة، ذات سنامين، ووبر أسود. المعجم الوسيط، ج ١، ص ٤٢.

بالهدايا، عارضين شروط الصلح وأهمها السماح بحرية التجارة بين البلدين، وأن يأتي ركب الحج العراقي المتوجه إلى بلاد الحجاز حاملا سنجقا باسم حاكم مصر، وآخر باسم أبي سعيد، وقد وافقت السلطات المملوكية على هذه الشروط، وتم إقرار الصلح بين الدولتين، وتبادل الهدايا بين الجانبين عنوانا لهذا الصلح.<sup>(١)</sup>

وقد عاد هذا الصلح بنتائج طيبة على مكة المكرمة، إذ انتهى الصراع بين مغول فارس والمالِك حول بسط نفوذهم عليها، ونتج عن ذلك استقرار الأوضاع الاقتصادية بها، وأمن الناس والحجاج لدرجة أن المؤرخ البرزالي علق على حج عام ١٣٢٠هـ/١٣٢٠م؛ وهو موسم الحج الذي أعقب إبرام هذا الصلح بقوله: "وكان الحج في هذه السنة طيبا، اجتمع فيه خلق عظيم، ووقف الناس بعرفة يوم الجمعة بلا خوف"، كما ذكر إمام المقام الشريف في ذلك الوقت الشيخ رضى الدين إبراهيم بن الطبرى "من عمرى أحج، ولم أر مثل هذه الوقفة"<sup>(٢)</sup> كذلك عاد الأمن لطريق الحج العراقي، وقد أكد على ذلك المؤرخ الجزيري عندما أشار إلى أنه بعقد الصلح بين السلطان الناصر محمد وإيلخان مغول فارس خدابنده، أرسل السلطان الناصر محمد إلى القبائل العربية المشرفة على هذا الطريق، بفتحه والعمل على تسهيل

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٢٠٩، ٢١٠.

- سنجق: عبارة عن راية من حرير أصفر مطرز بالذهب، عليها ألقاب السلطان واسمه. راجع: القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص ٨.

(٢) البرزالي: المقتفى على كتاب الروضتين، ج٤، ص ٤٦٣.

- الشيخ رضى الدين إبراهيم بن الطبرى؛ هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن محمد بن إبراهيم، ولد عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م بمكة المكرمة، حيث نال تعليمه، ونبغ نبوغا كبيرا، ومدحه معاصروه، وله العديد من المؤلفات، توفى في عام ٧٢٢هـ/١٣٢٢م بمكة المكرمة وله من العمر ٨٦ عاما. انظر الفاسى: العقد الثمين، ج٣، ص ٢٤٠-٢٤٥؛ ابن حجر: الدرر، ج١، ص ٥٦؛ النجم عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج٣، ص ١٧٦.



السبل للحج العراقي<sup>(١)</sup>.

ومن مظاهر ذلك الوفاق الذي حدث بين مغول فارس والممالك نتيجة ذلك الصلح، عدم حدوث تنافس بين الدولتين أثناء موسم الحج، فعلى سبيل المثال عندما وصل ركب الحج العراقي في موسم عام ٥٧٢١هـ / ١٣٢١م أعلن قائد المحمل أن ذلك المحمل وما يشمله من أموال وذهب ومجوهرات هو في سبيل الله، وهو باسم السلطان الناصر محمد، والسلطان بوسعيد بن خدابنده<sup>(٢)</sup> وقد تقدمته أعلام - سناجق - السلطان الناصر محمد، والإيلخان بوسعيد بن خدابنده<sup>(٣)</sup> وذلك وفق الصلح المبرم السابق ذكره<sup>(٤)</sup>.

ومن الجدير بالذكر، أنه قد واكب عقد الصلح بين دولة مغول فارس ودولة الممالك هدوء الأوضاع أيضا بين الممالك وحكام اليمن، إذ يشير البرزالي إلى أنه حضر في موسم حج عام ٥٧٢٠هـ ركب حجاج اليمن دون أن يحدث نزاع بينهم وبين أمراء الممالك بمكة المكرمة، وحضر معهم عدد كبير من أهالي اليمن، وكذلك تجار الكارم، ويعزو المؤرخ البرزالي ما حدث من هدوء الأوضاع بمكة المكرمة، وعدم وجود صراعات بين مختلف القوى فيها في ذلك الوقت إلى حسن سياسة الشريف عطيفة بن أبي نمي الذي أحبه أهل مكة لما اتصف به من العدل<sup>(٥)</sup> لدرجة

(١) الدرر الفرائد المنظمة، ج ٢، ص ٨٠.

(٢) البرزالي: المقتفى، ج ٤، ص ٤٦٤.

(٣) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٢١١.

(٤) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٢١٠.

(٥) المقتفى على كتاب الروضتين، ج ٤، ص ٢٦٣.

- تجارة الكارم: تنسب تجارة الكارم إلى الكارمية؛ وهم فئة من كبار التجار قاموا باحتكار تجارة توابل الهند والشرق الأقصى، وكانت اليمن إحدى مراكز نشاطهم، وعن أصل هذه الكلمة راجع: عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، القاهرة، ١٩٧٦، ص ص ٩١-١٠٤؛ الشاطر بصيلي: الكارمية، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ١٣، عام ١٩٦٧م، ص ص ٢١٧-٢٢٧.

أنهم لم يأبهوا، ولم يعيروا اهتمامًا لأخبار الشريف رُميثة عندما أفرج عنه السلطان الناصر محمد، وأرسله لأداء فريضة الحج لعام ٧٢٠هـ بصحبة الأمير أرغون نائب السلطنة.<sup>(١)</sup>

وعلى هذا النحو ساد الوئام في مكة المكرمة بين القوى الثلاث؛ قوة المماليك، وقوة مغول فارس، وقوة حكام اليمن، ولم يحدث بينهم صراع وتنافس مثلما كان يحدث في الماضي، ومن أروع ما ذكره المقرئ في حج عام ٧٢٠هـ/١٣٢١م، وقوف محمل العراق خلف محمل مصر ومن خلفه محمل اليمن، وجميع هذه المحامل احتوت على الكثير من الخيرات والأموال<sup>(٢)</sup> مما عاد على مكة المكرمة بالخير العميم.

كذلك خطب على منابر مكة المكرمة أولاً للسلطان الناصر محمد سلطان دولة المماليك، وثانياً للإيلخان بوسعيد بن خدابنده إيلخان مغول فارس، وثالثاً للسلطان الملك المجاهد حاكم اليمن، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ما حدث من وئام بين القوى الثلاث التي تنافست في السابق على الانفراد ببسط نفوذها على مكة المكرمة.

كما أنه بعد انتهاء موسم الحج (عام ٧٢٠هـ/١٣٢١م) خلع الأمير أرغون نائب سلطنة المماليك، وأمير ركب الحج المصري، على الأمراء المغول المصاحبين لركب الحج العراقي الخلع والهدايا.<sup>(٣)</sup>

وقد استمر هذا الوئام والوفاق بين هذه القوى لفترة من الزمن، فعندما حج الرحالة ابن بطوطة عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م روى أنه شاهد وسمع خطيب الحرم المكي يخطب باسم الإيلخان بوسعيد بن خدابنده بعد السلطان الناصر محمد، ثم من بعدهما

(١) البرزالي: المقتفى على كتاب الروضتين، ج ٤، ص ٤٦٣.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٢١٤.

(٣) المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٢١٥.

لحاكم اليمن السلطان الملك المجاهد. (١)

ومما يجدر ذكره أن الإيلخان بوسعيد اهتم اهتماما كبيرا بأمر المحمل العراقي المتوجه إلى مكة المكرمة إذ رصعه باللؤلؤ، والياقوت، وأنواع الجواهر، وذلك لكي يكسب قلوب أشرف مكة وأهلها، ويجعلهم يرحبون به دائما، ويعملون على استمرار الدعاء له، ويبدو أن الرحالة ابن بطوطة قد لمس ذلك أثناء مجاورته بمكة المكرمة عام ٧٢٩هـ وأشار إلى ذلك بقوله: "وفي هذه السنة وصل أحمد بن الأمير رُمَيْثَة ومبارك ابن الأمير عَطِيفَة من العراق بصحبة الأمير محمد الحُوَيْح، والشيخ زاده الحرباوي والشيخ دانيال، وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق". (٢)

وعلى هذا النحو دام الوثام والوفاق بين دولة المماليك ودولة مغول فارس طيلة عهد السلطان الناصر محمد، والإيلخان بوسعيد، ولم يؤثر في تلك العلاقات الودية بعض المنغصات الصغيرة، ثم ساعد على عدم إثارة العداء بين الدولتين بعد ذلك ما حدث من تدهور دولة مغول فارس بعد انتهاء حكم بوسعيد بن خدابنده عام ٧٣٦هـ/١٣٣٥م، حيث أخذت في التفكك والانحيار إلى أن سقطت نهائيا بعد ذلك بعشرين عامًا في عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥م. (٣)

(١) تحفة النظر في غرائب الأمصار، ص ٢٤١.

(٢) تحفة النظر، ص ٢٤١.

(٣) فؤاد عبدالمعطي الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص ٤٦١، ٤٨٥.



# الباب الثاني

مكة المكرمة

و

الماليك الجراكسة

(٧٨٤-٥٩٢٣ / ١٣٨٢-١٥١٧ م)



# الفصل الأول

ازدياد نفوذ الممالك الجراكسة بمكة المكرمة





تزامنت بداية حكم دولة المماليك الجراكسة للديار المصرية والشامية<sup>(١)</sup> مع إمرة الشريف أبوسليمان أحمد بن عجلان لمكة المكرمة<sup>(٢)</sup>، ومن أهم ما يلاحظ في تلك الفترة هو استمرار وبقاء النفوذ المملوكي في مكة المكرمة، حيث تابع أمراء مكة المكرمة إرسال ما تقرر عليهم من هدايا للمماليك الجراكسة وبخاصة الجمال والخيول العربية، واستمرار إقامة الخطبة على منابر المسجد الحرام باسم سلاطين المماليك الجراكسة وذلك عنوانا لبسط نفوذهم على مكة المكرمة<sup>(٣)</sup>.

وقد سار المماليك الجراكسة على نفس سياسة أسلافهم التركية- البحرية- في الاهتمام بأمر مكة المكرمة، وتزويدها بما يلزمها، وما يحتاجه أهلها والحجاج والزائرون، ففي مطلع حكم السلطان الجركسي برقوق<sup>(٤)</sup>، وبالتحديد في عام

(١) يعتبر السلطان الظاهر برقوق بن أنص هو أول سلاطين المماليك الجراكسة، فهو جركسي الأصل، استطاع أن يحول الحكم في مصر والشام من يد المماليك الترك (البحرية) إلى يد المماليك الجراكسة (البرجية) في عام ٥٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، واستمرت دولتهم إلى نهاية دولة المماليك على يد العثمانيين عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م. انظر السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٧٩٩، حامد زيان: المماليك، التاريخ السياسي، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٢) الشريف أبوسليمان أحمد بن عجلان بن رُمَيْثَة بن أبي نَمَى محمد، تولى إمرة مكة المكرمة شريكا لوالده عام ٥٧٦٢هـ / ١٣٦١م، ثم انفرد بإمرتها عام ٥٧٤٤هـ / ١٣٧٢م، ثم أشرك معه في إمرتها ابنه محمد عام ٥٧٨٠هـ / ١٣٧٨م، واستمر يحكمها شريكا لابنه محمد حتى وفاته في عام ٥٧٨٨هـ / ١٣٨٦م. انظر: الفاسي: العقد الثمين، ج ٣، ص ٨٧-٩٦.

(٣) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ٥٣٦.

(٤) هو برقوق بن أنص بن عبدالله من قبيلة كسا الجركسية، ولد حوالي عام ٥٧٤١هـ / ١٣٤٠م، بيع وعمره عشرون عاما، اشتراه تاجر الرقيق المشهور عثمان بن مسافر، وباعه للأمير يلغا الكبير، وكان اسمه حينئذ الطنبا فسماه يلغا برقوقا لنتوء عينيه، ثم أخذ ينتقل في المناصب بعد ذلك حتى وصل إلى منصب السلطنة في عام ٥٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، وتلقب بالظاهر، واستمر في الحكم حتى وفاته في عام ٥٨٠١هـ / ١٣٩٩م، باستثناء الفترة الواقعة بين جمادى الآخرة عام ٥٧٩١هـ / يونية ١٣٩٨م، وبين شهر صفر ٥٧٩٢هـ / فبراير ١٣٩٠م، وهي الفترة التي عزل فيها عن السلطنة. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ١٠-١٢.

١٣٨٥/هـ٧٨٧م حمل الأمير جركس الخليلي قمحا كثيرا إلى مكة المكرمة يكفي لأن يصنع منه في كل يوم خمسمائة رغيف، توزع على كل الموجودين بمكة المكرمة دون تفرقة، وعلى حد قول المقریزی "يأخذ من حضر، ولا يراعى أحد في التفرقة"<sup>(١)</sup>.

ومن الملاحظ أن النفوذ المملوكي كان قويا في مكة المكرمة في تلك الفترة، فلم يكن مجرد تولية أمير أو عزل آخر، وإنما تدخل سلاطين الممالك الجراكسة في تولية كل القائمين على أمر مكة المكرمة، وبخاصة القضاة، فإذا أراد شريف مكة عزل أحد القضاة وتولية قاض آخر كان عليه أن يأخذ رأى السلطان المملوكي، ويتم إصدار أمر بذلك من السلطان، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تدخل سلاطين الممالك الجراكسة في مختلف شئون مكة المكرمة، وإحكام سيطرتهم عليها.

ومن أمثلة ذلك ما حدث في عام ١٣٨٦/هـ٧٨٨م عندما أراد الشريف أحمد بن عجلان عزل القاضى شهاب الدين أحمد بن ظهيرة عن قضاء مكة المكرمة، فاستصدر أمرا من السلطان المملوكي الظاهر برقوق بعزله، وفي نفس الوقت أصدر السلطان المملوكي أمرا بنقل القاضى محب الدين أحمد بن محمد النويرى من قضاء المدينة المنورة وخطابتها إلى قضاء وخطابة مكة المكرمة<sup>(٢)</sup>.

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص٥٣٦.

- الأمير جركس الخليلي تركمانى الأصل، من ممالك يلبغا، ثم تقدم عند الظاهر برقوق، تولى عدة وظائف أهمها أمير آخور للسلطان الظاهر برقوق، وأهم منشأته بمصر الخان الذى عرف باسم "خان الخليلي"، توفى في عام ١٣٨٩/هـ٧٩١م. انظر: المقریزی: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٩٣؛ ابن حجر العسقلانى: أنباء الغمر بأبناء العمر، ج٢، ص ص٣٦٦، ٣٦٧.

(٢) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص٥٤٥.

- القاضى شهاب الدين أحمد بن ظهيرة هو ابن أحمد بن عطية بن ظهيرة، أبو العباس ==

ومما يؤكد سيطرة المماليك الجراكسة على كافة الشئون الداخلية بمكة المكرمة، ما اتبعه السلطان الظاهر برقوق من القبض بيد من حديد على مختلف شئونها، وإتباع سياسة الشدة مع أشرفها، بحيث لا تتاح أمامهم فرصة القيام بأعمال من شأنها إثارة الفتنة والفوضى بمكة المكرمة، ومن ذلك ما حدث في عام ١٣٨٦/٥٧٨٨م عندما أقدم الشريف كُبَيْش بن عجلان بن رُمَيْثَة، على سمل عيون جماعة من أشرف وعرب مكة المكرمة<sup>(١)</sup>، مما أثار غضب السلطان الظاهر برقوق على كل من الشريف كُبَيْش وابن أخيه محمد بن أحمد بن عجلان، على الرغم من أنه لم تمض على إمرة محمد بن أحمد بن عجلان سوى أيام قليلة، ولم يكن السلطان راضيا كل الرضا عنه وعن آل عجلان<sup>(٢)</sup>، بسبب إصرار والده أحمد

=المكي المخزومي الشافعي، ولد في عام ١٣١٨/٥٧١٨م بمكة المكرمة، ونشأ، وتعلم بها، تولى العديد من الوظائف في الحرم المكي، ثم تولى القضاء والخطابة بها إلى أن عُرِل عنها في عام ١٣٨٦/٥٧٨٨م، ثم توفي في عام ١٣٩٠/٥٧٩٢م بمكة المكرمة. انظر: ابن تغري بردى: المنهل الصافي، ج ١، ص ٣٢٥-٣٢٧.

- القاضي محب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن عبدالعزيز بن القاسم بن عبدالرحمن النويري المكي، ولد بمكة المكرمة في عام ١٣٥١/٥٧٥٢م، وتلقى تعليمه بها، ثم تولى الخطابة بها أيضا، واستمر على ذلك حتى وفاته في عام ١٣٩٧/٥٧٩٩م. انظر الفاسي: العقد الثمين، ج ٣، ص ١٢٣-١٢٦؛ ابن تغري بردى: المنهل الصافي، ج ٢، ص ٨٥-٨٦.

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ٧، ص ٨٥.

- الشريف كُبَيْش بن عجلان بن رُمَيْثَة بن أبي نُمى الحسيني، تولى تدبير أمور مكة المكرمة في زمن إمرة أبيه وأخيه أحمد، وابن أخيه محمد، توفي في عام ١٣٨٧/٥٧٨٩م. انظر: الفاسي: العقد الثمين، ج ٧، ص ٨٥-٨٩.

(٢) توفي الشريف أحمد بن عجلان في ٢١ شعبان من عام ١٣٨٨/٥٧٨٨م، فأصدر السلطان الظاهر برقوق تقليدا بإمرة ابنه محمد على مكة المكرمة، وكان عمر الشريف محمد بن أحمد بن عجلان في ذلك الوقت عشرين عاما مما جعل عمه كُبَيْش يقوم بتدبير أمره. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٧٥.

على سجن بعض الأشراف الذين كحلهم - سمل أعينهم - بعد ذلك الشريف كُبَيْش<sup>(١)</sup>.  
وقد رأى السلطان الظاهر برقوق التخلص من محمد بن أحمد بن عجلان  
وعمه كُبَيْش جميعاً، ولذلك جاء رده سريعاً، فعندما جاء موسم الحج (موسم عام  
٥٧٨٨هـ)، ووصل ركب الحج المصرى إلى مكة المكرمة، برئاسة الأمير آقبغا  
الماردينى، وعندما خرج الشريف محمد بن أحمد بن عجلان لاستقباله، وثب عليه  
جماعة من الفداوية - الباطنية - المصاحبين للأمير آقبغا، وقتلوه وهم يصيحون  
"غريم السلطان"، كما قاموا بقتل رجل آخر ظنوا خطأ أنه الشريف كُبَيْش، بينما فر  
كُبَيْش خارج مكة المكرمة، وذلك فى مستهل شهر ذى الحجة من عام ٥٧٨٨هـ/  
ديسمبر ١٣٨٦م<sup>(٢)</sup>.

(١) الفاسى: العقد الثمين، ج ١، ص ٣١٨.

(٢) الفاسى: العقد الثمين، ج ٦، ص ٤٣٤، المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ٥٥؛

ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ١٩٦.

- الأمير آقبغا الماردينى بن عبدالله، كان نائباً للوجه القبلى، تولى خدمة الملك الظاهر  
برقوق، وكان من جملة الأمراء العشرات، ثم تولى نيابة الوجه القبلى، وحصل على  
إمرة مائة، وتقدمة ألف، ثم غضب عليه السلطان الظاهر برقوق، وقتله فى عام  
٥٧٩٣هـ/١٣٩١م. انظر: ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، ج ٢، ص ٤٨٣، ٤٨٤؛  
ابن داود الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان، تحقيق: حسن حبشى، القاهرة، ١٩٧١م،  
ج ١، ص ٣٢٣.

- الفداوية أو الباطنية أو الإسماعيلية، إحدى فرق الشيعة، ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر  
الصادق، وهو الإمام السابع عندهم، ولذلك أطلق عليهم أيضاً اسم السبعية، وقد ذكر  
الغزالي أن لهم أكثر من سبعة أسماء، وقاموا بأدوار مختلفة منها الإيجابية والسلبية،  
وأقام لهم الحسن الصباح مقراً بقلعة الموت، واستمرت حتى قضى عليها المغول. انظر  
الغزالي: فضائح الباطنية، تحقيق: عبدالرحمن بدوى، القاهرة، ١٩٦٤، ص ١١-  
١٧؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١٠، ص ١١٦، ١١٧؛ وانظر أيضاً: حامد  
زيان: الصراع السياسى والعسكرى بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية،  
القاهرة ١٩٨٣م، ص ٨٧-٩١، نهاية الإسماعيلية، مقال فى كتاب سعيد عاشور فى  
عيد ميلاده السبعين، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٩١-١١١.

لم يكتف السلطان الظاهر برقوق بذلك، وإنما أراد أن يظهر مدى سيطرته على كافة الأمور بمكة المكرمة، فأمر بأن تظل القوة العسكرية التي أرسلها بصحبة الأمير آقبا بمكة المكرمة وهي في كامل استعدادها العسكري مرتدين لامة الحرب، وذلك تحسبا لقيام أي اضطرابات أو فتن، كما ساندت هذه القوة الشريف عنان بن مُغامس بن رُميثة بن أبي نُمى الذى أصدر السلطان الظاهر برقوق أمرا بإقامته أميراً على مكة المكرمة بدلا من أولاد عجلان<sup>(١)</sup>، وأشرك الشريف عنان معه كلا من أحمد بن تَقَبَة، وعقيل بن مبارك بن رُميثة وأخيه على بن مبارك في إمرة مكة، وقد دُعِيَ لهؤلاء الثلاثة على قبة زمزم مع الشريف عنان بن مُغامس<sup>(٢)</sup>.

- (١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٥؛ المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص٥٥٤.
- لامة الحرب: هي أداة الحرب كلها من رمح وسيف ودرع وغيره. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٨٥م، ج٢، ص٨٤٤.
- الشريف عنان بن مُغامس بن رُميثة بن أبي نُمى، تولى إمرة مكة المكرمة مرتين؛ الأولى عام واحد من ذى الحجة عام ٥٧٨٨هـ/ديسمبر ١٣٨٦م إلى شعبان من عام ٥٧٨٩هـ/أغسطس ١٣٨٧م، والثانية عامان من شعبان سنة ٥٧٩٢هـ/يوليه ١٣٩٠م إلى صفر من عام ٥٧٩٤هـ/ديسمبر ١٣٩١م، ثم تنقل به الحال إلى أن سجن بالديار المصرية، واستمر مسجوناً حتى وفاته عام ٥٨٠٥هـ/سبتمبر ١٤٠٢م. انظر: الفاسى: العقد الثمين، ج٦، ص٤٣٠-٤٤١.
- (٢) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٩٦.
- الشريف أحمد بن تَقَبَة بن رُميثة بن أبي نُمى محمد، كان من بين الذين تم تكحيلهم فى أول عام ٥٧٨٧هـ/فبراير ١٣٨٥م، توفى فى شهر المحرم من عام ٥٨١٢هـ/مايو ١٤٠٩م. انظر: الفاسى: العقد الثمين، ج٣، ص٢٢-٢٣.
- الشريف عقيل بن مبارك بن رُميثة بن أبي نُمى محمد، أشركه ابن عمه عنان فى إمرة مكة، واستمر على ذلك عدة أشهر، توفى فى عام ٥٨٢٥هـ/١٤٢٢م. انظر الفاسى: العقد الثمين، ج٦، ص١١٦.
- الشريف على بن مبارك بن رُميثة بن أبي نُمى محمد، تولى إمرة مكة شريكا لابن عمه عنان، واستمر على ذلك عدة أشهر، ثم توجه إلى مصر حيث اعتقل بها، ثم أفرج عنه، وأخذ ينتقل بين مكة والقاهرة إلى أن مات بها فى آخر عام ٥٨١٥هـ/١٤١٢م وهو معتقل بقلعة الجبل. انظر: السخاوى: الضوء اللامع، ج٥، ص٢٧٧.

ولم يستسلم الشريف كُبَيْش، وأخذ الأمل يراوده في العودة إلى إمرة مكة المكرمة، وانتزاعها من يد الشريف عنان بن مُغامس، لذلك أخذ يهاجمها بين الحين والآخر محاولا الاستيلاء على بعض أموال من بها من التجار، وكذلك أخذ في مهاجمة ميناء جدة لإخافة التجار حتى لا يفدوا إليها؛ وذلك لإضعاف مكة، وإحداث أضرار اقتصادية بالغة بها، ومن ذلك ما قام به في شهر جمادى الأولى من عام ٥٧٨٩هـ/ مايو ١٣٨٧م، من قيامه على رأس قوة عسكرية بمحاصرة مكة حصارا شديدا، ثم هجومه على ميناء جدة، واستيلائه على ثلاثة مراكب للتجار محملة بالبضائع الثمينة مما كان له أثر سيئ على مكة المكرمة<sup>(١)</sup>.

غير أن أعمال الشريف كُبَيْش العدائية لم تطل، فقد كان له الشريف عنان بن مُغامس بالمرصاد، وفي أول ليلة من شهر رمضان من عام ٥٧٨٩هـ/ سبتمبر ١٣٨٧م، وعندما قام الشريف كُبَيْش بمهاجمة مكة المكرمة، قام الشريف عنان بن مُغامس بقتاله قتالا شديدا انتهى بإنزال الهزيمة بقوة الشريف كُبَيْش، وقتله، وقتل عدد كبير من عرب بنى حسن الذين كانوا يساندونه في إغارته على مكة المكرمة<sup>(٢)</sup>.

ورغم ما بذله الشريف عنان بن مُغامس من جهد في سبيل إقرار الأمن بمكة المكرمة، إلا أن السلطان الظاهر برقوق لم يقتنع اقتناعا كاملا بقدرته على ضبط الأمور بها، لذلك بعد أن حضر الشريف على بن عجلان بن رُمَيْثة بن أبي نَمَى إلى القاهرة في شهر رمضان من عام ٥٧٨٩هـ/ سبتمبر ١٣٨٧م مطالباً بإمارة مكة المكرمة، قام السلطان الظاهر برقوق في شهر شوال من عام ٥٧٨٩هـ/ أكتوبر ١٣٨٧م بعزل الشركاء الثلاثة للشريف عنان وهم: أحمد بن نَقْبَة، وعقيل بن

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص ٥٦٣.

(٢) الفاسى: العقد الثمين، ج٧، ص ٨٩، المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص ٥٦٦.

مبارك، وعلى بن مبارك، وأشرك معه في إمرة مكة المكرمة على بن عجلان<sup>(١)</sup>.  
والواقع هو أن السنوات العشر الواقعة بين عامي ٥٧٨٩هـ / ١٣٨٧م و ٥٧٩٨هـ / ١٣٩٦م اضطربت فيها أحوال مكة المكرمة السياسية اضطراباً شديداً مما أثر - بطبيعة الحال - على أحوالها الاقتصادية والأمنية. فقد أخذ النزاع والتخاصم طريقه بين الشريف عنان بن مُغامس تسانده مجموعة القادة العسكريين الموجودين داخل مكة المكرمة وبين الشريف على بن عجلان تسانده جماعة الأشراف، وكثيراً ما انفرد أحدهما بالإمارة دون الآخر، لكن لا يلبث أن يعود الاثنان للاشتراك في الإمارة، واستمر ذلك إلى أن قُتل الشريف على بن عجلان في عام ٥٧٩٧هـ / ١٣٩٥م<sup>(٢)</sup>، فأقام السلطان الظاهر برقوق مكانه أخاه محمد بن عجلان بعد أن سادت الفتن مكة المكرمة<sup>(٣)</sup> لدرجة أن ابن ظهيرة يقول عن هذه الفترة: "قل الأمن بمكة ونواحيها، وهربت التجار إلى ينبع"<sup>(٤)</sup>.

ويتضح من النص السابق تدهور الأحوال الاقتصادية بمكة المكرمة تدهوراً كبيراً في تلك الفترة، خصوصاً بعد عزوف التجار عن الحضور إليها، وكذلك بسبب نقصان أعداد الحجاج، ولم يستطع الشريف محمد بن عجلان أمير مكة أن يصلح من شأن ذلك التدهور مما دفع السلطان الظاهر برقوق إلى القيام بعزله عن

(١) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ٥٦٦.

(٢) يُعقب ابن ظهيرة على حكم الشريف على بن عجلان بقوله: "وكان في غالب ولايته مغلوباً مع الأشراف"، أي أنه لم يكن حازماً معهم مما أدى إلى زيادة الفوضى بمكة المكرمة. انظر: الجامع اللطيف، ص ١٩٧.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٥، ص ٥٠٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٧٥.

- الشريف محمد بن عجلان بن رميثة بن أبي نُمى، تولى إمرة مكة المكرمة أكثر من مرة، توفي في عام ٥٨٠٢هـ / ١٣٩٩م. انظر الفاسي: العقد الثمين، ج ٢، ص ١٣٧-١٤٠.

(٤) الجامع اللطيف، ص ١٩٧.

إمارة مكة المكرمة في يوم ٢٤ ربيع الآخر من عام ٥٧٩٨هـ / ٦ فبراير ١٣٩٦م،  
وأصدر مرسومًا لأخيه الشريف حسن بن عجلان بإمارة مكة المكرمة<sup>(١)</sup>.

(١) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ١٩٧.

- الحسن بن عجلان هو الشريف حسن بن عجلان بن رميثة بن أبي نُمي، تولى إمارة مكة المكرمة شريكًا ومنفردًا ما يزيد على عشرين سنة، ولد في عام ٥٧٧٥هـ / ١٣٧٣م، وتوفي في عام ٥٨٢٩هـ / أبريل ١٤٢٦م. انظر الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ٨٦-١٥٣.



## الفصل الثاني

مكة المكرمة زمن الشريف حسن بن عجلان



تعتبر ولاية الشريف حسن بن عجلان لإمارة مكة المكرمة من أهم الفترات التي شهدتها مكة المكرمة في ظل الحكم المملوكي؛ فمنذ ولايته إمرتها في يوم ٢٤ ربيع الآخر من عام ٥٧٩٨ هـ / ٦ فبراير ١٣٩٦ م وحتى وفاته في يوم السبت ١٦ جمادى الآخرة من عام ٥٨٢٩ هـ / ٢٧ أبريل عام ١٤٢٦ م، استطاع أن يقبض بيد من حديد على مختلف نواحي الحياة بمكة المكرمة، حيث ساد الأمن والاستقرار بين ربوعها، ورخصت بها الأسعار، كما استطاع أن يقيم علاقات طيبة مع مختلف القبائل العربية الموجودة داخل مكة وخارجها، والأهم من هذا كله أنه قد جمع بين إمرة مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأصبح بذلك أميراً على بلاد الحجاز كلها، وهذا لم يتسن لأحد من قبله في زمن المماليك، وقد وصفه أحد المؤرخين المعاصرين له بقوله: "كان من أجلّ أمراء مكة ممن أدركناه سؤدداً، وكرماً، وسياسة، وعقلاً، وأثرى، وكثر ماله، وعقاره"<sup>(١)</sup>.

أما الشريف حسن بن عجلان هذا فهو ابن رُمَيْثَة بن أبي نُمَيْ، ولد بمكة المكرمة عام ٥٧٧٥ هـ / ١٣٧٣ م، ونشأ وتربى بها في كفالة أخيه أحمد بعد أن توفي والده عجلان في جمادى الأولى من عام ٥٧٧٧ هـ / أكتوبر ١٣٧٥ م وهو طفل صغير<sup>(٢)</sup>.

وقد نشأ الشريف حسن بن عجلان وسط الصراع والتنافس على إمارة مكة المكرمة، وشاهد تكالب مختلف الأمراء الأشراف على تولى السلطة بها، كما عاصر تردد بعضهم على القاهرة ابتغاء التقرب للسلطين والأمراء المماليك حتى ينالوا شرف إمرة مكة المكرمة، وقام هو بنفسه بزيارة القاهرة في عام ٥٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م، وكان له من العمر في ذلك الوقت خمسة عشر عاماً، حيث كان ضمن

(١) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ج ٥، ص ٩٤.

(٢) الفاسى: العقد الثمين، ج ٤، ص ٨٦.

الوفد الذى تقابل مع السلطان الظاهر برقوق للمطالبة بإقرار أخيه على بن عجلان على إمرة مكة المكرمة<sup>(١)</sup>.

وكما سبق ذكره فإنه فى السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن الهجرى سادت مكة المكرمة القلاقل والفتن وعدم الاستقرار، واضطربت أحوالها خلال فتنة عام ٥٧٩٧هـ / ١٣٩٥م، وهى التى شهدت مقتل الأمير الشريف على بن عجلان (استشهد فى شهر شوال من عام ٥٧٩٧هـ / يوليه ١٣٩٥م)، فتولى تدبير الأمور بمكة المكرمة من بعده أخوه محمد بن عجلان، وكان الحسن بن عجلان فى تلك الفترة معتقلا بقلعة الجبل بالديار المصرية، فى أعقاب حضوره إليها فى أوائل عام ٥٧٩٧هـ / أكتوبر ١٣٩٤م، بعد أن غضب من أخيه على بن عجلان، فلم تعجبه سياسته، وعدم حسمه للأمور، فحضر إلى الديار المصرية يشكو هذه السياسة، لكن بدلا من أن يقوم السلطان برقوق بالاستماع إليه، وفحص شكواه، خشى من ازدياد الفتنة، فقام باعتقاله بقلعة الجبل فى شهر رمضان من عام ٥٧٩٧هـ / يونيه ١٣٩٥م، ومنعه من العودة إلى مكة المكرمة ظنا منه أن هذا الإجراء ينهى الفتن ويعمل على تهدئتها وخصوصا أنه أدرك جيدا مدى تمتع الحسن بن عجلان بقوة الشخصية، وقدرته على التأثير على من حوله<sup>(٢)</sup>.

ولم يلبث السلطان الظاهر برقوق أن أفرج عن الحسن بن عجلان بعد أن قضى فى الاعتقال بقلعة الجبل أقل من ثلاثة أشهر، وعهد إليه بإمارة مكة المكرمة بعد مقتل أخيه على بن عجلان<sup>(٣)</sup>، على الرغم من أن أخاه محمد بن عجلان كان قد سعى فى أن تؤول إمرة مكة المكرمة إليه، حيث كان موجودا بمكة المكرمة وقت

(١) السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، ص١٠٣.

(٢) الفاسى: شفاء الغرام، ج٢، ص٢٠٨.

(٣) الفاسى: شفاء الغرام، ج٢، ص٢٠٨. قتل الشريف على بن عجلان فى السابع من شوال من

عام ٥٧٩٧هـ / ٢٧ يولية ١٣٩٥م؛ الفاسى: العقد الثمين، ج٤، ص٨٧.

مقتل أخيه على، وقام بالإشراف على موسم الحج في هذا العام<sup>(١)</sup>.

غير أن الحسن بن عجلان تَرَيَّث في الذهاب إلى مكة المكرمة ليتولى إمرتها، حيث أخذ في الاستعداد لما ينتظره من المصاعب؛ فهو يعلم علم اليقين مدى اختلاف أشرف مكة، وما يقومون به من أعمال عدائية، لذلك أخذ معه ما يقرب من مائة وثلاثين جندياً من المماليك، فضلاً عن أخذه ما يقرب من تسعين فرساً، بالإضافة إلى عدد وافر من آلات الحرب والقتال<sup>(٢)</sup>، وبعد أن أحس بقدرته على الصمود أمام من يعترضه من أشرف مكة رحل من الديار المصرية متجهاً إلى مكة المكرمة حيث وصلها في ٢٤ ربيع الآخر من عام ٥٧٩٨هـ / ٦ فبراير ١٣٩٦م<sup>(٣)</sup>.

وكان في صحبة الأمير الشريف حسن بن عجلان الأمير يلبغا السالمي، وهو أحد كبار المماليك، وقد أمره السلطان الظاهر برقوق بأن يسانده في الأيام الأولى من ولايته على مكة المكرمة، ويؤازره في الوقوف أمام من يحاول إثارة الشغب والقتال<sup>(٤)</sup>.

وقد بدأ الشريف حسن بن عجلان إمرته على مكة المكرمة بالقبض بيد من حديد على كافة الأمور بها، وبخاصة قيامه بتقليل أظافر محركي الفتنة من عرب

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ٨٨.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ٨٨.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ٨٩؛ المقرزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٤١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ١٠٤.

(٤) المقرزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ٨٤١.

- الأمير يلبغا السالمي أبوالمعالى الظاهري، جليبه تاجر اسمه سالم فنسب إليه، واشتراه برقوق وجعله من خاصكيته، ثم تدرج في الخدمة، كان له ميل للعلم وبخاصة الحديث النبوي الشريف، مات مقتولاً في رمضان من عام ٥٨١١هـ / يناير ١٤٠٩م. انظر السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٨٩، ٢٩٠.

أبناء حسن الذين قاموا بقتل أخيه على، وحقق انتصاراً كبيراً عليهم، حيث قتل من أشرفهم سبعة أفراد، ومن أبنائهم نحو الثلاثين دون أن تحدث في جانبه خسائر تذكر، فلم يقتل من أتباعه سوى مملوكين فقط. وكان لهذا الانتصار الكبير الذي حققه على بنى حسن أثره في نفوس الكثيرين من أعدائه، حيث خشوا من بطشه، فدانوا له بالتبعية، ولم يحاولوا إثارة القلاقل بعد ذلك مما أدى إلى هدوء الفتن بمكة المكرمة<sup>(١)</sup>.

ولقد أتاح حدوث الهدوء والاستقرار بمكة المكرمة أن حقق الشريف حسن بن عجلان الكثير من المكاسب، وكان أول تلك المكاسب هو ذلك الرخاء الاقتصادي الذي عم مكة المكرمة، وقد أشار المقرئى إلى أن الحجاج لمسوا بأنفسهم هذا الرخاء، وذلك الاستقرار، وأثنوا عليه بعد عودتهم من موسم الحج لعام ٥٧٩٨ / ١٣٩٦م<sup>(٢)</sup>.

أما ثانى هذه المكاسب فهو ذلك الأمن الذى حققه الشريف حسن بن عجلان بالتخلص من عرب بنى حسن، وهم الذين كانوا يثيرون الخوف فى نفوس أهل مكة المكرمة، ويقومون بنهب ثروات التجار، وقد نجح الشريف حسن بن عجلان فى إخراجهم من مكة المكرمة، وأخذ فى تتبعهم، الأمر الذى جعلهم يفرون إلى ينبع، ولم يتوان الشريف حسن بن عجلان فى قتل أشرفهم، فيذكر المقرئى أنه فى عام ٥٧٩٨ / ١٣٩٦م قتل من بنى حسن اثنا عشر شريفاً، كما قتل من قوادهم نحو ثلاثين قائداً<sup>(٣)</sup>. مما أدى إلى اختفائهم من مكة المكرمة، وفرارهم منها، وهو ما ساعد على توفير الأمن والاستقرار بها، وأدى بالتالى إلى وفود التجار إليها بأعداد كبيرة مما ساعد على ازدياد الرخاء الاقتصادي<sup>(٤)</sup>.

(١) السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، ص١٠٤؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٩٧.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص٨٤٣.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص٨٥٥، ٨٦٢.

(٤) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص٨٥٥.

ونتيجة نجاح الشريف حسن بن عجلان في تحقيق الأمن والاستقرار، وما حدث من انتشار الرخاء الاقتصادي، ووفرة السلع بمكة المكرمة، لم يتردد السلطان الناصر فرج بن برقوق بعد توليه سلطنة الممالِك في النصف من شهر شوال من عام ٨٠١هـ / ٢١ يونيو ١٣٩٩م، بعد وفاة والده السلطان الظاهر برقوق<sup>(١)</sup>، في إقراره في إمرة مكة المكرمة، وأصدر بذلك تقليدا أرسله بصحبة أمير الحج الأمير شيخ المحمودي، - الذي توجه على رأس محمل الحج في ١٨ شوال من هذا العام (٨٠١هـ / ١٣٩٩م) - يفيد بإقرار الشريف حسن بن عجلان على مكة المكرمة<sup>(٢)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن الشريف حسن بن عجلان كان كثير التردد على القاهرة، مقر السلطنة المملوكية، إذ تشير الأحداث إلى أنه كان بالقاهرة أثناء وفاة السلطان الظاهر برقوق، وشارك في تشييع جثمانه، وعاصر تولية الناصر فرج عرش سلطنة الممالِك، بينما كان يوجد بمكة الأمير بيسق الشيخي الذي كان يتولى

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٦٨.

- الناصر فرج بن برقوق هو أبو السعادات: ولد في عام ٧٩١هـ / ١٣٨٩م، تولى سلطنة الممالِك بعد وفاة والده الظاهر برقوق في عام ٨٠١هـ / ١٣٩٩م، ولم يلبث أن قامت ضده فتنة انتهت بقتله في عام ٨١٥هـ / ١٤١٢م. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ١٦٨؛ ابن طولون: أعلام الوري فيمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق: عبدالعظيم حامد خطاب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٣٨.

(٢) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ص ٩٦٠، ٩٦١.

- الأمير شيخ المحمودي هو المؤيد أبو النصر الجركسي، ولد في عام ٧٧٠هـ / ١٣٦٩م تقريبا، وقدم القاهرة في عام ٧٨٣هـ / ١٣٨١م، وعمره اثنا عشر عاما، واشتراه الظاهر برقوق، ثم ترقى إلى أن تولى السلطنة في عام ٨١٥هـ / ١٤١٢م، واستمر في الملك حتى وفاته في عام ٨٢٤هـ / ١٤٢١م. انظر: ابن حجر: أنباء الغمر، ج ٧، ص ص ٣٩٣، ٣٩٤؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٠٣؛ العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق: فهم محمد شلتوت، القاهرة، ١٩٦٧، ص ص ٢٣٨-٣٠٧.

الإشراف على بعض الأعمال العمرانية بالمسجد الحرام<sup>(١)</sup>. ولذلك أرسل أولو الأمر بالديار المصرية إلى الأمير بيسق الشيخى وهو بمكة المكرمة عقب وفاة السلطان برقوق فى ليلة النصف من شوال من عام ٨٠٨هـ / ٣ يوليو ١٣٩٨م يخبرون بوفاته، ويعزون فى فقدانه، ويهنتون بتولية ولده الناصر فرج عرش السلطنة، ويخبرون أيضا بأن التقليد الخاص بإقرار الشريف حسن بن عجلان سوف يصل صحبة أمير الحاج<sup>(٢)</sup>.

ومن الأمور التى تحسب للشريف حسن بن عجلان نجاحه فى إحداث تآلف بين أهالى مكة المكرمة ومجموعة أمراء المالِك المتواجدين بها، وبخاصة أولئك الذين اتصفوا بالقسوة والشدة، مثل الأمير بيسق الشيخى الذى وصف فى المصادر بأنه "كان كثير الشر، شرس الخلق"<sup>(٣)</sup>، وقد قضى هذا الرجل بمكة المكرمة فترة ليست بالقليلة حيث كان يشرف على عمارة الرواق الغربى للمسجد الحرام<sup>(٤)</sup>.

ونتيجة لما اتصف به الأمير بيسق الشيخى من قسوة وشدة فقد وقع بينه وبين بعض أهالى مكة المكرمة وعبيدها كثير من النزاع والخلاف، كما أن ما بدر من بيسق فى حقهم من إساءة أدى إلى محاولتهم الفتك به أكثر من مرة<sup>(٥)</sup>.

فما كان من الشريف حسن بن عجلان إلا أن بذل جهدا كبيرا فى سبيل إصلاح ذات البين بين أهالى مكة المكرمة وبين الأمير بيسق الشيخى، وتحدث فى ذلك إلى أمير الحج الأمير شيخ المحمودى الذى استطاع أن يزيل ذلك الخلاف، فهدأت النفوس، وبذلك نجح الشريف حسن بن عجلان فى أن يعيد الوئام بين أهالى مكة والأمير بيسق الشيخى الذى كان يعمل بهمة ونشاط فى عمارة الرواق الغربى من المسجد الحرام، وبذلك هيا الفرصة أمامه لإنهاء عمله، وإتمام تلك العمارة<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٧١.

(٢) المقرئزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ٩٦٠.

(٣) السخاوى: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٢٢، ٢٣.

(٤) المقرئزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ٩٨٠.

(٥) المقرئزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ق ٣، ص ٩٨٠.

(٦) المقرئزى: السلوك، ج ٣، ص ٩٨٠.



ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن الأمير بيسق الشيخي الوحيد من بين أمراء المماليك الجراكسة الذين قاسى منهم أهالي مكة المكرمة وأشرافها الشدة والقسوة، فقد أكد المؤرخ المكي قطب الدين النهروالي (توفى في عام ١٥٨٠/١٥٨٠م) على وصف المماليك الجراكسة بالظلم والفساد، ويقول أيضا إنه "غلبت سيئاتهم على حسناتهم، وزادت مظالمهم على خيراتهم"<sup>(١)</sup>.

وإزاء ذلك الوضع، وما أدركه الشريف حسن بن عجلان من سطوة المماليك الجراكسة، فقد وقع عليه عبء مداراتهم، ومحاولة اتقاء شرهم، فبذل جهدا كبيرا من أجل إقامة وئام بين أهالي مكة وبينهم، ونجح في ذلك نجاحا كبيرا.

كذلك مما يحسب للشريف حسن بن عجلان ضبطه للأمر بمكة المكرمة، وإخلاصه للسلطان المملوكي، صاحب السلطة على الديار المصرية والشامية والحجازية، وذلك ما حدث في عام ١٤٠٥/١٤٠٥م، عندما ترامت إلى أسماعه أنباء تفيد بقيام تيمور (لنك) بإرسال جيش إلى مكة المكرمة، لبسط نفوذه عليها، وقيامه بكسوة الكعبة الشريفة<sup>(٢)</sup>، سارع بإخبار السلطان المملوكي الناصر فرج.

(١) كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ص ١٨٧-١٨٩.

(٢) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ١١٦٦.

- تيمور (لنك) : هو ابن طراغاي (تارجي) الذي ينتمي إلى قبيلة لاس التركية، وأمه الخاتون تكينة من ذرية جنكيز خان، ومعنى ذلك أن تيمور (لنك) يجمع بين السلالتين التركية والمغولية، ولد في عام ١٣٣٦/١٣٣٦م بقرية خوجا إيلغار من أعمال مدينة كيش إحدى مدن بلاد ما وراء النهر، ونشأ نشأة فقيرة، ثم استطاع تكوين فرقة عسكرية تمكن بها من الاستيلاء على عدة مدن، وخلال تلك العمليات أصيب بسهم في رجله أدى إلى عرجه، ومن ثم أضيف إلى اسمه كلمة "لنك" وهي فارسية وتعني الأعرج، ثم استطاع الاستيلاء على سمرقند، واستطاع أن يهدد العالم المعروف، وبخاصة دولة المماليك، توفى في عام ١٤٠٥/١٤٠٥م. وكلمة تيمور تركية بمعنى الحديد. انظر: ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، بيروت، ١٩٨٦م، ص ص ٣٩-٥١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢٥٥؛ القزويني: أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق: فهمي سعد وآخرين، بيروت، ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٥٠٠.

والمعروف أنه كان يوجد صراع سياسى بين سلطنة المماليك وتيمور (لنك)، حيث حاول الأخير أن يحقق نفس الهدف الذى وضعه جده الأكبر جنكيزخان، وهو سيادة العالم، ومن ثم أخذ فى مهاجمة الأملاك المجاورة له، وبخاصة أملاك دولة المماليك، ولذلك اصطدم معهم، وكانت بينهم معارك ضارية<sup>(١)</sup>.

وقد حقق تيمور (لنك) انتصارات كثيرة على سلطنة المماليك، وبخاصة قوات السلطان الناصر فرج بن برقوق، ودخل بلاد الشام، وقام بالتكليف بأهلها<sup>(٢)</sup>، ثم قام بعد ذلك بمهاجمة بغداد، وارتكب مذبحه هائلة لكل من وجده بها<sup>(٣)</sup> تذكرنا بتلك المذبحة التى ارتكبها أسلافه المغول بحق الخليفة العباسي وأهل بغداد<sup>(٤)</sup>.

وهكذا فلم يقف أمام تيمور (لنك) أحد إلا وأنزل به هزيمة شنيعة، الأمر الذى جعله يتصور أنه أصبح سيدا للعالم وبخاصة العالم الإسلامى، وقد رأى أنه لكى يحقق هذا الهدف عليه أن يضع يده على الحرمين الشريفين، وبخاصة الحرم المكى والكعبة المشرفة، فهو قبلة المسلمين، ومن يبسط يده عليه يصبح هو صاحب الكلمة العليا فى العالم الإسلامى، ولذلك ففى عام ١٤٠٥/٨٠٧م، وبعد أن غاب عن سمرقند قرابة خمس سنوات قضاها فى حروبه السابقة فى العراق والشام وبلاد الكرج والروم، ونجح فى إخضاع شعوب تلك البلاد لسلطانه، وفرض عليهم

(١) وعن حروب تيمور (لنك) مع المماليك انظر: المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ص ٢٨٠-٩٣٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ص ٤٦٨، ٤٦٩؛ وانظر أيضاً: حامد زيان: المماليك، ص ص ٨٠-٨٧.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٥، ص ٥٥٥؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج ٣، ص ص ٤٧، ٤٨.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢٤٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ص ٤٣٤، ٤٣٥.

(٤) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج ٣، ص ١٩٤، القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٥٩؛ المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٤٠٩؛ انظر أيضاً: حامد زيان: صفحة من تاريخ الخلافة العباسية فى ظل دولة المماليك، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ص ١٤، ١٥.

الجزية، أخذ يفكر فى فرض سلطانه على مكة المكرمة<sup>(١)</sup>.

ومن الملاحظ أن تيمور (لنك) اختار عام ١٤٠٥/٥٨٠٧م لينفذ فيه رغبته فى السيطرة على مكة المكرمة، وذلك لعلمه بما ساد دولة الممالِك فى مصر والشام فى تلك الفترة من فتن وقلقل أحاطت بالسلطان الناصر فرج<sup>(٢)</sup>، لذلك أوعز إلى القائمين على ركب الحج العراقى فى موسم حج عام ١٤٠٥/٥٨٠٧م بأن يقوموا سرا بقياس الكعبة المشرفة، وذلك لإعداد كسوة لها، وبالفعل بعد انتهاء موسم الحج تأخر ركب الحج العراقى حتى رحل ركب الحج المصرى، ثم قام أعضاؤه بقياس أطوال الكعبة المشرفة، كما قاموا بإحصاء عدد أعمدة وأبواب المسجد الحرام، وذلك تنفيذاً لأوامر تيمور (لنك)<sup>(٣)</sup>.

وقد ترامى إلى أسماع الشريف حسن بن عجلان فى يوم السادس والعشرين من شهر ذى الحجة من عام ١٤٠٥/٥٨٠٧م ٢٦ يونيو ١٤٠٥م نبأ بقياس الركب العراقى للكعبة المشرفة<sup>(٤)</sup>، وما أن علم بذلك إلا وأخذ يتساعل عن السبب الذى دفع القائمين على أمر الركب العراقى إلى قياس الكعبة المشرفة، وما هو الهدف من وراء ذلك، لكن أعضاء ركب المحمل العراقى تكتموا أمرهم، ولم يفشوا السر الذى دفعهم إلى ذلك، غير أن أحد أبناء عرب بنى حسن، والذى كان مصاحباً للركب العراقى، وشهد قيامهم بقياس الكعبة المشرفة، أفشى للحسن بن عجلان سر هذا العمل، وحدثه بأن تيمور (لنك) عازم على إرسال جيش كثيف إلى مكة المكرمة وبصحبته كسوة للكعبة المشرفة حتى تتم الخطبة باسمه على منابر الحرم المكى. وهنا سارع

(١) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ٣٦٨.

(٢) ابن حجر العسقلانى: أنباء الغمر، ج ٤، ص ١٩٩، ٢٠٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢٣٠-٢٤٦.

(٣) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ١١٦٦.

(٤) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣، ص ١١٦٦.

الشريف حسن بن عجلان بإبلاغ السلطان المملوكى الناصر فرج بهذا الأمر الخطير حتى يتخذ من التدابير ما يحبط مخططات تيمور (لنك)<sup>(١)</sup>.

غير أن مشيئة الله سبحانه وتعالى دائما هي الغالبة، قد شاء الله عز وجل ألا تسال على أرض مكة المكرمة الطاهرة الدماء مثلما سالت من قبل ببلاد الشام والعراق... وغيرهما من البلاد التي هاجمها تيمور (لنك) وجنوده، لذلك وقبل أن ينفذ تيمور (لنك) خطته في الهجوم على مكة المكرمة اختطفه الموت في ١٧ شعبان من عام ٥٨٠٧هـ / ١٩ فبراير ١٤٠٥م<sup>(٢)</sup>.

وقد يسأل سائل لماذا واصل وفد الركب العراقى قياس الكعبة المشرفة فى شهر ذى الحجة من عام ٥٨٠٧هـ / يونيه ١٤٠٥م بعد علمهم بوفاة زعيمهم وقائدهم تيمور (لنك) فى شهر شعبان السابق؟؟. وكان الأولى أن تتوقف كل الإجراءات التي من شأنها القيام بمهاجمة مكة المكرمة ما دام تيمور (لنك) قد توفى؟

يبدو أن هذا الأمر قد راود بعض المؤرخين المعاصرين لهذا الحدث أمثال ابن تغرى بردى الذى تشكك فى عزم تيمور (لنك) غزو مكة المكرمة، وقال إنه: "أخبر بأنه كان أشيع بمكة المكرمة قدوم تيمور لنك إليها، فاستعد صاحب مكة المكرمة لذلك، فلم يصح ما أشيع"<sup>(٣)</sup>.

لكن الذى حدث هو أن تيمور (لنك) أمر بقياس الكعبة وإخفاء ذلك حتى يفاجئ الجميع بإطباق جيوشه على مكة المكرمة، لكن وفاته المفاجئة لم تثن قاداته ومن بينهم أمراء ركب الحج العراقى عن متابعة تنفيذ هذه الرغبة ظنا منهم أن من سيخلفه على عرش الدولة التيمورية سيقوم بتنفيذ هذا الحلم، ويبسط نفوذه على مكة

(١) المقرئزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص١١٦٦.

(٢) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص٣٩٣، ٣٩٤.

(٣) النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٣٢٢.

المكرمة، فقاموا فى شهر ذى الحجة بعملية قياس الكعبة المشرفة على النحو الذى أشرنا إليه سابقا.

غير أنه بوفاة تيمور (لنك) أخذت الخلافات تدب فى أوصال دولته، وقد أشار إلى ذلك المؤرخ ابن داود الصيرفى بقوله: "وقع فى عسكره خطاب كثير"<sup>(١)</sup>، وقد أدى هذا إلى عدم تنفيذ رغبة تيمور (لنك) بمهاجمة مكة المكرمة، وبذلك نجت بحفظ الله - سبحانه وتعالى - لها من دمار شديد كان سيحدث لها إذا ما أطال الله عمر تيمور (لنك)، وقام بمهاجمتها.

(١) نزهة النفوس والأبدان، ج ٢، ص ٢٠٩.



## الفصل الثالث

توحيد الشريف حسن بن عجلان  
بلاد الحجاز تحت إمرته





من الأحداث المهمة التي حدثت في زمن الحسن بن عجلان هو جمعه بين إمرتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهو أمر لم يحدث من قبل في زمن سلاطين المالِك، وإن كان قد حدث قبل ذلك على فترات متفاوتة<sup>(١)</sup>.

ففي شهر ربيع الأول من عام ٨١١هـ / أغسطس عام ١٤٠٨م أصدر السلطان الناصر فرج بن برقوق قرارا بإضافة إمرة المدينة المنورة إلى الشريف حسن بن عجلان أمير مكة المكرمة، كما أضاف إليه أيضا إمرة كل من ينبع وخليص والصفراء وأعمالهم<sup>(٢)</sup>.

لم يكن جمع أمير مكة المكرمة بين إمرة الحرمين الشريفين بالأمر العادي؛ لأنه بذلك يصبح أميرا على بلاد الحجاز كلها، وهو أمر لم يتسن لأحد من قبله في

(١) من الفترات التي جمع فيها شريف مكة بين إمرتها وإمارة المدينة المنورة ما حدث في عام ١٠٣٩هـ / ١٤٣٠م عندما جمع الشريف شكر بن أبو الفتح الحسن بن جعفر بين إمرتها وإمارة المدينة المنورة، واستمر ذلك حتى وفاته في عام ١٠٦١هـ / ١٤٥٣م، وما حدث في عام ١٠٧١هـ / ١٤٦٣م عندما جمع محمد بن جعفر بن أبي هاشم بين إمرتها وإمارة المدينة المنورة. انظر القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٦٧-٢٦٩، ٢٧٠.

(٢) السخاوى: التحفة اللطيفة، ج١، ص ٤٨١.

- هناك بعض الآراء تقول إنه تولى إمرة المدينة المنورة في شهر جمادى الأولى من عام ٨١١هـ / سبتمبر ١٤٠٨م، وليس في شهر ربيع الأول. انظر: المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ق٢، ص ٧٣١؛ ابن حجر العسقلانى: أنباء الغمر، ج٦، ص ١٠٣.
- ينبع: قرية على بحر القلزم - الأحمر - قريبة من المدينة المنورة، وصفها الجغرافيون بأن بها حصنا وبها نخيلا وماء وزروعا، وكان يسكنها بنو الحسن بن علي بن أبى طالب. انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٤٠؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٩٦.
- خليص: حصن بين مكة المكرمة والمدينة المنورة. انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٢، ص ٤٦٧.
- الصفراء: قرية بين المدينة المنورة وينبع. انظر: ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١، ص ٢٢٤.

عصر المالِك، وقد أقر بذلك المؤرخ ابن تغرى بردى بقوله: "وهذا شئ لم ينلّه أمير مكة من قبله فى هذا الزمان"<sup>(١)</sup>، ويقصد ابن تغرى بردى بهذا الزمان زمن المالِك.

وإن حدوث هذا الأمر الجلل يجعلنا نتساءل عن الأسباب التى دفعت السلطان الناصر فرج إلى إصدار هذا القرار؟؟

الواقع أن السبب الرئيسى لذلك يعود إلى نجاح الشريف حسن بن عجلان فى إقرار الأمن بمكة المكرمة، ونشر الرخاء بها، وما حدث من اطمئنان الحجاج والزائرين والتجار على أنفسهم وأموالهم، والجهد الذى بذله فى توفير وسائل الراحة لكل من يفد على مكة المكرمة، وما قام به من الأخذ بشدة على يد المفسدين بها، كل ذلك كان دافعا للسلطان الناصر فرج فى اتخاذ قرار إضافة إمرة المدينة المنورة إليه إلى جانب إمرة مكة المكرمة، وذلك لما يأمله من أن يعمل على نشر الأمن بها، والقيام بضبط أمورها بعد أن تفاقمت بها المشكلات، ومعنى ذلك أن السبب الأول يتمثل فى شخصية حسن بن عجلان القادر على ضبط الأمور، ومعالجة كافة المشكلات بروية وحكمة، وتوفير الأمن والرخاء بالبلاد. ومن ناحية ثانية فإن ما حدث فى تلك الفترة من مشكلات داخل المدينة المنورة وبخاصة ذلك الصراع الذى نشب بين أشرفها وبعضهم البعض، وما ظهر منهم من عدم القدرة على ضبط أمورها<sup>(٢)</sup>، كل ذلك كان دافعا للسلطان الناصر فرج لإصدار مثل هذا القرار.

(١) النجوم الزاهرة، ج ١٣، ص ٧٤.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٠١؛ المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤،

ص ٥١.

- ذكر ابن حجر العسقلانى بشئ من التفصيل ما حدث من صراع بين أشرف المدينة المنورة خلال السنوات العشر السابقة على ولاية حسن بن عجلان لها. انظر: أنباء الغمر، ج ٦، ص ٩-١٠.

ومن ناحية ثالثة فإن عدم قدرة أمراء المدينة المنورة على حماية الحجاج الذين يقومون بزيارة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) من الاعتداءات الخارجية كان دافعا للبحث عن شخص قوى يستطيع تأمينهم، إذ قام حكام بعض الحصون القريبة من المدينة المنورة مثل حصن خُليص بالاعتداء على حجاج بيت الله الحرام، ونهب أمتعتهم، مثلما حدث في عام ٤٠٧/٥٨١٠م عندما اشتكى حجاج مصر من قيام حاكم خُليص باحتجازهم أثناء عودتهم، ولم يسمح لهم بالعودة إلى مصر، وعندما عارضه بعض الصلحاء قام بقتالهم، وأحدث بهم بعض الجروح، وذلك حتى يضغط على سلاطين المماليك لكي يرسلوا إليه الراتب المقرر له، حيث تأخر هذا الراتب بعض الشيء، وذلك دون أن يكون لهؤلاء الحجاج ذنب يذكر في ذلك، وقد شجعه على ذلك ضعف واختلاف حكام المدينة المنورة، وهي القريبة من ذلك الحصن (خُليص)<sup>(١)</sup>.

ومن ناحية رابعة فإن ما أحاط بالسلطان الناصر فرج من مشاكل داخل سلطنة المماليك في الآونة الأخيرة من حكمه، ووقوف كثير من أمراء المماليك ضده، وخروجهم عليه<sup>(٢)</sup>، جعله يفكر في أن يرمى بمشكلات المدينة المنورة على عاتق أحد القادة القادرين على التصدي لها، وهو الأمير الشريف حسن بن عجلان الذي أثبت مقدرة عالية على ضبط أمور مكة المكرمة.

وعلى هذا النحو كانت كل الظروف مهياً لأن يتولى الشريف حسن بن عجلان إمرة المدينة المنورة إلى جانب إمرة مكة المكرمة ليصبح بذلك أميراً على بلاد الحجاز كلها.

وقد أثبت حسن بن عجلان أنه أهل لولاية بلاد الحجاز، وكان عليه في البداية

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٥١.

(٢) ابن داود الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص ٢١٢-٢١٧؛ وانظر أيضا: حامد

زيان: المماليك، ص ١٢٩-١٣٣.

أن يضبط الأمور بالمدينة المنورة، ويعيد إليها الاستقرار، ولذلك كان أول أعماله بها قيامه بالقبض بيد من حديد على مثيري الفتنة، وكانت أصابع الاتهام تشير إلى الشريف جماز بن نعيم الذي أخذ في إثارة الفتنة بالمدينة المنورة، خصوصاً مع تزامن ولاية حسن بن عجلان لبلاد الحجاز مع وفاة أخيه أمير المدينة المنورة ثابت ابن نعيم، ثم ما حدث من استبعاد حسن بن عجلان له، وتفويض أخيه عجلان بن نعيم في آخر شهر ربيع الآخر من عام ٥٨١١هـ/ سبتمبر ١٤٠٨م، لكي يتولى تدبير شؤون المدينة المنورة نيابة عنه<sup>(١)</sup>.

ومما يذكر ارتباط الشريف حسن بن عجلان برباط الود والمصاهرة مع الشريف عجلان بن نعيم، حيث تزوج الأول من ابنة الثاني الشريفة موزة<sup>(٢)</sup>، وهو ما أدى إلى غضب الشريف جماز بن نعيم الذي كان يأمل في أن يستقر في حكم المدينة المنورة، ولذلك اعتصم بها، وأراد أن يستقوى بمن بها من العبيد والخدم، فأرسل إليهم يستدعيهم للوقوف إلى جانبه، لكن هؤلاء العبيد رفضوا الانصياع إليه<sup>(٣)</sup>.

ولم يترك الشريف حسن بن عجلان الأمور تفلت من يده، وأراد أن يظهر للشريف جماز بن نعيم الشدة، فأرسل إليه يهدده ويقول له: "أخرج بسلام، وإلا فأنا

(١) ابن تغرى بردى: المنهل الصافي، ج٤، ص ١٨٩؛ السخاوى: التحفة اللطيفة، ج٣، ص ١٧٦، ١٧٧.

- كان للشريف نعيم بن هبة بن جماز بن منصور بن جماز بن شيحة بن سالم ثلاثة أبناء هم ثابت الذي تولى إمرة المدينة المنورة، وتوفى في شهر صفر من عام ٥٨١١هـ/ يولييه ١٤٠٨م، ثم عجلان الذي فوضه الشريف حسن بن عجلان على إمارة المدينة المنورة في آخر شهر ربيع الآخر من عام ٥٨١١هـ/ سبتمبر ١٤٠٨م، والابن الثالث هو الشريف جماز الذي أخذ في مناوأة الشريف حسن بن عجلان. انظر: ابن تغرى بردى: المنهل الصافي، ج٤، ص ١٩٨؛ السخاوى: التحفة اللطيفة، ج٣، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٢) ابن تغرى بردى: المنهل الصافي، ج٤، ص ١٩٨.

(٣) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٧٥.

قاصدك"، وهنا سقط في يد الشريف جماز الذى لم يجد له نصيراً، لذلك أظهر الطاعة، لكنه قبل أن يخرج من المدينة المنورة حاول الاستيلاء على ما بداخل الحجرة النبوية الشريفة من ودائع ومجوهرات، وعندما رفض القائمون على أمر الحجرة النبوية طلبه قام بضربهم وإهانتهم واستولى على عدد كبير مما بداخلها من قناديل وبُسط وصناديق مملوءة بالذهب وغير ذلك مما تحويه من الحوائج<sup>(١)</sup>.

ولم يلبث أن غادر الشريف جماز بن نَعير المدينة المنورة فى صباح يوم الحادى عشر من جمادى الأولى من عام ٨١١هـ/٤ أكتوبر ٤٠٨م قبل أن تصل إليها القوات التى أرسلها الشريف حسن بن عجلان بصحبة الأمير الشريف عجلان بن نَعير، وبالفعل فإنه عندما وصل إلى المدينة المنورة فى ليلة التاسع عشر من شهر جمادى الأولى من عام ٨١١هـ/١٢ أكتوبر ٤٠٨م لم يكن بها معارضون له، ولم تحدث أية مشاحنات، حيث هرب منها أخوه الشريف جماز بن نَعير وأتباعه، لذلك ما أن دخل الشريف عجلان بن نَعير المدينة المنورة إلا ونادى بالأمان حتى يطمئن أهل المدينة المنورة على أنفسهم وأموالهم<sup>(٢)</sup>.

وزيادة من الشريف حسن بن عجلان فى إقرار الأمور بالمدينة المنورة، أرسل إليها ابنه أحمد بن حسن بن عجلان على رأس قوة عسكرية مؤلفة من "ستين ما بين فارس وراجل، واثنين وعشرين مملوكاً"، كما أرسل أيضاً بصحبتهم أحد الفقهاء المشهود لهم بالسمعة الطيبة وهو القاضى رضى الدين أبو حامد محمد بن عبدالرحمن بن محمد المطرى ليتولى قضاء المدينة المنورة بأمر وتقليد صدر من

(١) ابن حجر: أنباء الغمر، ج٦، ص ١٠٣، ١٠٤، ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، ج٤،

ص ١٩٨، النهروالى: كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٢٠٠.

- ذكر المؤرخ تقى الدين المقرئى بشئ من التفصيل تلك الحوائج التى استولى عليها

الشريف جماز بن نَعير. انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٧٥، ٧٦.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٧٦.

السلطان المملوكى الناصر فرج<sup>(١)</sup>، وهو ذلك الرجل الذى اشتهر بعلمه وتقواه، وهو من أسرة اشتغل معظم أفرادها بالعلم، وتولى العديد منهم وظائف مختلفة بالحرم النبوى الشريف<sup>(٢)</sup>.

كذلك صدرت الأوامر بأن تتم مصادرة أموال وممتلكات الشريف جماز بين نغير، والقبض عليه، وذلك حتى يضع حدا لما ساد المدينة المنورة من عدم استقرار<sup>(٣)</sup>.

وقد تمت قراءة التقليد الصادر من السلطان المملوكى الناصر فرج بولاية الشريف حسن بن عجلان لبلاد الحجاز، شاملاً مكة المكرمة وينبع وخليص والصفراء وأعمالهم، كما قرئ توقيع الشريف حسن بن عجلان بتفويض وإنبابة الشريف عجلان بن نغير على المدينة المنورة<sup>(٤)</sup>، وبذلك صار يُخطب على منابر المدينة المنورة باسم السلطان الناصر فرج، ثم من بعده الشريف حسن بن عجلان، ومن بعدهما باسم أميرها عجلان بن نغير<sup>(٥)</sup>، وبعد أن شعر الجميع بالأمن والاستقرار عادت تلك القوة العسكرية إلى مكة المكرمة<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٧٦.

- القاضى محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن خليف بن عيسى بن عباس بن بدر بن يوسف بن على بن عثمان الأنصارى الخزرجى يكنى أبا حامد، ويلقب بالرضي، ولد بالمدينة المنورة فى عام ١٣٤٨هـ/١٧٤٩م، وتلقى تعليمه بها، ووصل إلى درجة متقدمة فى العلم، وسمع منه الفاسى فى مكة المكرمة، ومدحه بقوله: "وكان له بالعلم عناية، وله معرفة حسنة بالفقه والعربية وغير ذلك"، توفى فى شهر ذى الحجة من عام ١٨١١هـ/مايو ١٤٠٨م بمكة المكرمة. انظر: الفاسى: العقد الثمين، ج٢، ص ١٠٥-١٠٩.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٧٦.

(٣) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٧٦.

(٤) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٧٦.

(٥) السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، ص ١٠٤.

(٦) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص ٧٦.

وعلى هذا النحو تولى الشريف حسن بن عجلان نيابة بلاد الحجاز كلها، وساس البلاد والعباد أحسن سياسة مما دفع العديد من المؤرخين المعاصرين له إلى الثناء عليه، وعلى قدرته على ضبط الأمور بها<sup>(١)</sup>.

وما حدث بعد ذلك من اضطراب أحوال السلطان الناصر فرج بن برقوق، وخروج الكثير من أمراء المماليك عليه، ووقوفهم ضده، وقيامه بالتخلص من العديد منهم، ومناصبته العداة لكل من الأميرين نوروز وشيخ، جعله يضطرب في سياسته، فلم تكن قراراته في تلك الفترة تتميز بالثبات والاتزان، وجاءت معظمها في غير محلها، كما أصبح غير قادر على تمييز الصحيح من الزائف، وأعطى أذنيه للوشاة وعديمي الضمير مما جعله يتخبط في قراراته<sup>(٢)</sup>.

ونتيجة لما أمسى فيه الناصر فرج من اضطراب شديد فقد سمع وشاية بعض الوشاة من عدم إخلاص الأمير الشريف حسن بن عجلان له، وميله إلى غرمائه من أمراء المماليك، لذلك أسر إلى أمير ركب الحج المصري الأمير بيسق الشيخي عام ٨١٢هـ/١٤١٠م بأن يقوم بعزل الشريف حسن بن عجلان عن حكم بلاد الحجاز،

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ١٥٥؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤،

ص ٧٣٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ١٣٥.

(٢) ابن داود الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٢١٢-٢١٧.

- الأمير نوروز : هو نوروز الحافظي الظاهري برقوق، أحد أمراء المماليك ذوى الشهرة الفائقة في عصر المماليك، تنقل في مختلف الوظائف، وخرج على السلطان الناصر فرج، ثم ناصب المؤيد شيخ العداة، قُتل في شهر ربيع الآخر من عام ٨١٧هـ/يونيه ١٤١٤م. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٠٤-٢٠٥.

- الأمير شيخ محمودي ثم الظاهري برقوق : قَدِم إلى القاهرة في عام ٧٨٣هـ/١٣٨١م، تنقل في مختلف الوظائف في زمن سلطنة الظاهر برقوق، ثم خرج على السلطان الناصر فرج بن برقوق، وتولى السلطنة بعد مقتل الناصر فرج في عام ٨١٥هـ/١٢١٤م، واستمر في الحكم حتى وفاته في شهر المحرم من عام ٨٢٤هـ/يناير ١٤٢١م. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٣٠٨-٣١١.

والقبض عليه وعلى ولديه، وأراد أن يجعل هذا القرار سرًا يفاجئ به الشريف حسن حتى لا يأخذ استعدادَه، ويلجأ إلى المقاومة<sup>(١)</sup>.

غير أن هذا السر أفشى ووصل إلى أسماع الشريف حسن بن عجلان الذي أخذ في الاستعداد لمواجهة هذا العمل المفاجئ، وأخذت مساعيه في مقر السلطنة المملوكية تأخذ مجراها لتثبيت وضعه في بلاد الحجاز، وقد آتت هذه المساعي التي بذلها أكلها، فلم يلبث أن عدل السلطان الناصر فرج عن قراره بعزل الشريف حسن عن إمرة بلاد الحجاز، وسارع بإخبار أمير ركب المحمل المصري الأمير بيسق الشيخى بهذا القرار، وبعد محاربة الشريف حسن، حيث أرسل إليه على جناح السرعة خادمه الحاج فيروز الساقى حاملاً خلعَه وتقليدًا بإمرة مكة المكرمة وبلاد الحجاز للشريف حسن بن عجلان، وتثبيتته هو وولديه في حكم تلك البلاد<sup>(٢)</sup>.

ومما يؤسف له أنه من مظاهر الفساد التي تفشت في دولة المالِك في تلك الفترة، انتشار الرشوة، وهو ما عبّرت عنه مصادر ذلك العصر بعبارة "البذل والبرطلة"، وقد وصل الأمر إلى حد أن معظم الوظائف كان يتم السعي إليها بأموال

(١) الفاسى: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٨.

- كان هذا الواشى هو جابر بن عبدالله المعروف بالحرّاشى، تردد على مكة كثيرًا إلى أن أقامه الشريف حسن مشرفاً على أمور ميناء جدة، ثم غضب عليه الشريف حسن، ومن هنا أخذ في السعي ضده عند السلطان الناصر فرج، وبعد أن خاب سعيه أقام في ينبع، ثم أخذ في إثارة صاحب اليمن ضد الشريف حسن بن عجلان، ثم ذهب إلى مصر في عام ١٤١٢/٥٨١٥م بعد مقتل الناصر فرج، فقبض عليه، وأرسل مكبلاً بالحديد إلى مكة المكرمة، حيث أجاره بعض القواد بمكة، فعفا عنه الشريف حسن، وأعادَه إلى بعض الوظائف بجدة، لكنه سعى بعد ذلك لإثارة الفتنة بمكة المكرمة مما أدى إلى صدور قرار بقتله، وتم شنقه في ليلة الخميس ١٥ ذى الحجة من عام ٥٨١٦/٨ مارس ١٤١٤م. انظر: الفاسى: العقد الثمين، ج ٣، ص ص ٤٠٠-٤٠٣.

(٢) الفاسى: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٨.



تدفع للسلطان وأولى الأمر<sup>(١)</sup>.

وقد اتبع الشريف حسن بن عجلان نفس هذا الأسلوب، حيث التزم بتسليم مبلغ معين للسلطان نظير إقراره على إمرة بلاد الحجاز، ويشير الفاسى إلى أن فيروز الساقى لم يعد إلى الديار المصرية بصُحبة ركب الحج المصرى، وإنما تأخر بمكة المكرمة "لقبض ما التزم به السيد حسن من الخدمة، وذلك ألف زكبية للسلطان، غير ما لفيروز!!" ويبدو أن هذه الزكائب كانت مملوءة بالغلال، ويشير الفاسى إلى أنها بيعت بالديار المصرية بمبلغ "خمسين ألف متقال"<sup>(٢)</sup>.

غير أن ما قام به الشريف حسن بن عجلان من سعي لوقف قرار السلطان الناصر فرج بعزله عن إمرة بلاد الحجاز، ودرئه لما كان سَيَتَّبِعُه من عدم الاستقرار بتلك البلاد لهو أمر يحسب للشريف حسن بن عجلان؛ لأنه نتج عن إلغاء قرار العزل بهذه السرعة أن تم تلافى حدوث الاضطراب والحرب والقتال ببلاد الحجاز كلها، وهذا هو ما دفع المؤرخ المعاصر الفاسى إلى التعليق على ذلك بقوله: "لم يظهر لهذا أثر بمكة"<sup>(٣)</sup>.

لكن هذا لا يعني عدم حدوث أية اضطرابات على الإطلاق بمكة المكرمة على إثر هذا التصرف الأهوج للسلطان الناصر فرج، والذي لم يكن مبعثه سوى ابتزاز أمير بلاد الحجاز الشريف حسن بن عجلان، والاستيلاء على أكبر قدر من المال. وقد أفصح عن ذلك المؤرخ ابن داود الصيرفى عندما قال: "وقع فى هذه السنة بمكة خُباط كثير بسبب تولية الشريف ابن المبارك بمكة عوضاً عن حسن بن

(١) عن البذل والبرطلة، انظر: أحمد عبدالرازق: البذل والبرطلة زمن سلاطين المالِك، القاهرة، ١٩٧٩م.

(٢) العقد الثمين، ج ٤، ص ١٠٨.

(٣) شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٩.

عجلان<sup>(١)</sup>.

وقد كان هذا نتيجة طبيعية لما انتشر خبر عزل الشريف حسن بن عجلان وتولية الشريف ابن المبارك مما أثار خباطاً؛ أي فتنة واضطراباً شديداً، ولكن سرعان ما عاد الهدوء والاستقرار إلى بلاد الحجاز بسبب سرعة مداواة الشريف حسن بن عجلان للموقف، ودرء تلك الحرب التي كانت متوقعة بين أمير الحج بيسق الشيخى وبين الشريف حسن بن عجلان وأنصاره.

كذلك فإنه مما يضاف إلى قدرة الشريف حسن بن عجلان على ضبط الأمور، عدم إثارة القلاقل ببلاد الحجاز، واستقباله لقرار عزله بهدوء تام، فلم يقم بأعمال عنف، وإنما على العكس من ذلك، فقد كان الوقت مؤذناً بقدم موسم حج عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، لذلك أراد أن يشمل الحجاج الأمن والاطمئنان حتى لا يصاب أحد منهم بأذى، واستمر هادئاً إلى أن وصل إليه تقليد باستمراره في ولاية بلاد الحجاز<sup>(٢)</sup>.

وعلى هذا النحو استعاد الشريف حسن بن عجلان مكانته على الرغم من وشاية الحاقدين عليه، واسترد ولايته على بلاد الحجاز كلها، وقام السلطان الناصر فرج - على الرغم مما كان يمر به من ظروف سيئة - بإرسال تشريف له في بداية شهر ربيع الآخر من عام ١٤١٣هـ/ أغسطس ١٤١٠م مما زاد من قوة الشريف حسن بن عجلان ببلاد الحجاز، وأخذت العلاقات تزداد قوة بينه وبين الناصر فرج لدرجة أنه عندما تعطلت السفارات بينهما بسبب الظروف التي أحاطت بالسلطان الناصر فرج أرسل الشريف حسن أحد خواصه إلى السلطان في شهر ذي الحجة من عام

(١) نزهة النفوس والأبدان، ج ٢، ص ٢٦٠.

- الخباط هو الصرع، خبط فلان أي أصيب بعله الصرع، واختببت البلاد أي وقعت فيها الفتن والغارات. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ج ١، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٩.

٤١١/هـ ١٤١١م حاملاً معه هدية، وأمره بالوقوف على حقيقة وضع السلطان، فعرف أن السلطان قد توجه إلى بلاد الشام.

وإذا كان السلطان الناصر فرج قد تم قتله في ١٦ صفر من عام ٥٨١٥/هـ ٢٩ مايو ٤١٢م، فإنه لم يلبث أن وصلت في ٢٠ جمادى الآخرة من عام ٥٨١٥/هـ ٢٨ سبتمبر ٤١٢م إلى الشريف حسن رسالة من الخليفة المستعين بالله العباسي الذي تولى سلطنة المماليك إلى جانب قيامه بأمر الخلافة ينهى إليه فيها ما صار من أمر السلطان الناصر فرج من القتل، وقيامه بأمر السلطنة، وتفويضه للأمير شيخ بالقيام بتدبير شئون سلطنة المماليك، وفي نفس الوقت يخبره بإقراره على ما بيده من ولايات<sup>(١)</sup>.

ومن الأمور التي يجب التوقف عندها أنه بعد وصول تلك الرسالة إلى الشريف حسن بن عجلان تم الدعاء للخليفة العباسي المستعين بالله، ومن بعده للأمير شيخ على منابر المسجد الحرام، وذلك على الرغم من أن أشرف مكة لم يسبق لهم الدعاء لأحد من الخلفاء العباسيين الذين أقامهم المماليك في مصر منذ عام ٦٦١/هـ ٢٦٣م، وقد أشار إلى ذلك المؤرخ الفاسي بقوله: "وكان الدعاء للخليفة بمكة مقطوعاً من دهر طويل جداً"<sup>(٢)</sup>، ومن الملاحظ أيضاً أنه بعد عزل الخليفة المستعين من السلطنة، وإقامة السلطان المؤيد شيخ مكانه، أسقط الدعاء باسم الخليفة العباسي من على منابر مكة المكرمة مما يدل على أن الدعوة للخليفة المستعين على منابر مكة المكرمة كانت بوصفه سلطاناً، وليس بوصفه خليفة للمسلمين.

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ١١٢.

- عن سلطنة الخليفة المستعين بالله العباسي، انظر: حامد زيان: صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك، الخليفة المستعين بالله العباسي سلطان الديار المصرية، ص ص ٢٧-٥١.

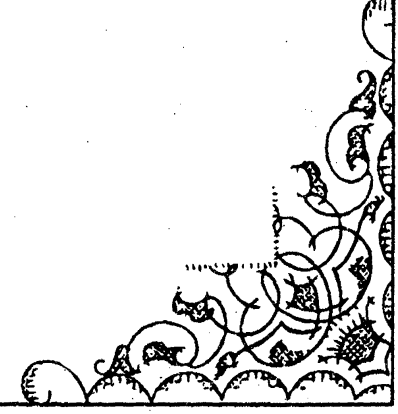
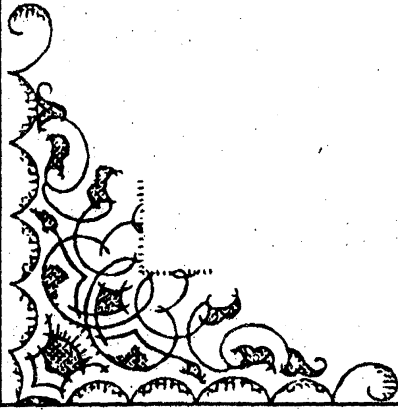
(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ١١٢.





**الفصل الرابع**

**تمسك سلاطين الممالك  
بالشريف حسن بن عجلان**





بعد أن تولى المؤيد شيخ سلطنة المماليك أرسل إلى الشريف حسن بن عجلان في شهر شعبان من عام ٨١٥هـ/نوفمبر ١٤١٢م كتابا يفيد بإقراره على ولاية بلاد الحجاز، كما أرسل إليه الخلع والتشريف السلطانية، وهو ما يعنى رضا السلطان المؤيد شيخ عن الشريف حسن بن عجلان<sup>(١)</sup>.

ومما يؤكد على تلك العلاقة الطيبة أنه عندما قدم إلى مصر في أواخر عام ٨١٥هـ/١٤١٣م أولاد أخيه محمد بن عجلان شاكين من عمهم الشريف حسن بن عجلان، لم يعرهم السلطان المؤيد شيخ انتباها، أو على حد تعبير المؤرخ الفاسي: "فما وجدوا بها كبير وجه"<sup>(٢)</sup>، وتم نصحهم بأن يعودوا إلى عمهم الشريف حسن بن عجلان، وسوف يقوم بإرضائهم<sup>(٣)</sup>.

كذلك فإن السلطان المؤيد شيخ بعد أن لجأ الحراشي إلى مصر في أواخر عام ٨١٥هـ/١٤١٣م، وهو ذلك الرجل الذى كان قد وشى بالشريف حسن بن عجلان - كما سبقت الإشارة - أصدر قرارا بأن يتم تسليمه للشريف حسن بن عجلان ليرى فيه رأيه، وبالفعل تم القبض عليه، ووضع القيد فى يديه، وتم ترحيله إلى مكة المكرمة بصحبة ركب الحج المتوجه إليها<sup>(٤)</sup>، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على تلك المودة، وذلك الصفاء الذى ساد علاقة الشريف حسن بن عجلان بالسلطنة المملوكية فى السنوات الأولى من حكم السلطان المؤيد شيخ.

والواقع أن الشريف حسن بن عجلان لم يحز فقط فى تلك الفترة على رضا السلطان المؤيد شيخ، وإنما حاز أيضا على رضا أهالى مكة المكرمة بعد أن قام بعدة أعمال خيرية منها قيامه بالإنفاق على البيمارستان المستنصرى الواقع فى

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ١١٢.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ١١٢.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ١١٢.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ١١٤.

الجانب الشامي من المسجد الحرام، وأوقفه على المجانين والضعفاء، كما أصلح هذا الليمارستان، كذلك قام بإنشاء رباط آخر بأجباد ووقفه على الفقراء<sup>(١)</sup>.

ولكن على الرغم من حُسن إدارة الشريف حسن بن عجلان لمكة المكرمة، ومحبة أهلها له، إلا أن السلطان المؤيد شيخ لم يلبث أن أصدر في شهر صفر من عام ٨١٨هـ/ أبريل ١٤١٥م قراراً بعزله عن نيابة بلاد الحجاز، وعزل ابنه بركات عن إمرة مكة المكرمة، وإقامة ابن أخيه رُميثة بن محمد بن عجلان مكانه في ولاية الحجاز، ومكان ابنه بركات في إمرة مكة المكرمة<sup>(٢)</sup>.

وهذا الأمر يجعلنا نتساءل عن الأسباب التي دفعت السلطان المؤيد شيخ إلى عزل الشريف حسن عن ولاية بلاد الحجاز، وعزل ابنه بركات عن إمرة مكة المكرمة على الرغم من حسن إدارتهما للبلاد؟! وحب أهلها لهما؟

ولعل أول ما يجب الالتفات إليه هو تلك الوشاية التي قام بها أولاد أخيه محمد بن عجلان، وبخاصة الشريف رميثة بن محمد بن عجلان الذي أخذ يتردد على القاهرة منذ زمن بعيد محاولاً الدس والوقية ضد عمه الشريف حسن بن عجلان حتى نال غرضه عندما أصدر السلطان المؤيد شيخ قراراً بعزل عمه الشريف حسن عن نيابة الحجاز، وعزل ابن عمه بركات بن حسن بن عجلان عن إمرة مكة المكرمة، وأقره مكانهما في ١٤ صفر من عام ٨١٨هـ/ ٢٥ أبريل ١٤١٥م<sup>(٣)</sup>.

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١١٥.

- الليمارستان: لفظ فارسي مكون من كلمتين: " بيمار " بمعنى مريض، و" ستان " بمعنى مكان، فيصبح المعنى بيت المرضى، انظر: المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٠٤؛ وانظر أيضاً: أحمد عيسى: تاريخ الليمارستانات في الإسلام، دمشق ١٩٣٩م، ص٤.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٢٠٩.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٢٠٩.



كذلك فإن ما حدث في موسم حج العام السابق (عام ٨١٧هـ) من مشاحنة بين أمير ركب الحج المصري الأمير جقمق الأرغون شادى الدوادار والأمير الشريف حسن بن عجلان، والتي أدت إلى حدوث معارك داخل الحرم الشريف، وإذا كانت هذه المشاحنات قد انتهت، فإنها قد خلّفت وراءها الكثير من الأضرار، حيث أصيب الكثير من الحجاج، وتعرضت بضائعهم للنهب والسرقة<sup>(١)</sup>، ولا شك في أن ما نقله الأمير جقمق للسلطان المؤيد شيخ مما حدث للحجاج من أضرار كان له أثر سيئ على علاقة السلطان المؤيد شيخ بالشريف حسن بن عجلان.

ومن جهة ثالثة فإن ما حدث من انتشار الغلاء بمصر فى بداية عام ٨١٨هـ/١٤١٥م نتيجة انخفاض ماء النيل، وما حدث من قلة قدر ما تم حصاده من محصول القمح جراء ذلك، بالإضافة إلى انتشار الفئران فى حقول مصر، والتي أفسدت البقية الباقية من هذا المحصول مما أدى إلى حدوث غلاء شديد فى أسعار القمح نتيجة تعذر وجوده، وزاد الأمر سوءاً تلك الحشود من عسكر المماليك التي توجهت إلى كل من البحيرة وبلاد الصعيد من أجل القضاء على بعض الفتن التي أثرت فى تلك البلاد، كل ذلك أدى إلى نقص كبير فى الغلال<sup>(٢)</sup>.

فما كان من الشريف حسن بن عجلان عندما أدرك ازدياد تلك الأزمة إلا أن أرسل إلى مصر لشراء كميات كبيرة من القمح لتخزينها، ويشير المقريزى إلى ذلك بقوله: "قذف (أى سار) إلى أرض مصر من هذه البلاد (أى بلاد الحجاز) خلائق

(١) الفاسى: العقد الثمين، ج٤، ص ١١٩؛ المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤،

ص ٢٩١؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٢٤-٢٥.

- الأمير جقمق الأرغون شادى الدوادار: تنقل فى الوظائف حتى ولى داوداراً ثانياً للسلطان المؤيد شيخ، ثم بعد وفاة المؤيد أثار فتنة أوجبت القبض عليه، وقام السلطان ططر بالقبض عليه وقتله فى عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م. انظر: السخاوى: الضوء اللامع،

ج٣، ص ٧٤-٩٥.

(٢) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٣٣٠.

كثيرة لشراء القمح، فحملوا منه ما لا يقدر قدره" (١).

ولا شك في أن الحاقدين على الشريف حسن بن عجلان قد انتهزوا ذلك، وأوغروا صدر السلطان المؤيد شيخ عليه، ونقلوا إليه قيام الأمير الشريف حسن بن عجلان بنقل الغلال إلى بلاد الحجاز مما زاد من حدة الأزمة بالديار المصرية، خصوصا أن البلاد المصرية قد شهدت في عام ١٤١٥/٥٨١٨م غلاءً شديداً في أسعار القمح، مع قلة وجوده، وعز وجود الخبز بالقاهرة (٢)، كل ذلك بالإضافة إلى ما سبق من أسباب أدت إلى غضب السلطان المؤيد شيخ من الشريف حسن بن عجلان.

غير أن الشريف رُميثة بن محمد بن عجلان الذي تولى أمر مكة المكرمة وبلاد الحجاز لم يكن الشخص الذي يمكن الاعتماد عليه، فأساء كثيرا إلى أهل مكة المكرمة، وعلى الرغم من أن الشريف حسن بن عجلان أثر عدم محاربتة بمجرد علمه بعزله، وانسحب من مكة المكرمة هو وأتباعه، واتجه صوب جدة، وأقام بها، تاركا مكة المكرمة ليدخلها الشريف رُميثة بن محمد بن عجلان دون أن ينازعه في أمرها (٣). إلا أن الشريف رميثة أساء السيرة بها مما أدى إلى قلة مناصريه، وازدياد تمسك أهالي مكة المكرمة بالشريف حسن بن عجلان، وقد وصفت المصادر الشريف رُميثة بأنه كان سيئ السيرة، ولم تحمد سيرته (٤).

وبعد أن هدأت الأمور بالديار المصرية عقب موسم حصاد عام ٥٨١٩هـ

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص٣٣٠.

(٢) عن هذه الأزمة، انظر: حامد زيان: الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٧٦-٧٩.

(٣) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص٣٦٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١٠٤.

(٤) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص٩٢٣؛ ابن تغرى بردى: المنهل الصافي، ج٥، ص٣٥٧؛ ابن داود الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٣، ص٢٩٤.

١٤١٦م، حيث كان المحصول وفيراً، ورخصت الأسعار، وبلغ ماء النيل زيادة كبيرة حيث بلغ في شهري شعبان وسبتمبر عشرين ذراعاً<sup>(١)</sup>، أرسل الشريف حسن بن عجلان ابنه الشريف بركات في شهر رمضان من نفس العام (٨١٩هـ) محملاً بالهدايا إلى السلطان المؤيد شيخ وبخاصة الخيول العربية<sup>(٢)</sup>. فاستقبله السلطان المؤيد شيخ استقبالاً طيباً، وقبل منه الهدايا، كما أنزله منزلاً طيباً، وأجرى عليه راتباً أثناء مقامه بالديار المصرية<sup>(٣)</sup>.

وأثناء هذه الزيارة استعطف الشريف بركات السلطان المؤيد شيخ، وطلب منه إعادة والده إلى إمرة مكة المكرمة، وقد استجاب السلطان المؤيد شيخ لطلب الشريف بركات، وأصدر تقليداً للشريف حسن بن عجلان بإمارة مكة المكرمة مؤرخاً في ١٨ رمضان من عام ٨١٩هـ / ١١ نوفمبر ١٤١٦م، وأرسل معه خلعة، ومجموعة من الجنود الخاصكية المؤيدية، والنجّابة السلطانية، حيث اتجه الجميع إلى جدة حيث كان يقيم الشريف منذ عزله عن ولاية بلاد الحجاز، فوصلوا إليه في أوائل شهر شوال من عام ٨١٩هـ / نوفمبر ١٤١٦م<sup>(٤)</sup>.

(١) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٣٦٤.

(٢) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٣٦٤.

- يذكر الفاسي أن ذهاب الشريف بركات لمقابلة السلطان المؤيد شيخ كان في شهر رجب

وليس في شهر رمضان، انظر العقد الثمين، ج٤، ص ١٢٢.

(٣) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٣٦٦، ٣٧٠.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص ١٢٢.

- الخاصكية المؤيدية: فرقة من المماليك كانت تلازم السلطان، أطلق عليهم الخاصكية،

فهم خاصته. انظر: ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك في بيان الطرق

والمسالك، تصحيح بولس راويس، باريس، ١٨٩٤م، ص ١١٦.

- النجّابة السلطانية: فرقة كانت تقوم بإظهار فضل الشخص، والثناء عليه، وهي من

الكلمة نجّب من نجابة وهي التنبيه، وإظهار فضل الشخص على من كان مثله. انظر:

المعجم الوسيط، ج٢، ص ٩٣٧.

والواقع أن إدراك السلطان المؤيد شيخ لعجز الشريف رُمَيْثَة بن محمد بن عجلان عن إدارة إمارة مكة المكرمة، ثم غضب أهلها عليه، وفي نفس الوقت ما يتمتع به الشريف حسن بن عجلان من حُسن إدارة وسياسة، كان وراء إعادة الأخير إلى إمارة مكة المكرمة.

وما أن وصل تقليد السلطان المؤيد شيخ للشريف حسن بن عجلان بإمرة مكة المكرمة حتى أخذ الأخير في الاستعداد، وجمع أتباعه وقواده للمسير إليها<sup>(١)</sup>.

غير أن الشريف رُمَيْثَة بن محمد بن عجلان رفض مغادرة مكة المكرمة مما أدى إلى نشوب قتال عنيف بين أتباعه وبين أتباع الشريف حسن بن عجلان انتهى بحدوث عدة إصابات كان معظمها في جانب أتباع رُمَيْثَة، وانتهى الأمر بتدخل جماعة من الفقهاء والصالحين بمكة، وأقنعوا رُمَيْثَة بضرورة الخروج من مكة، والامتثال لأمر السلطان المؤيد شيخ، وأخيراً استجاب رُمَيْثَة لوساطتهم، وخرج من مكة المكرمة متوجهاً إلى بلاد اليمن<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن خرج رُمَيْثَة وأتباعه من مكة المكرمة دخلها الشريف حسن بن عجلان في صباح يوم ٢٦ شوال من عام ١٨١٩هـ / ١٨ ديسمبر ١٤١٦م، حيث دُعي له على منابرها<sup>(٣)</sup>، واستمر ذلك إلى ١٤ صفر من عام ١٨٢٤هـ / ١٩ فبراير ١٤٢١م، حيث أشرك معه في إمرتها ابنه الشريف زين الدين بركات، ودُعي لكل منهما على منابر مكة المكرمة بعد موافقة السلطان المظفر شهاب الدين أبي السعادات أحمد بن الملك المؤيد شيخ على ذلك، وإرساله رسالة تفيد بذلك، وقد وصلت هذه الرسالة إلى مكة المكرمة في ١٢ من شهر ربيع الأول من عام ١٨٢٤هـ /

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص٣٧٠.

(٢) الفاسى: شفاء الغرام، ج٢، ص٢١٠؛ المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ص٣٧٠، ٣٧١.

(٣) الفاسى: شفاء الغرام، ج٢، ص٢١٠؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٩٧.

١٨ مارس ١٤٢١م<sup>(١)</sup>.

ويشير الفاسي -وهو المؤرخ المكي المعاصر لهذه الأحداث- إلى أن الشريف حسن بن عجلان كان يريد أن يشرك ابنه إبراهيم مع ابنه بركات في إمرة مكة المكرمة، ويكون لكل منهما ثلث الحاصل من إمرتها، لكن جماعة القواد رفضوا ذلك لأنه في هذه الحالة سوف يلغى الرسوم التي كانت مقررة لهم في كل سنة، كما أن مدير السلطنة المصرية الأمير ططر رفض هو الآخر هذا الطلب، وكتب إلى الشريف حسن بن عجلان رسالة تفيد بأنه "لا نثق في أمر مكة إلا بك ولكنك استتب من شئت"<sup>(٢)</sup>.

وإذا أمعنا النظر في رسالة الأمير ططر إلى الشريف حسن بن عجلان التي يقرر فيها أنه لا يثق في أمر مكة المكرمة إلا في أن يقوم هو بأمرها، ويُفوض إليه من ينيبه عنه في حكمها، يتضح مدى الثقة التي وضعها سلاطين المالِك في

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص ١٣٩.

- السلطان المظفر شهاب الدين أبي السعادات أحمد: تولى السلطنة بعهد من والده، وعمره في ذلك الوقت عام واحد وخمسة أشهر وأيام، وتولى الأمير ططر تدبير أمور السلطنة، واستمر أحمد على السلطنة منذ وفاة والده في ٩ محرم من عام ٨٢٤هـ/ ١٥ يناير ١٤٢١م حتى عزله الأمير ططر، وجلس مكانه في السلطنة في ٢٩ شعبان من عام ٨٢٤هـ/ ٣٠ أغسطس عام ١٤٢١م بعد أن دام حكم السلطان المظفر أحمد سبعة أشهر وعشرين يوماً. انظر المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٥٦٣-٥٨١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ١٦٧-١٩٧.

(٢) العقد الثمين، ج٤، ص ١٤٢.

- السلطان الظاهر ططر: قدم به بعض التجار إلى القاهرة في عام ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م، واشتراه السلطان الظاهر برقوق، وبعد وفاة برقوق أعتقه ابنه الناصر فرج، وأخذ يترقى إلى أن تولى السلطنة في ٢٩ شعبان من عام ٨٢٤هـ/ ٣٠ أغسطس ١٤٢١م، ولم تطل سلطنته فقد توفي في ٤ ذي الحجة من نفس العام (١٤٢١هـ)، وكانت مدة سلطنته ٩٤ يوماً. ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق: فهم محمد شلتوت، القاهرة، ١٩٩٨م، ج١، ص ٤٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص ٨.

شخص الشريف حسن بن عجلان<sup>(١)</sup>.

وبعد أن تولى السلطنة الظاهر سيف الدين ططر في ٢٩ شعبان من عام ٥٨٢٤هـ / ٣٠ أغسطس ١٤٢١م أقر الشريف حسن بن عجلان على إمرة مكة المكرمة، كما قرر له مبلغ ألف دينار ذهباً تحمل إليه من خزانة مصر في كل عام، وذلك في مقابل ألا يؤخذ مكس من تجار الحبوب والخضراوات والفاكهة، وذلك حتى يتم تخفيض تلك السلع لأهالي مكة المكرمة والزائرين والحجاج، وقد أراد السلطان الظاهر ططر أن يخبر كل الموجودين بمكة المكرمة بذلك حتى لا يرفع التجار أسعار تلك السلع، فأمر أن يكتب ذلك على سوارى المسجد الحرام من ناحيتي باب السلام، وباب الصفا؛ أى من ناحيتي الدخول والخروج من المسجد الحرام<sup>(٢)</sup>.

وقد تكررت تلك الثقة مرة أخرى بعد تولية السلطان الأشرف برسباي السلطنة المملوكية في ٨ ربيع الآخر من عام ٥٨٢٥هـ / ٢ أبريل ١٤٢٢م، حيث أرسل رسالة إلى الشريف حسن بن عجلان في أوائل شهر ذي القعدة من عام ٥٨٢٥هـ / أكتوبر ١٤٢٢م يُقرُّه على إمرة مكة المكرمة، ويقول له فيها: "إنه بلغنا عنك تخيلك أن نريد بك الاستبدال، ولا يعقل لمكانتك عندنا، وإن غبت عن عيننا فأنت في القلب"، كما فوض إليه أمر من ينيبه عنه في حكمها من أبنائه<sup>(٣)</sup>.

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ١٤٦.

(٢) النهروالي: كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٢٠٥.

- يذكر النهروالي أن هذه الكتابة مازالت موجودة إلى أيامه، أى إلى أواخر القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، فقد توفى النهروالي في عام ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤، ص ١٤٦.

- السلطان الأشرف برسباي: جركسي الأصل، اشتراه الأمير دقماق المحمودي، وقدمه إلى السلطان الظاهر برقوق، ومن هنا حمل اسم برسباي الدقماقي المحمودي الظاهري، ثم اعتقه برقوق، وأخذ في الترقى في مختلف الوظائف حتى قفز إلى عرش السلطنة=

وهكذا فإن ثقة سلاطين المماليك في شخص الشريف حسن بن عجلان كانت كبيرة، ولم تتغير بتغير السلاطين والحكام، فلم يتصور أحد من سلاطين المماليك أن يتولى حكم مكة المكرمة سوى الشريف حسن بن عجلان، ويصبح هو المسئول أمامهم، وينيب في إمرتها من يشاء من أولاده.

---

=المملوكية في شهر ربيع الآخر من عام ٨٢٥هـ/ أبريل ١٤٢٢م، واستمر في السلطنة إلى حين وفاته في شهر ذي الحجة من عام ٨٤١هـ/ يونيو ١٤٣٨م. انظر: المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ص ٦٠١-٦٠٦؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٨٠٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ١٨٨.





## الفصل الخامس

توتر علاقة الشريف حسن بن عجلان  
بالسلطان الأشرف برسبائي



بعد أن مرت عدة سنوات على تولى السلطان الأشرف برسباى السلطنة المملوكية أخذ وضع الشريف حسن بن عجلان فى الاضطراب، فبعد مرور ثلاث سنوات على صدور قرار برسباى بإقراره على إمرة مكة المكرمة، وبأنه فى القلب، وأنه لا يثق إلا به، إذ به يصدر قرارا فى منتصف ربيع الأول من عام ١٨ / ٥٨٢٧م فبراير ١٤٢٤م بعزله عن ولاية بلاد الحجاز، وعزل ولده بركات عن إمرة مكة المكرمة، وعهد بأمرهما إلى الشريف على بن عنان بن مُغامس بن رُميثة الحسنى<sup>(١)</sup>، الأمر الذى يدعو إلى التساؤل عن الأسباب التى أدت إلى ذلك؟؟

فالمعروف أن السلطان الأشرف برسباى اهتم اهتماما كبيرا بالنواحى المالية، حيث كان محبا لجمع الأموال، كما قام باحتكار التجارة، والكثير من أصناف المزروعات ذات الأهمية مثل زراعة قصب السكر<sup>(٢)</sup>.

كما كان لأهمية ميناء جُدَّة، وما يدره من ربح مالى وفير أثره فى لفت نظر السلطان برسباى، وأولاه اهتمامه فى ذلك الوقت، ولنفس هذا السبب أصدر السلطان الأشرف برسباى قراره بعزل الشريف حسن بن عجلان عن إمرة مكة المكرمة. وذلك حتى يتفرد بالإشراف على هذا الميناء دون أن ينازعه أحد فى ذلك.

والمعروف أن ميناء جُدَّة أو ما أطلق عليه اسم بندر جُدَّة<sup>(٣)</sup> كان تابعا أو

(١) الفاسى: العقد الثمين، ج٤، ص ص ١٤٧-١٤٨.

- الشريف على بن عنان بن مُغامس بن رُميثة بن أبى نُمى محمد بن أبى سعد حسن بن على بن قتادة الحسنى المكى، توفى بالقاهرة أثناء سجنه بقلعة الجبل فى عام ٥٨٣٣/١٤٣٠م. انظر: السخاوى: الضوء اللامع، ج٥، ص ص ٢٧٢، ٢٧٣.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ١١٨.

(٣) بندر كلمة فارسية بمعنى مرسى السفن فى الميناء، وجُدَّة كما نطقها الجغرافيون العرب بضم الجيم وتشديد الدال، مرسى مكة المكرمة، بينهما أربعون ميلاً. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص ١١٤؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ص ١٠١، ١٠٢؛ المعجم الوسيط، ج١، ص ٧٣.

واقعا تحت إشراف أمير مكة المكرمة، وكان هذا الميناء يستقبل التجار القادمين من اليمن، وبخاصة أولئك المعروفون بتجار الكارم؛ وهم تجار العطور والبهار، وكان يدر أموالا طائلة نتيجة المكوس التي كانت تفرض على التجار، وكانت هذه الأموال تذهب إلى أمير مكة المكرمة<sup>(١)</sup>.

وقد استمر ذلك حتى زمن السلطان الأشرف برسباي الذي لم يعجبه هذا الأمر، وأراد أن يصبح الإشراف على ميناء جدة تابعا له، لذلك أقدم على عزل الشريف حسن بن عجلان الذي كان يسيطر على هذا الميناء سيطرة كاملة، وله مجموعة من القواد المتمركزين في جدة.

وتشير المصادر التاريخية إلى أن الذي لفت نظر السلطان الأشرف برسباي إلى أهمية ميناء جدة، وما يدره من أموال هو الأمير يشبك الساقى الأعرج الذى قضى عدة سنوات بجدة<sup>(٢)</sup>، وعرف أهمية هذا الميناء، وما يتم تحصيله منه من أموال، لذلك أشار على السلطان الأشرف برسباي بالاهتمام بأمر هذا الميناء، ولما كان لدى السلطان الأشرف برسباي اهتمام كبير بجمع الأموال، فقد أصدر قرارا بأن تكون متحصلات هذا الميناء من المكوس خاصة بالسلطان<sup>(٣)</sup>.

وبالإضافة إلى ذلك فإن ميناء جدة صار مرفأ لتجارة الهند التي كانت ذات أهمية كبيرة فى ذلك الوقت، ويشير المقريزى إلى أن ميناء جدة لم يكن مرفأ لتجار الهند قبل عام ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م، حيث كان ميناء عدن هو الذى يستقبل هؤلاء

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٢٧١؛ وانظر أيضا: على بن حسين السليمان، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين الممالِك، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١٦٥.

(٢) الأمير يشبك الساقى الظاهرى برقوق يعرف بالأعرج لعرج أصاب جانبه الأيمن، نفاه المؤيد شيخ إلى مكة المكرمة، فأقام بجدة، ثم أفرج عنه وعاد إلى القاهرة، وبعد تولى الأشرف برسباي السلطنة تقدم فى زمنه، ثم انحط شأنه حتى وفاته فى عام ٨٣١هـ / ١٤٢٨م. انظر السخاوى: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ص ٢٧٦، ٢٧٧.

(٣) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٦٨٠.

التجار، لكن ربابين وتجار الهند تضايقوا من معاملة حكام اليمن السيئة لهم، لذلك تركوا ميناء عدن، وتوجهوا إلى جدة، وكان أول هؤلاء الربابيين الهنود الذين توجهوا إلى ميناء جدة كما يذكر المقریزی: ناخذه - أي ربان - اسمه إبراهيم، وذلك في عام ٨٢٥هـ، فرحب به الشريف حسن بن عجلان، وطرح ما معه من البضائع على التجار، مما جعل إبراهيم هذا يأتي في العام التالي ٨٢٦هـ / ١٤٢٣م إلى جدة، وهكذا تتابع بعد ذلك وصول تجار الهند إلى جدة<sup>(١)</sup>.

وكانت المتحصلات الواردة من ميناء جدة وفيرة لدرجة أسالت لعاب السلطان الأشرف برسباي بمجرد سماعه بذلك، فأرسل في ٧ ربيع الأول من عام ٨٢٨هـ / ٢٧ فبراير ١٤٢٥م إلى مكة المكرمة فرقة عسكرية مكونة من مائة مملوك على رأسها الأمير أرم بغا (أرنبغا) يصاحبه الكاتب سعد الدين إبراهيم بن المرة؛ وذلك لتحصيل الضرائب المفروضة على المراكب الواصلة من الهند إلى ميناء جدة<sup>(٢)</sup>.

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٦٨١؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٢٧١.  
- الربان هو رئيس الملاحين، والجمع ربابين، والناخذه هو مالك السفينة أو ربانها، والجمع نواخذة. راجع: المعجم الوسيط، ج ١، ص ٣٣٨، ج ٢، ص ٥٤٩.

(٢) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ق ٢، ص ٦٨١؛ ابن حجر: أبناء الغمر، ج ٨، ص ٦٤؛ النجم عمر بن فهد: إتحاف الوری بأخبار أم القرى، تحقيق: فهيم شلتوت، ج ٣، مكة المكرمة، ١٩٨٤م، ص ٦٢٠.

- الأمير أرم بغا (أرنبغا) اليونسي الناصري: كان أحد أمراء العشرات، ورأس نوبة في زمن السلطان الأشرف برسباي، ثم جاور بمكة المكرمة عدة سنوات مقدما على المماليك السلطانية بها، ثم تولى عدة وظائف أخرى إلى أن توفي في عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

- سعد الدين إبراهيم الناصري المعروف بابن المرة: عمل في عدة دواوين إلى أن تولى نظر الديوان المفرد في زمن السلطان الأشرف برسباي، ثم ولاه نظر بندر جدة، وحصل من وراء ذلك على ثروة طائلة، لكنه أنفقها لدرجة أنه في آخر زمانه مات فقيرا في ربيع الآخر من عام ٨٤٤هـ / سبتمبر ١٤٤٠م، وتصدق عليه بالكفن. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج ١، ص ١٨٤-١٨٥.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان للدور الذي قام به الشريف على بن مُغامس أثر كبير في عزل الشريف حسن بن عجلان عن ولاية بلاد الحجاز؛ فمن خلال الأحداث التي مرت بها مكة المكرمة في تلك الفترة ويفهم أن الشريف على بن مُغامس كان قد توجه إلى القاهرة، واتصل بالسلطان الأشرف برسباي، ولا يستبعد أن يكون قد بذل للسلطان مالا، أو وعده بقدر من المال في مقابل توليه إمرة مكة المكرمة، ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ الفاسي من أنه في يوم الجمعة نصف ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وثمانمائة وصل الخبر إلى مكة المكرمة بأن الشريف على بن عنان بن مُغامس بن رُميثة الحسنى توجه إلى مكة المكرمة في عسكر من مصر برئاسة الأمير قرقماش الشعباني، ومعنى ذلك أن الشريف على بن عنان بن مُغامس كان في القاهرة، وحصل على تقليد تولية إمرة مكة المكرمة في النصف من ربيع الآخر عام ٨٢٧/١٨ مارس ١٤٢٤م، وفي نفس التاريخ توجه إلى مكة المكرمة وبصحبه فرقة عسكرية مملوكية لتسانده في ولاية حكم مكة المكرمة<sup>(١)</sup>، الأمر الذي يكشف لنا دور الشريف على بن مُغامس في الدس على الشريف حسن بن عجلان.

ومما يؤكد وعود الشريف على بن مُغامس للسلطان الأشرف برسباي بدفع قدر من المال له نظير توليه إمرة مكة المكرمة هو قيامه بعد وصوله إلى مكة المكرمة بالتوجه إلى ميناء جدة في شهر جمادى الأولى لتحصيل الأموال من أولئك التجار الذين وصلوا إلى جدة حديثاً، وقد ساندته في ذلك بعض أمراء المماليك ومن

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٤٧.

- الأمير قرقماش الشعباني الظاهري برقوق، كان أحد مماليك السلطان الظاهر برقوق، ثم أعتقه ابنه الناصر فرج، وتقلد عدة وظائف، واستمر حتى مقتله في ١٢ ربيع الثاني من عام ٨٤٢/٤ أكتوبر ١٤٣٨م، وصفه السخاوي بقوله: "وكان أميراً ضخماً، متعظماً، متكبراً، ظالماً، مع تدبير ومكر وشجاعة وإقدام". انظر: الضوء اللامع، ج٦، صص ٢١٩، ٢٢٠.

معهم من الجنود<sup>(١)</sup>، وذلك حتى يجمع من الأموال ما يعينه على دفع ما تعهد به للسلطان برسباي.

وعلى كل حال فبعد أن تأكد الشريف حسن بن عجلان من قرار عزله عن إمرة مكة المكرمة، وفشل بعض المحاولات التي بذلها من أجل عودته إلى إمرتها أثر النزوح عنها، حيث توجه إلى نجد، وكما يقول الفاسي: تنزها عن الشر، وكراهة للفتنة<sup>(٢)</sup>.

ومن الأمور التي يجب ذكرها أن الأمير قرقماش الشعباني الذي قرره السلطان الأشرف برسباي لمساندة الأمير الشريف علي بن مُغامس أراد أن يثير الشريف حسن بن عجلان، لكي يدخل معه في حرب، وقد عُرف عن قرقماش الشعباني تكبره وظلمه وشدته، لكن الشريف حسن بن عجلان بما آتاه الله من رجاحة عقل، فوّت على قرقماش الشعباني هذه الفرصة، ورفض أن يدخل معه في حرب، وأثر التوجه إلى نجد على الرغم من كثرة أتباعه<sup>(٣)</sup>، وهذا يؤكد مدى ما تمتع به هذا الرجل من نكاه سياسي، ومحاولة الاحتفاظ بذلك الود الذي ربطه بسلاطين المماليك.

ثم إن قيام الشريف حسن بن عجلان بمغادرة مكة المكرمة يجعلنا نقرر أن هذا الرجل تمتع بذكاء سياسي كبير؛ لأنه بهذا العمل حافظ على ما بينه وبين السلطان الأشرف برسباي من مودة قديمة، وأظهر امتثاله لأوامر السلطان، وعدم اعتراضه عليها، فلم يعلن الحرب على علي بن مُغامس على الرغم من كثرة أتباعه، وإنما أثر السلم، وترك مكة المكرمة ليتولى حكمها أميرها الجديد علي بن مُغامس.

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص ص ١٤٨، ١٤٩.

(٢) العقد الثمين، ج٤، ص ١٥١.

(٣) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٦٨٧.

ومن الواضح أن ما قام به الشريف حسن بن عجلان من تصرف ينم عن رجاحة عقل، وذكاء ودهاء دبلوماسي شجع السلطان الأشرف برسباي على التمسك به، ثم إعادته إلى إمرة مكة المكرمة مرة أخرى بعد أن ثبت له فشل الشريف على بن مُغامس في إدارتها.

ومنذ البداية الأولى لإمرة الشريف على بن مُغامس وضُح عجزه عن ضبط أمورها، لذلك عهد السلطان الأشرف برسباي إلى الأمير قرقماش الشعباني بأن يقيم بمكة المكرمة لمساندة ومساعدة الشريف على بن مُغامس في إدارة شئونها، وبالفعل قام الأمير قرقماش الشعباني بإدارة شئون مكة المكرمة إلى جانب الشريف على بن مُغامس لدرجة أن المؤرخ ابن تغرى بردى اعتبره شريكا له في إمرتها<sup>(١)</sup>.

ولم يلبث السلطان الأشرف برسباي أن رضِيَ عن الشريف حسن بن عجلان، فأعادته إلى إمرة مكة المكرمة في أوائل شهر ذي الحجة من عام ٨٢٨هـ/ أكتوبر ١٤٢٥م بعد أن استمر معزولا عنها قرابة العام ونصف العام، وذلك بعد عزل الشريف على بن مُغامس عن إمرتها<sup>(٢)</sup>.

وقد كان حُسن سياسة حسن بن عجلان، ورجاحة عقله وراء تمسك سلاطين الماليك به، فهذه هي المرة الثالثة التي يلي فيها إمرة مكة المكرمة، وثمة ملاحظتان يجب الالتفات إليهما في توليته إمرة مكة المكرمة في هذه المرة.

أولاهما: أن الشريف حسن بن عجلان لم يسع لأن يستعيد إمرة مكة المكرمة في هذه المرة، ويفهم من سياق الأحداث أن السلطان المملوكي وأمرائه المقيمين في مكة المكرمة هم الذين قاموا بالسعي لإعادة الشريف حسن بن عجلان لإمرة مكة المكرمة.

(١) النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٢٨٣؛ وانظر أيضاً: السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٢٠.

(٢) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ١٩٨.



ويذكر المؤرخ المقرئزى - وهو المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث - أنه فى شهر ذى الحجة من عام ٨٢٨هـ / أكتوبر ١٤٢٥م وردت إلى القاهرة رسالة من الأمير تغرى بردى المحمودى الذى كان متواجدا بمكة المكرمة، ويتولى رئاسة ركب المحمل المصرى تفيد بأنه أرسل إلى الشريف حسن بن عجلان يطلب منه التوافق مع السلطان وإطاعته وعدم مخالفته، فجاء إليه الشريف بركات بن حسن بن عجلان، وتقابل معه، ودخل معه إلى مكة المكرمة، حيث حلف له الأمير تغرى بردى وهما بين الحجر الأسود والمُلتزم "أن أباه لا يناله مكروه من قبله، ولا من قبل السلطان"، أى أن الأمير تغرى بردى تعهد للشريف بركات بعدم المساس بهما، وأعطاهما أماناً منه، ومن السلطان، وطلب منه إحضار والده إلى مكة المكرمة أماناً، وبالفعل قام الأمير بركات بإحضار أبيه، "وقدم به مكة المكرمة فى يوم الاثنين ثالث ذى الحجة، وأنه - أى الأمير تغرى بردى - حلف له ثانياً، وألبسه التشريف السلطانى، وقرره فى إمارة مكة المكرمة على عادته"<sup>(١)</sup>.

ثانيتها: التزام الشريف حسن بن عجلان بتأدية مبلغ من المال للسلطان الأشرف برسباى فى مقابل توليه إمرة مكة المكرمة، كذلك وافق الشريف حسن بن عجلان على أن يصبح ميناء جدة تابعا تبعية مباشرة للسلطان المملوكى، ويكون للسلطنة المملوكية شاد يتواجد بجدة كل عام ليتولى تحصيل الضرائب المقررة على التجار الواردين إلى ميناء جدة<sup>(٢)</sup>.

(١) المقرئزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٧٠٠.

- الأمير تغرى بردى المحمودى الناصرى: تتقل فى مختلف الوظائف، وكان أحد القادة الذين شاركوا فى غزو قبرص، توفى فى عام ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م. انظر السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، ص ٢٩.

- المُلتزم: هو المكان الموجود ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة، سُمى بذلك لالتزام الدعاء به. انظر ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ٣٠.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٢٧١، ٢٧٢؛ وانظر أيضاً: على بن السليمان،

وبعد انتهاء موسم الحج عاد الأمير تغرى بردى المحمودى أمير المحمل المصرى إلى الديار المصرية وبصحبته الشريف حسن بن عجلان الذى ترك ابنه الشريف بركات ينوب عنه فى إمرة مكة المكرمة<sup>(١)</sup>.

وقد وصل الشريف حسن بن عجلان إلى الديار المصرية فى ٢٤ محرم من عام ٨٢٩هـ / ١٢ ديسمبر ١٤٢٥م، حيث تقابل مع السلطان الأشرف برسباى، ورحب به الأخير ترحيبا كبيرا، وأنزله بمكان يليق به، وخلع عليه باستقراره فى إمرة مكة المكرمة بعد أن تعهد الشريف حسن بأن يؤدى للسلطان مبلغ ثلاثين ألف دينار فى مقابل تلك الإمرة<sup>(٢)</sup>.

ومما يدل على مدى اهتمام السلطان الأشرف برسباى بأن يؤدى الشريف حسن بن عجلان المبلغ الذى التزم بتأديته له، هو أنه رفض أن يغادر الشريف حسن بن عجلان القاهرة دون أن يؤدى هذا المال، واستبقاه فى مصر "رهينة"، وهو أمر لم يعهد مثله من قبل. ويعلق المقرئى على ذلك بقوله: "لم يقع فى الدولة الإسلامية مثل هذا"<sup>(٣)</sup>. فما كان من الشريف حسن بن عجلان إلا أن أخذ فى جمع تلك الأموال من تجار مكة المكرمة الموجودين بالقاهرة<sup>(٤)</sup>، لكنه لم يستطع جمع

=العلاقات الحجازية المصرية، ص ١٦٦.

- الشاد: إحدى الوظائف التى وجدت بمصر منذ أيام الفاطميين، ويقوم صاحبها بالإشراف على جمع الأموال واستخلاصها ممن يتقرر عليهم هذه الأموال، كما يقوم بالإشراف على الموظفين الذين يتولون جمع تلك الأموال. انظر: النابلسي، لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص ٣٨؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٩٨.

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٧٠٦؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٢٨٣.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٧٠٦.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٧٦.

(٤) ابن حجر العسقلانى: أنباء الغمر، ج ٨، ص ٩٤.

سوى خمسة آلاف دينار فقط، فدفعها للسلطان، وبقي عليه خمسة وعشرون ألف دينار أرسل أحد رجاله لإحضارها من مكة المكرمة<sup>(١)</sup>.

وأثناء بقاء الشريف حسن بن عجلان بالقاهرة انتظارا لوصول بقية الأموال التي التزم بدفعها للسلطان الأشرف برسباي أصابه مرض شديد توفى على إثره في يوم الخميس ١٦ جمادى الآخرة من عام ٥٨٢٩هـ / ٢٧ أبريل ١٤٢٦م<sup>(٢)</sup>، حيث دفن خارج القاهرة في الصحراء بحوش السلطان الأشرف برسباي<sup>(٣)</sup>.

وهكذا انتهت حياة الشريف حسن بن عجلان الرجل الذي امتلأت حياته بالجهاد والعمل، وتولى إمرة مكة المكرمة ما يربو على اثنين وثلاثين عاما، كما تولى ولاية الحجاز كله ستة عشر عاما<sup>(٤)</sup> أثبت خلالها أنه قادر بفضل الله - سبحانه وتعالى - على ضبط أمور تلك البلاد، واتبع سياسة حكيمة مع كل الأطراف التي تعامل معها، سواء أكانوا عرب بلاد الحجاز، أو سلاطين الممالِك، أو حكام البلاد المجاورة وبخاصة حكام اليمن، فإذا شعر بأن إظهار القوة هو الأمر اللازم فلا يتردد في إظهارها، وإذا أحس بأن الأمر يحتاج إلى الدهاء والدبلوماسية فإنه يجنح إلى اتباعهما، وخلال مدة حكمه حظى أهل مكة المكرمة والحجاج الزائرون بالأمن والطمأنينة، والرخاء الاقتصادي، إذا قارنا مدة حكمه بمن سبقه ممن حكموا هذه

(١) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٧٠٦؛ ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، ج٨، ص ١١٢.

(٢) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٧٣٠؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ١٩٨.

(٣) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص ١٢٥.

(٤) صدر قرار السلطان الناصر فرج بتولية الشريف حسن بن عجلان ولاية بلاد الحجاز في شهر ربيع الأول من عام ٥٨١١هـ / أغسطس ١٤٠٨م، بينما صدر قرار السلطان الأشرف برسباي بعزله عن بلاد الحجاز في نصف ربيع الأول من عام ٥٨٢٧هـ / ١٨ فبراير ١٤٢٤م. انظر: الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص ١٤٧، ١٤٨؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص

البلاد من قبله.

وقد مدحه معظم المؤرخين المعاصرين له؛ فقال عنه معاصره المؤرخ المكي الفاسي: "وبدا من الشريف حسن بعد دخول الحجاج إلى مكة المكرمة أمور محمودة من حرصه على الكف عن أذية الحجيج، ولولا ذلك لعظم عليهم البكاء والضجيج، والله يزيده توفيقا، ويسهل له إلى كل خير طريقا"<sup>(١)</sup>.

أما المؤرخ تقي الدين المقریزی -وهو معاصر له أيضًا- فيقول عنه "فحسنت سيرته"، ويقول أيضا: وعارك خطوب الدهر حتى مضى لسبيله"<sup>(٢)</sup>، كذلك يقول المؤرخ ابن تغرى بردى: "وطالت أيامه في السعادة"، ونقد بعض تصرفاته في بعض الأحيان بقوله: "وقعت له أمور وحوادث ومحن، وحمله ذلك على فعل أشياء ليست مشكورة"<sup>(٣)</sup>، ثم يعود ابن تغرى بردى بعد ذلك ويقول عنه بصراحة: "وكان الشريف حسن بن عجلان هذا من أجل أمراء مكة المكرمة ممن أدركناه سؤددا وكرما، وسياسة وعقلا، وأثرى- أى صار ثريا- وكثر ماله وعقاره"<sup>(٤)</sup>.

ومدحه من أتوا بعده من المؤرخين مثل ابن داود الصيرفي الذي قال عنه: "كان ذا حرمة وإمرة، وسطوة باهرة بأرض الحجاز"<sup>(٥)</sup>، قى حين قال ابن ظهيرة: "ضبط أحوال البلاد، وحسم مواد الفساد"<sup>(٦)</sup>، كما قال عنه النهروالي: "وكان ممن يحب الخير، ويرغب فيه، ويسابق إلى فعل الجميل، ويبادر إليه"<sup>(٧)</sup>.

رحم الله الأمير الشريف حسن بن عجلان رحمة واسعة.

(١) شفاء الغرام، ج ٢، ص ٢٠٩.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ص ٧٣٠-٧٣١.

(٣) النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ١٣٥.

(٤) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج ٥، ص ٩٤.

(٥) نزهة النفوس والأبدان، ج ٣، ص ١٠٩.

(٦) الجامع اللطيف، ص ١٩٧.

(٧) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ١٩٤.

## الفصل السادس

الشريف بركات بن حسن عجلان  
وعلاقته بالسلطنة المملوكية



تُوفى الشريف حسن بن عجلان أمير مكة المكرمة فى القاهرة فى يوم الخميس ١٦ جمادى الآخرة من عام ٨٢٩هـ / ٢٧ أبريل عام ١٤٢٦م، تاركاً ابنه الشريف بركات نائباً عنه بمكة المكرمة<sup>(١)</sup>، فما كان من السلطان الأشرف برسباى إلا أن أرسل إلى الشريف بركات يستدعيه للحضور إلى الديار المصرية، وذلك ليوليه إمرة مكة المكرمة.

لذلك سارع الشريف بركات بالذهاب إلى القاهرة، ليصلها فى ٢٣ رمضان من نفس العام (٨٢٩هـ-)، ٣١ يوليه ١٤٢٦م، حيث فوض إليه السلطان الأشرف برسباى إمرة مكة المكرمة عوضاً عن والده الشريف حسن بن عجلان، كما أصدر السلطان قراراً بأن يكون أخوه إبراهيم بن عجلان نائباً عنه فى إمرة مكة المكرمة<sup>(٢)</sup>.

ولم ينس السلطان الأشرف برسباى أن يطالب الشريف بركات بن حسن بن عجلان بما تبقى على والده الشريف حسن من أموال وقدرها خمسة وعشرون ألف دينار، فتعهد الشريف بركات بتسديدها<sup>(٣)</sup>، كما ألزمه السلطان الأشرف برسباى أيضاً بدفع مبلغ عشرة آلاف دينار أخرى<sup>(٤)</sup>، واشترط عليه ألا يتعرض لرجال

(١) الشريف بركات هو زين الدين أبوزهير بن البدر أبى المعالى الحسنى المكى، ولد فى عام ١٣٩٩/٨٠١م بقريّة الحشافة بالقرب من جدة، تربى فى بيت عز الأمر الذى دعا السخاوى إلى أن يقول عنه: "رأى من العز ما لم يسبقه إليه أحد من أهله"، وتوفى فى شعبان من عام ٨٥٩هـ/ يوليه ١٤٥٥م. انظر السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، ص١٣، ١٤.

(٢) الفاسى: شفاء الغرام، ج٢، ص٢١١؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٩٨؛ ابن داود الصيرفى: نزهة النفوس، ج٣، ص١٠٥.

- سبق للشريف بركات بن حسن بن عجلان أن اشترك مع والده فى حكم مكة المكرمة فى عام ٨٠٩هـ/١٤٠٦م حتى تم عزله عنها فى عام ٨١٨هـ/١٤١٥م، ثم أنابه والده فى حكمها فى عام ٨٢١هـ/١٨١٨م، ثم عزله عنها فى عام ٨٢٧هـ/١٤٢٤م، انظر: السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، ص١٣.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٢٩٨.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٣٩٨.

السلطان عندما يفرضون الأموال على تجار الهند عند وفودهم على ميناء جدة<sup>(١)</sup>. بينما يكون للشرِيف بركات ما يأخذه من غيرهم من التجار مثلما كان الحال أيام والده الشرفِيف حسن بن عجلان<sup>(٢)</sup>.

ومن الملاحظ أن السلطان الأشرف برسباي كان يُجل ويحترم الشرفِيف بركات بن حسن بن عجلان إجلالا كبيرا، ومما يدل على ذلك أنه أجلسه أثناء حضوره في مجلسه "فوق الأمراء"، والمعروف أن أمراء الممالِك كانوا يجلسون كلا حسب مرتبته، ومعنى ذلك أن مرتبة الشرفِيف بركات كانت تعلو هؤلاء الأمراء، كما أن الشرفِيف بركات حضر هذا المجلس أثناء انتظار السلطان الأشرف برسباي عودة رجال الحملة الثالثة التي أرسلها لغزو جزيرة قبرص، والتي انتصر فيها على القبارصة وملكهم جينوس<sup>(٣)</sup>.

ولم يمكث الشرفِيف بركات طويلا في الديار المصرية، فبعد أن استقرت كافة الأمور بينه وبين السلطان الأشرف برسباي غادر القاهرة وبصحبته أخوه الشرفِيف إبراهيم، متوجهين إلى مكة المكرمة، حيث وصلا إليها في العاشر من شوال من عام ٥٩٢٩هـ / ١٦ أغسطس ١٤٢٦م، حيث قرئ على منابر الحرم المكي مرسوم السلطان برسباي بولايتهما إمرة مكة المكرمة، ولبسا خلعة السلطان<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرِيفي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٧٢٣؛ النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج٣، ص ٦٣٢.

(٢) العز عبدالعزِيف بن فهد: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق: فهم شلتوت، مكة المكرمة، عام ١٩٨٨م، ج٢، ص ٤٠٠.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٢٩٨.

- وعن حملات السلطان برسباي على جزيرة قبرص، انظر: سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٨٤-١٢٦.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص ٢١١، المقرِيفي: السلوك، ج٤، ق٢، ص ٧٢٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٣٠٤، ابن داود الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص ١٠٤، ١٠٥.



ومن الجدير بالذكر أن السلطان الأشرف برسباي أقام بميناء جدة الكاتب سعد الدين إبراهيم بن مرة شادًا ليتولى الإشراف على تحصيل الضرائب التي تقرر تحصيلها على التجار الواردين إليه<sup>(١)</sup>، وذلك وفق الاتفاق السابق مع الشريف بركات، وفي شهر شوال من عام ٥٨٣١هـ/ يولية ١٤٢٨م عندما ترامي إلى أسماع السلطان الأشرف برسباي أن بعض إخوة الشريف بركات بن حسن بن عجلان وأتباعهم حاولوا الاستيلاء على جزء من متحصلات تجارة الهند الواردة إلى ميناء جدة لم يتردد في إرسال فرقة عسكرية قوامها خمسون مملوكًا إلى مكة، وذلك لقتال من تسول له نفسه أخذ هذه الأموال، وليكونوا عونًا لشاد جدة ابن مرة مما جعل أتباع عجلان يتراجعون عما عزموا عليه<sup>(٢)</sup>.

وقد جنت السلطنة المملوكية من وراء إشرافها على ميناء جدة أموالًا طائلة، وشجعت كثرة الأموال أولئك القائمين على الإشراف على جمع هذه الأموال على سرقة جزء كبير منها، الأمر الذي دفع السلطان الأشرف برسباي إلى معاقبة بعضهم بالضرب والمصادرة<sup>(٣)</sup>. وأصبح ميناء جدة يمثل مورداً مهماً من موارد سلطنة المماليك بما يدره من مال، الأمر الذي دفع المؤرخ المكي المعاصر النجم عمر بن فهد إلى القول بأن المماليك بدلا من حمل الأموال إلى مكة المكرمة لإنفاقها على أهلها وعلى الحجاج والمجاورين والزائرين، انعكست الحقائق، و"صار المال يحمل من مكة إلى القاهرة"<sup>(٤)</sup>.

ومما زاد من أهمية ميناء جدة أنه أصبح مرفأً للسفن والبضائع الواردة من

(١) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٧٨٠.

(٢) المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٧٨١.

(٣) النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج٣، ص ٦٤١.

(٤) إتحاف الوري، ج٣، ص ٦٢١.

الصين، خصوصاً بعد اضطراب أحوال ميناء عدن<sup>(١)</sup>، فقد ذكر المقرئى أنه فى شهر شوال من عام ٨٣٥هـ/ يونيو ١٤٣٢م جاءت عدة سفن من الصين محملة بالبضائع، واتجهت إلى ميناء جدة لعدم تمكنها من الرسو فى ميناء عدن، وأرسل قائدها يستأذن الشريف بركات بن حسن بن عجلان فى الرسو بميناء جدة، فسارع الشريف بركات بالكتابة للسلطان الأشرف برسباى يعلمه بذلك، ويشرح له مدى الاستفادة التى سوف تعود على سلطنة المماليك من وراء ذلك، كما أشار على شاد جدة الكاتب سعد الدين إبراهيم بن المرة بأن يكتب للسلطان موضحاً له مدى الاستفادة التى ستعود عليهم من وراء السماح لتلك السفن باتخاذ ميناء جدة مرفأً لها، وبالفعل استجاب السلطان الأشرف برسباى لتلك النداءات، خصوصاً أنه كان مُغرماً بجمع الأموال، ولذلك تم السماح لسفن الصين بالرسو فى ميناء جدة<sup>(٢)</sup>.

ومما سبق يتضح مدى سيطرة السلطان الأشرف برسباى على معظم شئون مكة المكرمة، وأنه لم يترك حرية التصرف للشريف بركات بن حسن بن عجلان، ويتضح ذلك أكثر من تدخل السلطان برسباى فى تولية وعزل قضاة ونظار الحرم المكى الشريف<sup>(٣)</sup>؛ ففي شهر ذى الحجة من عام ٨٣٧هـ/ يولية ١٤٣٤م تدخل السلطان الأشرف برسباى فى شأن تعيين قاضى مكة وناظر الحرم المكى الشريف

(١) كان ذلك فى زمن حاكم اليمن الملك الناصر أحمد بن إسماعيل بن العباس الغسانى (٨٠٣-٨٢٧هـ/ ١٤٠٠-١٤٢٤م)، وعن اضطراب أحوال اليمن فى تلك الفترة راجع ما ذكره يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، ق ٢، ص ٥٦٦، ويقول أبو مخرمة عن أوضاع ميناء عدن فى تلك الفترة : " لما حصل الجور فى أيام الناصر الغسانى هرب التجار من عدن إلى جدة ". انظر: تاريخ ثغر عدن، اعتنى به علي حسن علي عبد الحميد، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٢٢؛ وقال عنه السخاوى : " كان فاجراً جائراً من شرار بني رسول، وفى أيامه خرب غالب بلاد اليمن ". انظر: الضوء اللامع، ج ١، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٨٧٢-٨٧٣.

(٣) ناظر الحرم المكى الشريف: يقول ابن مماتى أن الناظر هو الذى يشرف على كل شئ فى الديوان، حيث لا يخفى عليه شئ، وبذلك يكون ناظر الحرم المكى الشريف هو الذى يتولى الإشراف على كل ما يتصل بشئون الحرم المكى. انظر: قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٢٩٨.

عندما عزل القاضي أبا السعادات جلال الدين محمد بن ظهيرة عن نظر الحرم الشريف، وولى مكانه داود الكيلاني، وهو أحد تجار العجم المجاورين بمكة المكرمة<sup>(١)</sup>. وتشير المصادر التاريخية إلى أن دافع السلطان الأشرف برسباي من وراء ذلك هو تلك الأموال التي أخذها من داود الكيلاني نظير توليته هذا المنصب<sup>(٢)</sup>.

غير أن أهالي مكة المكرمة يتزعمهم الشريف بركات بن حسن بن عجلان أرسلوا إلى السلطان الأشرف برسباي يخبرونه بأنهم "لم يرضوا بولاية داود" فاستجاب الأشرف برسباي لطلبهم وقام بعزل داود الكيلاني، وأمر الأمير سودون المحمدي بالتحدث في الحرم<sup>(٣)</sup>.

وقد استمر الشريف بركات بن حسن بن عجلان على علاقته الودية بالسلطنة

- (١) النجم عمر بن فهد: معجم الشيوخ، تحقيق: محمد الزاهي، الرياض، ١٩٨٢م، ص ٢٧٧.
- القاضي جلال الدين أبو السعادات بن ظهيرة؛ هو محمد بن محمد بن محمد، ولد في عام ٥٧٩٥هـ / ١٣٩٣م بمكة المكرمة لأسرة عُرِفَت بالعلم، وتلقى العلم بمكة المكرمة، ثم تولى الكثير من الوظائف بها، كما تولى بها أيضا التدريس والخطابة، مات بمكة في عام ٨٦١هـ / ١٤٥٧م. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ص ١٦، ١٤٦؛ النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٣٧٤؛ معجم الشيوخ، ص ٢٧٦-٢٧٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٩، ص ٢١٤-٢١٦.
- داود الكيلاني: هو داود بن علي بن بهاء الدين شرف الدين الكيلاني، عمل بالتجارة، وحاز ثروة طائلة، وكان كما وصفه النجم عمر بن فهد "وجيهاً في التجارة"، مات في طاعون عام ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م بالإسكندرية. انظر: الدر الكمين بذيل العقد الثمين، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، بيروت، ٢٠٠٠م، ج ٢، ص ٧٢٦؛ وانظر أيضاً: السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٢١٤.
- (٢) المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ٩٣٠؛ ابن داود الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٣، ص ٣٠٢، ٣٠٣.
- (٣) النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٧٤.
- سودون المحمدي: كان مملوك الظاهر برقوق، أعتقه، وتدرج في الوظائف، وصار خاصكياً، ورأس نوبة الجمدارية، ولاه الأشرف برسباي بعض الوظائف بمكة المكرمة، فكان شادا بها، ثم ولى نظر الحرم الشريف، وتوفي في شهر صفر من عام ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٢٨٥-٢٨٦.

المملوكية، وأظهر إخلاصًا كبيرًا لها، ودافع دفاعًا مستميتًا عن النفوذ المملوكي بمكة المكرمة، ومن ذلك على سبيل المثال إعلانه الحرب على عرب بشر الذين قاموا في شهر رجب من عام ٥٨٣٩هـ/ فبراير ١٤٣٦م بالتعرض لقوافل الحجاج، وأرسل إليهم فرقة عسكرية بقيادة أخيه الشريف علي بن حسن بن عجلان، وانضم إليه الشريف مَليِّب بن علي بن مبارك بن رُمَيْثَة، كما انضم إليه الوزير شكر ومعه جماعة من أهالي مكة المكرمة، كما انضم إليه الأمير أرنبغا على رأس مجموعة كبيرة من المالِك السلطانية<sup>(١)</sup>.

وقد تكررت مقاومة الشريف بركات لهجوم الأعراب على قوافل الحجيج، وقيامهم بعمليات السلب والنهب لدرجة أن المؤرخ ابن تغري بردى قرن تلك الأعمال بما كان يقوم به تيمور (لنك) من أعمال سلب ونهب للبلاد التي هاجمها، فيقول: "وقد فعلت الأعراب بهم - أي بالحجيج - ما فعله التمرية في أهل البلاد الشامية"<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن داود الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج ٣، ص ٣٤٤-٣٤٥.

- عرب بشر: فخذ من قحطان، راجع عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، ج ١، ص ٨١.

- الشريف علي بن حسن بن عجلان أخو الشريف بركات، ولد في عام ٥٨٠٧هـ/١٤٠٤م بمكة المكرمة، ونشأ بها، تولى إمرة مكة المكرمة عن أخيه بركات في عام ٥٨٤٥هـ/١٤٤١م، ثم قبض عليه السلطان المملوكي في عام ٥٨٤٦هـ/١٤٤٣م، وسيق إلى القاهرة، وسجن بها، وتنقل في سجونها إلى أن مات في سجن دمياط في عام ٥٨٥٣هـ/١٤٤٩م. السخاوي: الضوء اللامع، ج ٥، ص ٢١١.

- الشريف مَليِّب بن علي بن مبارك بن رُمَيْثَة بن أبي نَمِي، توفي في شهر رجب من عام ٥٨٣٩هـ/ يناير ١٤٣٦م. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ١٩٤.

- الوزير شكر؛ هو أحد عتقاء الشريف حسن بن عجلان، تولى الوزارة للشريف بركات بن حسن بن عجلان، بنى بمكة رباطًا، ووقف عليه أوقافًا، وتوفي بمكة في عام ٥٨٤٥هـ/ سبتمبر ١٤٤١م. انظر السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٣٠٦.

(٢) النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٢٣٢.

وهذا على عكس إهمال الكثير من الولاة لقوافل الحجيج التي تمر ببلادهم مثلما حدث لركب الحج الغزاوي- أي الذي يضم أهل غزة - في عام ١٤٣٧/٥٨٤١م، حيث هاجمه عرب بلي، واستولوا على ما معهم من أموال ومتاع دون أن يقوم أحد بالدفاع عنهم مما دفع المؤرخ النجم عمر بن فهد أن يعلق على ذلك بقوله: "ولم يمتعض لها أحد لإهمال أهل الدولة الأمور، وإعراضهم عن عمل الصالح"<sup>(١)</sup>.

كما عمل الشريف بركات على إخماد الفتن والاضطرابات التي كانت تحدث بمكة المكرمة بين الحين والآخر، وبخاصة تلك التي أشعل نارها أمراء المماليك الموجودون بمكة المكرمة، ومن ذلك ما حدث في عام ١٤٣٦/٥٨٤٠م عقب تلك الاضطرابات التي حدثت بمكة المكرمة إثر حضور الأمير جانبك الصوفي إليها في شهر جمادى الأولى من تلك السنة (نوفمبر) بعد خروجه عن طاعة السلطان الأشرف برسباي، وما حدث من مناصبة أمراء المماليك الموجودين بمكة المكرمة العداء له ومحاربتة مما أدى إلى وقوع الكثير من القتل والجرحى، وإلى حدوث اضطراب كبير بمكة المكرمة، وهنا تجلت مقدرة الشريف بركات في القبض على زمام الأمور؛ فقام بتهدئة أمراء المماليك الثائرين، وأنهى تلك الفتنة، وعلى حد قول المؤرخ المقرئزي: "ساس الأمر حتى سكنت الفتنة"<sup>(٢)</sup>.

(١) إتحاف الوري، ج٤، ص١١٨.

- عرب بلي: ينسبون إلى بلي بن عمور بن الحافي، وهي بطن من بطون قضاة بن قحطان، وهي قبيلة عظيمة، انظر: عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، ج١، ص ص١٠٤-١٠٧.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص١٠٠١؛ وانظر أيضا: ابن داود الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٣، ص٣٨٤.

- الأمير جانبك الصوفي: هو أحد المماليك الظاهرية برقوق، ترقى حتى صار من أمراء الألوف، وتولى عدة وظائف، ثم خرج عن طاعة السلطان برسباي، وانتهت حياته بالقتل في ١٥ ربيع الآخر من عام ٥٨٤١/٢٠ أغسطس ١٤٣٧م. انظر المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص١٠٦١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٥٧؛ ابن داود الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٤٣٠.

وعلى هذا النحو أثبت الشريف بركات إخلاصه للسلطان الأشرف برسباى، وكان عونه دائما فى القبض على زمام الأمور، وفى استمرار سيطرة الممالِك على مقاليد الأمور بمكة المكرمة. وقد استمر ذلك الولاء بعد وفاة السلطان برسباى فى ١٣ ذى الحجة من عام ٨٤١هـ / ٩ يونيه ٤٣٨م، وتولية ولده أبى المحاسن جمال الدين يوسف أمر السلطنة المملوكية، والذي لم يستمر حكمه سوى ٩٤ يوما فقط، تولى خلالها الأمير جقمق تدبير الأمور بحيث لم يكن للعزیز يوسف "من الأمر شئ" على حد قول المؤرخين<sup>(١)</sup>، ثم تولى السلطنة المملوكية الأمير جقمق الذى تلقب بالملك الظاهر فى ١٩ ربيع الأول من عام ٨٤٢هـ / ١٠ سبتمبر ٤٣٨م<sup>(٢)</sup>.

- (١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٩٧-١٩٨؛ ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج ٧، ص ٢٤٢.
- (٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ١٠٨٧، ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٩٩.

- السلطان العزیز جمال الدين يوسف بن السلطان الأشرف برسباى، ولد بقلعة الجبل فى عام ٨٢٧هـ / ٤٢٤م، عهد إليه والده بالسلطنة أثناء مرضه فى شهر ذى الحجة من عام ٨٤١هـ / يونيه ٤٣٨م، وله من العمر ١٤ عاما، وتولى تدبير أمره الأمير جقمق الذى عزله بعد أن دام حكمه ٩٤ يوما، ثم سجنه بالإسكندرية بعد محاولة هروبه، ودام سجنه إلى عام ٨٦٥هـ / ٤٦١م عندما أفرج عنه السلطان الظاهر خُشقدم، وأسكنه بإحدى دور الإسكندرية، واستمر بها حتى وفاته فى عام ٨٦٨هـ / ٤٦٣م، انظر السخاوى: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

- السلطان الظاهر سيف الدين أبوسعید جقمق، سبى وهو صغير، وجلب إلى القاهرة حيث تربى عند الأمير إينال اليوسفى، ثم انتقل إلى السلطان الظاهر برقوق الذى أعتقه، وأخذ فى الترقى حتى قفز على عرش السلطنة، وكان له من العمر ما يقرب من خمسة وستين عاما، واستمر فى السلطنة حتى خلع نفسه منها فى ٢١ محرم من عام ٨٥٧هـ / ٣ فبراير ٤٥٣م توفى بعد اثنى عشر يوما فى الثالث من صفر من عام ٨٥٧هـ / ١٥ فبراير ٤٥٣م، انظر: ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٤٥٢، ٤٥٣؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٧١-٧٤؛ ابن سباط: صدق الأخبار، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، طرابلس، ١٩٩٣م، ج ٢، ص ٧٩٣.

ولم تمض على سلطنة أبي سعيد جقمق ثمانية أشهر حتى أرسل إليه الشريف بركات فى شهر شوال من عام ٥٨٤٢هـ / مارس ١٤٣٩م عدة هدايا ذكرها المؤرخ المقرئزى بالتفصيل وهى عبارة عن "خمسة أفراس وطواشيان، وجارتيان، ومائتا شاش، وقطعتا ياقوت أحمر زنتهما خمسة عشر قيراطا، وقطعة ماس زنتها تسعة عشر قيراطا ونصف"<sup>(١)</sup>، وذلك عنوانا لما يكنه الشريف بركات من طاعة وإخلاص للسلطان المملوكى أبى سعيد جقمق.

ولا شك فى أن إظهار الشريف بركات للود والإخلاص للسلطان المملوكى أبى سعيد جقمق أدى إلى زيادة رضا جقمق عنه، ومما أكد ذلك ما قام به السلطان جقمق فى موسم حج عام ٥٨٤٣هـ / ١٤٤٠م من إعفاء الشريف بركات من تقبيل خف جمل المحمل، وكانت العادة جارية بأنه عند قدوم المحمل يستقبله أمير مكة، ويقوم بتقبيل خف الجمل<sup>(٢)</sup>، فجاء إلغاء السلطان لتلك العادة تأكيدا لتلك الود الذى ربط ما بين السلطان جقمق والشريف بركات الذى أحبه السلطان، وأكن له احتراما كبيرا. وبالإضافة إلى ذلك فإن السلطان أبى سعيد جقمق استجاب لطلب الشريف بركات وتجار مكة المكرمة بمنع الباعة المصريين الذين سكنوا مكة المكرمة،

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ١١٢٥-١١٢٦.

- الطواشى: هو العبد الخصى الذى يعمل فى الطباق المملوكية، وفى الحريم السلطانى، والجمع طواشيه. انظر ابن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١٢٢، ١٢٣؛ ابن طولون: نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق: محمد أحمد دهمان، بيروت، ١٩٩١م، ص ٧٠، ٧١؛ وانظر أيضا: سعيد عاشور: العصر الممالِكى فى مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٤٣٣.

(٢) المقرئزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ١١٩٣؛ النجم عمر بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص ١٤٥.

- عن أصل عادة تقبيل خف جمل المحمل، وتاريخها، وأسباب ذلك. انظر: محمد لبيب البتانونى: الرحلة الحجازية، المطبعة الجمالية بالقاهرة، ١٣٢٩هـ، ص ١٤٤؛ إبراهيم حلمى: كسوة الكعبة المشرفة، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٦٧-١٦٨.

وجلسوا بالحوانيت بالمسعى، واحتكروا البيع والشراء به مما أدى إلى غلاء الأسعار وكانوا يحتمون في ذلك بالممالِك<sup>(١)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن طاعة شريف مكة المكرمة للسلطان المملوكى كانت تتمثل في أمرين مهمين، أولهما هو أن يُخطب باسم السلطان المملوكى على منابر مكة المكرمة، والأمر الثانى هو أداء ما تقرر عليه من أموال، والحضور إلى القاهرة لأداء تلك الأموال، وما تيسر من الهدايا.

وقد التزم الشريف بركات بهذين الأمرين التزاماً كاملاً، إلا أنه لم يكن يرغب فى التردد على القاهرة كثيراً، ولكنه كان يدوام على إرسال الهدايا والأموال. ويتعلل بالحجج والذرائع لإعفائه من الذهاب إلى القاهرة، وخير مثال على ذلك هو أنه عندما اضطربت الأحوال بمكة، واحتاج الأمر إلى زيادة الاهتمام بالأمن، أرسل خطاباً إلى السلطان أبى سعيد جقمق فى ٢٥ جمادى الأولى من عام ٥٨٤٤هـ / ٢٣ أكتوبر ١٤٤٠م يفيد بأنه بعد أن قام بطواف الوداع استعداداً للسفر للديار المصرية منعه بعض التجار والمجاورين من السفر، وتعلقوا به، إيماناً منهم بأن سفره وغيابه عن مكة المكرمة سيعرضهم للخطر، حيث سينعدم الأمن والأمان، وجاء فى نهاية الخطاب "والأمر متروك للسلطان" فإنه إذا رأى ضرورة حضوره فإنه سوف يحضر، وإذا أراد بقاءه فى مكة ليرعى الأمن سيظل بها<sup>(٢)</sup>.

وقد كان الشريف بركات صادقاً فيما قاله للسلطان، فقد اضطربت فعلاً أحوال مكة المكرمة فى تلك الفترة، الأمر الذى دفع شاد العمائر بها الأمير سودون المحمدى إلى أن يكتب للسلطان أبى سعيد جقمق بما يفيد ضرورة بقاء الشريف

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ١١٩٣؛ العز بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٤١٦.

- المقصود بالمسعى هو سعي الحجاج والمعتمرين بين الصفا والمروة.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص١٢١٠، ١٢١١.



بركات بمكة لأن المصلحة في أن يظل بها حتى يعمل على استتباب الأمن<sup>(١)</sup>.

فما كان من السلطان أبي سعيد جقمق إلا أن عقد مجلساً من أمرائه للتشاور في هذا الأمر، وتقرر فيه بقاء الشريف بركات بمكة المكرمة، لكن عليه أن يرسل إلى السلطنة المملوكية مبلغ عشرة آلاف دينار، فلم يمانع الشريف بركات في ذلك، وأرسل المبلغ المطلوب، فأرسل إليه السلطان جقمق تشريفاً ببقائه أميراً على مكة المكرمة<sup>(٢)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن تكرار عدم حضور الشريف بركات إلى القاهرة، ومقابلة السلطان أبي سعيد جقمق، وتأدية الخدمة المطلوبة، أدى إلى تغير قلب السلطان جقمق عليه، وقد حاول الشريف بركات تحسين علاقته بالسلطان جقمق فسارع بإرسال قافلة محملة بالهدايا في يوم الثلاثاء الموافق ١٣ شوال من عام ٨٤٤هـ / ٩ مارس ١٤٤١م، كما أرسل إليه " فلفلاً " بما قيمته عشرة آلاف دينار، وهو المبلغ الذي التزم بأدائه للسلطان<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من ذلك فقد اتسعت الهوة بين السلطان أبي سعيد جقمق والشريف بركات، خصوصاً عندما تكرر تقاعس الأمير عن الذهاب إلى الديار المصرية في العام التالي (عام ٨٤٥هـ / ١٤٤٤م)، فلم يكن من السلطان الظاهر أبي سعيد جقمق إلا أن أصدر في يوم الاثنين ١٦ جمادى الأولى من عام ٨٤٥هـ / ٣ أكتوبر ١٤٤١م قراراً بخلع الشريف بركات عن إمرة مكة المكرمة، وتولية أخيه الشريف علي بن حسن بن عجلان عليها<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص١٢١١؛ السخاوى: الضوء اللامع، ج٢، ص٢٨٦.

(٢) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص١٢١١.

(٣) المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص١٢٢٤.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٣٤٩.

ومما يذكر أن بعض معاوني الشريف بركات أشاروا عليه بضرورة الذهاب إلى مصر، ومقابلة السلطان، وترضية خاطره، ولكن الشريف بركات أتى الذهاب إلى القاهرة لمقابلة السلطان جقمق، وقال: "لست بعاص، ولكن أنا أذهب إلى حال سبيلي، والبلد بلدك"<sup>(١)</sup>.

ويفهم من النص السابق أن الشريف بركات وصل إلى درجة كبيرة من ضيق الصدر نتيجة طلبات السلطان المملوكي لدرجة أنه أفصح عن عدم رغبته في البقاء في حكم مكة المكرمة، وفي نفس الوقت أعلن أنه لن يدخل في صراع مع السلطنة المملوكية؛ إما لعلمه بقوة المماليك، وضعف موقفه، وإما للمحافظة على هدوء مكة المكرمة، وعدم إنزال أية أضرار بأهلها إذا حدثت حرب بينه وبين المماليك، لذلك قرر أنه سوف يذهب إلى حال سبيله، ويعلن أن البلد أي بلاد الحجاز "بلدك"، أي أنها تحت تصرف السلطان المملوكي يفعل بها ما يشاء. كما يُشتَمَّ من العبارة السابقة الدهاء السياسي الذي تمتع به الشريف بركات، إذ أنه أراد أن يظهر للسلطان مدى طاعته له حتى لو تم عزله عن حكم مكة المكرمة عسى أن يعدل السلطان عن قراره بعزله عن إمرتها.

غير أن السلطان جقمق لم يأبه لقول الشريف بركات، وأصرَّ على خلع من إمرة مكة المكرمة، وتولية أخيه الشريف علي بن حسن بن عجلان الذي كان موجوداً في تلك الفترة بالديار المصرية<sup>(٢)</sup>.

وثمة ملاحظة مهمة تؤكد على ما سبق ذكره، وهي أن المؤرخ المعاصر ابن تغري بردي يشير إلى أن سبب إصرار السلطان جقمق على خلع الشريف بركات

(١) السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق: نجوى مصطفى وآخرين، القاهرة

٢٠٠٢م، ج ١، ص ٥٧.

(٢) ابن ظهيرة: الجمع اللطيف، ص ١٩٨.

هو عدم ذهابه إلى القاهرة، ومقابلة السلطان<sup>(١)</sup>، وهذا ما يجعلنا نقرر أن سلاطين المماليك اهتموا كثيرا بإظهار أشرف مكة لطاعتهم لهم، وذلك بحضورهم إلى القاهرة، والمثول بين يدي السلطان ليثبتوا ويؤكدوا طاعتهم للسلطان المملوكي.

وقد خشى السلطان أبوسعيد جقمق من قيام الشريف بركات بمقاومة وصد الشريف على بن حسن بن عجلان، ومنعه من دخول مكة المكرمة، لذلك أرسل معه قوة عسكرية كبيرة مؤلفة من مائة وخمسين مملوكا من المماليك السلطانية على رأسهم الأمير يشبك الصوفي المؤيدي<sup>(٢)</sup>.

كذلك فإن السلطان أبا سعيد جقمق لعلمه بعدم امتلاك الشريف على بن حسن ابن عجلان المال اللازم لتجهيز نفسه، فقد أعطاه مبلغ خمسة آلاف دينار لكي تساعد في تجهيز نفسه، هذا بالإضافة إلى تلك المبالغ التي اقترضها الشريف على من بعض معارفه بالقاهرة، وذلك حتى يكون على أتم الاستعداد للسفر إلى مكة المكرمة، ليتولى إمرتها<sup>(٣)</sup>.

وبعد أن تكاملت تجهيزات الشريف على بن حسن بن عجلان، توجه من القاهرة في ٢٤ شهر جمادى الآخرة من عام ٨٤٥هـ / ٢٢ نوفمبر ١٤٤٠م، حيث وصل إلى مكة المكرمة، التي غادرها بهدوء الشريف بركات بن حسن بن عجلان،

(١) النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٢٤٩.

(٢) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج ١، ص ٣٣، ٣٤؛ النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٣٤٩؛ السخاوى: التبر المسبوك، ج ١، ص ٥٧؛ العز عبدالعزیز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٤٩٠، ٤٩١.

- الأمير يشبك الصوفي من مماليك السلطان المؤيد شيخ، تنقل في مختلف الوظائف، وقد وصف بأنه كان صاحب كفاءة، توفي في عام ٨٦٣هـ / ١٤٥٨م. انظر: السخاوى: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٧٠؛ التبر المسبوك، ج ١، ص ٥٧.

(٣) ابن تغرى بردى: المنهل الصافي، ج ٤، ص ٣٠٧؛ السخاوى: التبر المسبوك، ج ١، ص ٥٧.

وتوجه جنوبا حيث استقر بصحراء اليمن<sup>(١)</sup>.

وقد أثبتت الأحداث التالية أن إظهار الشريف بركات طاعته لأوامر السلطان جقمق بعزله عن إمرة مكة المكرمة لم تكن سوى مناورة سياسية، فلم يرض عن هذا العزل، وإنما غادر مكة المكرمة حتى لا يدخل في مواجهة مع القوات المملوكية المصاحبة للشريف على، وانسحب إلى صحراء اليمن ليتخذ منها موقعا لإدارة عملياته العسكرية المناهضة للشريف على بن حسن بن عجلان<sup>(٢)</sup>، خصوصا أن كثيرا من أمراء المماليك الموجودين بمكة المكرمة تعاطفوا معه، ووقفوا إلى جواره خلال المعارك التي دارت بين قوات الشريف على بن حسن بن عجلان وأتباع الشريف بركات، وتشير المصادر التاريخية إلى وقوف الأمير سودون المحمدي، الذي كان موجودا بمكة المكرمة في تلك الفترة، إلى جانب الشريف بركات، وشارك في المعارك التي حدثت بين الجانبين، وعندما عاد إلى القاهرة في يوم الأحد ١٢ ربيع الآخر من العام التالي (٨٤٦هـ) كان جسده مليئا بالجراح من جراء تلك المعارك<sup>(٣)</sup>.

ونتيجة مقاومة أتباع الشريف بركات، ورفضهم إمرة الشريف على بن حسن بن عجلان اضطربت الأمور بمكة المكرمة، وساد الهرج كل أنحاءها، حيث توقع الجميع مهاجمة الشريف بركات مكة المكرمة في أي وقت مما أفرع أهالي مكة المكرمة، وأدى إلى انتشار الخوف والهلع بينهم<sup>(٤)</sup>.

وقد أراد الشريف على بن حسن بن عجلان أن يتقوى بأخيه الشريف

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٣٤٩، ج ١٦، ص ١٧٩.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ١٧٩.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٣٥٣؛ السخاوى: التبر المسبوك، ج ١،

ص ١٠٩، ١١٣.

(٤) السخاوى: التبر المسبوك، ج ١، ص ٦٧.

إبراهيم، فبذل مساعي كثيرة ليزيل ما بنفسه من غضب منه، وبالفعل نجحت مساعيه، ووقف الشريف إبراهيم إلى جانب أخيه على ضد أخيه الشريف بركات<sup>(١)</sup>.

وفى نفس الوقت فإن السلطان أبا سعيد جقمق هو الآخر أراد أن يعزز موقفه في مكة المكرمة إزاء التفوق العسكرى لأتباع الشريف بركات، فأرسل فى شهر ربيع الثانى من عام ٨٤٦هـ/ أغسطس ١٤٤٢م فرقة عسكرية أخرى مكونة من خمسين مملوكا من المالِك السلطانية على رأسها الأمير آقبردى المظفرى<sup>(٢)</sup>.

وإزاء عدم مقدرة الشريف على بن حسن بن عجلان على ضبط الأمور بمكة المكرمة، وزيادة الاضطرابات بها، غضب عليه السلطان أبوسعيد جقمق، فأصدر

(١) السخاوى: التبر المسبوك، ج ١، ص ٦٧.

- الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان الملقب مؤيد الدين: ولد بمكة، ونشأ بها، قام بحفظ مكة عقب وفاة والده، وتغيب أخويه بركات وإبراهيم أثناء ذهابهما إلى القاهرة، وتولى نيابة إمرة مكة عن أخيه بركات فى عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م أثناء سفره إلى المدينة المنورة، ثم تولى إمرة مكة فى عام ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م، واستمر أميرا عليها لمدة خمس سنوات حتى عُزل فى عام ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م، ثم توجه إلى القاهرة حيث حاز رضا السلطان المملوكى، واستمر بها حتى وفاته فى عام ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م. انظر: العز عبدالعزيز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٤٩٨-٥٠٢.

- الشريف إبراهيم بن حسن بن عجلان الملقب سيف الدين: ولد بمكة، ونشأ بها، أشركه والده مع أخيه فى إمرة مكة فى عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م، وبعد وفاة والده أشركه السلطان المملوكى مع أخيه بركات كى يساعده فى إمرة مكة المكرمة، ثم خرج على بركات، وانحاز إلى أخيه على بعد ولايته على مكة المكرمة، وبعد خلع على والقبض عليه قبض على الشريف إبراهيم أيضا، وسجن بالديار المصرية، واستمر بها حتى وفاته فى عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م. انظر: العز عبدالعزيز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٤٧٠-٤٧٤.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٣٥٤-٣٥٥.

- الأمير آقبردى المظفرى: يذكر السخاوى أنه عمل رأس نوبة الجمدارية أيام السلطان المؤيد شيخ، ثم أمير عشرة أيام الظاهر جقمق، ثم رئيس نوبة، توفى بمكة المكرمة فى عام ٨٤٧هـ/ ١٤٤٤م. انظر الضوء اللامع، ج ٢، ص ٣١٥، ٣١٦.

أمره بالقبض عليه وعلى أخيه إبراهيم الذي كان يعاونه في حكم مكة المكرمة، وفي نفس الوقت أصدر أمرا في شهر شوال من عام ٨٤٦هـ / فبراير ١٤٤٣م بأن يتولى إمرة مكة المكرمة أخوهما الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان<sup>(١)</sup>.

ويذكر المؤرخ جمال الدين بن ظهيرة أن الشريف أبا القاسم كان في تلك الفترة مقيما بالقاهرة<sup>(٢)</sup> مما يشير إلى أنه بذل من المساعي ما جعل السلطان أبا سعيد جقمق يقدم على عزل أخويه علي وإبراهيم، ويصدر قرارا بتوليته إمرة مكة المكرمة.

وعلى كل حال فبعد أن تجهز الشريف أبو القاسم توجه من القاهرة إلى مكة المكرمة، حيث دخلها يوم السبت الموافق ٢٧ ذى القعدة من عام ٨٤٦هـ / ٣١ مارس ١٤٤٣م<sup>(٣)</sup>، وفي نفس الوقت تم ترحيل الشريفين علي وإبراهيم إلى القاهرة حيث سجنوا بها<sup>(٤)</sup>.

وقد استطاع الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان القبض على زمام الأمور بمكة المكرمة، وعمل على تهدئة الأمور بها، وخلال تلك الفترة التي قضاها أميراً بمكة المكرمة لم يهدأ بال الشريف بركات بن حسن بن عجلان، فأخذ يسعى من أجل العودة إلى إمرة مكة المكرمة، ومن بين مساعيه، قيامه في شهر ربيع الأول من عام ٨٥٠هـ / يونيو ١٤٤٦م بإرسال ابنه الشريف محمد بن بركات لمقابلة السلطان أبي سعيد جقمق وهو محمل بالهدايا الثمينة التي قدرها المؤرخ السخاوي بأنها كانت عبارة عن ثلاثة خيول عربية، كل واحد منها يساوي أكثر من مائة

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٣٥٦، ٤٦٢؛ السخاوي: التبر المسبوك، ج ١، ص ١١٩؛ العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٤٩٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٢، ص ٢٣٦.

(٢) الجامع اللطيف، ص ١٩٨.

(٣) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ١٩٨.

(٤) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٤٧٣، ٤٧٤.

دينار، وطواشي... وغير ذلك<sup>(١)</sup>، حيث طلب من السلطان عودة والده إلى إمرة مكة المكرمة، وقد استقبله السلطان استقبالا طيبا، ومنحه أمانا له ولوالده، ووعد به بإعادة والده إلى إمرة مكة المكرمة<sup>(٢)</sup>.

وبالفعل استجاب السلطان أبوسعيد جقمق لطلب الشريف بركات، وأصدر أمرا في نفس الشهر (ربيع الأول من عام ٨٥٠هـ) بولاية الشريف بركات إمرة مكة المكرمة، وأبلغ الشريف بركات بذلك، فدعى له على منابرها في شهر جمادى الآخرة من نفس العام بعد وصول هذا القرار إلى مكة المكرمة<sup>(٣)</sup>.

ورغبة من الشريف بركات في إزالة الخلافات التي نشبت بينه وبين السلطنة المملوكية، فقد أراد أن يسمح له السلطان المملوكي بالحضور إلى القاهرة، وبذل في ذلك عدة مساع، ومن بين هذه المساعي توسطه للتاجر شرف الدين موسى الثنائي الأنصاري بشأن السماح له بالقدوم إلى القاهرة لمقابلة السلطان، وتأدية ما عليه من واجبات<sup>(٤)</sup>.

وقد نجحت مساعي التاجر شرف الدين موسى، إذ وافق السلطان على حضور الشريف بركات إلى القاهرة، وبالفعل سارع الشريف بركات إلى ذلك، حيث وصل إليها في أول أيام شهر شعبان من عام ٨٥١هـ/ ١٢ أكتوبر ١٤٤٧م.

(١) التبر المسبوك، ج ١، ص ٢٩٨.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٣٧١.

(٣) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ص ٤٣٦-٤٣٨.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٣٧٩.

- التاجر شرف الدين موسى الثنائي: هو الخوaja موسى بن علي بن محمد بن سليمان الأنصاري الشامي، والثنائي نسبة إلى قرية ثنا بالمنوفية، اشتغل بالعلم ثم بالتجارة، وازدادت ثروته، وتولى عدة وظائف، وتوطدت علاقته بالسلطان جقمق، وتردد عليه كثيرا، كما تولى عدة وظائف، توفي في عام ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م. انظر: السخاوى: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ١٨٤، ١٨٥.

ولعل الاستقبال والحفاوة التي استقبل بها السلطان أبوسعيد جقمق الشريف بركات بن حسن بن عجلان، ليدلان دلالة واضحة على ما أكَّنه له من الاحترام والتبجيل، وذلك لإعجابه بقدرته على ضبط الأمور بمكة المكرمة، وقد أفاض المؤرخون المعاصرون في وصف ذلك الاستقبال، إذ يشير كل من ابن تغري بردي، والنجم عمر بن فهد إلى أن السلطان أبا سعيد جقمق نزل إلى استقباله بمطعم الطير بالريدانية، حيث قام إليه، وتقدم نحوه عندما قدم عليه، "ومشى له خطوات، وأجلسه بجانبه"<sup>(١)</sup>، وهذا على غير عادة سلاطين المالِك، الذين كانوا يجلسون بينما يدخل عليهم الوافد، فيتم استقباله في مجلسه، لكن بالنسبة للشريف بركات فإن السلطان أبا سعيد جقمق خرج لاستقباله، ومشى له خطوات" مما يؤكد مدى احترامه له.

وزيادة في احترام السلطان أبي سعيد جقمق للشريف بركات أنه رفض جعله يقبل يده، كما كانت العادة جارية، حيث يذكر ابن تغري بردي أنه "لما قرب منه قام السلطان إليه واعتنقه، فأهوى بركات ليقبل يد السلطان، فمنعه السلطان من ذلك،

(١) النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٣٧٩؛ إتحاف الوري، ج ٤، ص ٢٧٢؛ انظر أيضاً: ابن إياس:

بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٦٠.

- مُطعم الطير : مكان يقع في الشمال الشرقي لخانقاه السلطان برقوق المعروفة بتربية

برقوق (بجبانة الغفير حالياً) بالريدانية، وهو مخصص لصيد الطيور، وكان سلاطين

المالِك يتخذونه مكاناً للتسلية والرياضة. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،

ج ٩، ص ٢٩، هامش رقم ٥.

- الريدانية : كانت في الصحراء الواقعة شمال القاهرة، وهي الآن تشمل المنطقة

المحصورة بين الحسينية ومصر الجديدة، يذكر المقرئ أنها كانت في الأصل بستاناً

لريدان الصقلي أحد خدام الخليفة العزيز بالله الفاطمي. انظر: المواعظ والاعتبار، ج ٢،

ص ١٣٨؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢، هامش ٢؛ وانظر أيضاً:

محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م، ج ١، ص ٢،



وأخذ بيده وأجلسه بجانبه قريبًا من فرشه<sup>(١)</sup>.

ولم يكتف السلطان أبوسعيد جقمق بذلك، وإنما زيادة في الاحتفاء بالشريف بركات بن حسن بن عجلان فقد خلع عليه "فرسا بسرج ذهب، وكنبوش زركش"، وإظهارًا من السلطان للود الذي ربط بينهما فقد سمح له بالسير إلى جانبه في موكبه حتى وصل السلطان إلى قرب قلعة الجبل، فأذن له بعد ذلك في التوجه إلى مكان إقامته، أما ذلك المكان فكان قد أعد له ناظر الخاص صاحب جمال الدين يوسف، وجهاز به كل ما يحتاج إليه، كما قرر من يقوم على خدمته أثناء مقامه بالقاهرة، ويشير ابن تغرى بردى -الذي كان صديقًا حميمًا لناظر الخاص جمال الدين يوسف- إلى أن ناظر الخاص قام على خدمته شخصيًا، وهو الأمر الذي يشير إلى ما وصل إليه قدر الشريف بركات عند أولى الأمر بالديار المصرية<sup>(٢)</sup>.

ويضيف المؤرخ المكي المعاصر النجم عمر بن فهد، أن القاهرة "ارتجت لدخوله"، وذلك كناية عما عُرف عنه، ولما حدث من خروج سكانها لمشاهدته حتى

(١) المنهل الصافي، ج ٣، ص ٣٤٥.

(٢) النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٣٧٩.

- الكنبوش : هو البرذعة التي توضع تحت سرج الفرس، وفي بلاد المغرب أطلق على اللثام الذي يغطي من الأنف إلى الذقن إبقاء برودة الجو. راجع: ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرين، القاهرة، د.ت، ج ١، ص ٢٥٢؛ المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٤٥٢، هامش ٥؛ انظر أيضًا: سعيد عاشور: العصر المالكي، ص ٤٤٥.

- صاحب جمال الدين يوسف هو ابن عبدالكريم بن بركة الجمال المعروف بابن كاتب جكم: ولد في عام ٤١٦هـ/٨١٩م، ونشأ نشأة علمية، حيث نال قدرا كبيرا من العلم، تولى نظر الخاص ٤٣٧هـ/٨٤١م مكان أخيه سعد الدين إبراهيم، وأضيف إليه بعد ذلك نظر الجيش عام ٤٥٢هـ/٨٥٦م، توفي في عام ٤٥١هـ/٨٦٢م، وقد مدحه السخاوي بقوله : "وكان رئيسا عاملا وقورا حلِيمًا، ذا سياسة بديعة، وفهم جيد". انظر: الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٣٢٢، ٣٢٣.

البنات العذارى اللاتي يخجلن ولا يخرجن من بيوتهن خرجن "للتفرج عليه" كما يروى عمر بن فهد، وكانت زيارته للقاهرة "يوما مشهودا"<sup>(١)</sup>.

ويتابع النجم عمر بن فهد حديثه بقوله: إنه وفد على الشريف بركات بن حسن بن عجلان أثناء مقامه في مقره بالقاهرة قضاة مصر وأعيانها للسلام عليه، كما وفد عليه أيضا بعض طلبة العلم حيث سمعوا منه وأجاز لهم<sup>(٢)</sup>.

كما يقرر المؤرخ ابن تغرى بردى أن التاجر الخواجا شرف الدين موسى لم يفارق الشريف بركات بن حسن بن عجلان خلال هذه الزيارة، حيث كان دائم التردد عليه وعلى السلطان جقمق وسائر أرباب الدولة، وذلك حتى انتهت هذه الزيارة، وعاد بعدها الشريف بركات إلى مكة المكرمة بسلام في يوم الخميس ١٥ شعبان من عام ٥٨٥١هـ / ٢٨ أكتوبر ١٤٤٧م<sup>(٣)</sup>.

وهكذا كانت بداية إمارة الشريف بركات بن حسن بن عجلان الثانية لمكة المكرمة بداية طيبة استطاع خلالها العمل على استقرار أحوال مكة المكرمة، وزاد الأمن والأمان بها، كما استطاع أن يقيم علاقات طيبة مع مختلف القبائل العربية المشرفة على طرق الحج المختلفة، وذلك لتأمين قوافل الحجيج.

ومن ناحية أخرى فإن دخول اليمن في دور من أدوار الضعف منذ ولاية الظاهر هزير الدين يحيى بن إسماعيل لها (٨٣١ - ٥٨٤٢هـ / ١٤٢٨ - ١٤٣٩م) "حيث خربت ممالك اليمن في أيامه"، على حد قول السخاوي<sup>(٤)</sup>، ثم ازدياد ضعفها في عهد ابنه الأشرف إسماعيل الذي قال عنه المؤرخ يحيى بن الحسين: "وكان

(١) إتحاف الوري، ج ٤، ص ٢٧٢.

(٢) إتحاف الوري: ج ٤، ص ٢٧٢.

(٣) النجوم الزاهرة، ج ١٥، ص ٣٧٩.

(٤) الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٢٢٣.

شابًا تغلب عليه رأي الجهل والسفه، فسفك الدماء، وأثار الفتن العظمى<sup>(١)</sup> والذي وصفه السخاوي أيضًا بقوله: "وكانت أيامه عجيبة وأحواله غريبة"<sup>(٢)</sup>. واتسم عهده بالتعسف، وقتل أقرب الناس إليه، فتولى ابن عمه يوسف بن عمر بن إسماعيل بن العباس أمور اليمن، فازدادت الصراعات في عهده، ولم تلبث دولة بني رسول أن سقطت بعد ذلك في عام ٥٨٦٠هـ / ١٤٥٦م في أيام الملك المسعود<sup>(٣)</sup>.

ولم يكن الشريف بركات بعيدًا عن أحداث اليمن المؤلمة، فانتهاز فرصة ما أصابها من ضعف، وقام بالاستيلاء على مدينة حلي الواقعة على الطريق الساحلي بين مكة المكرمة وبلاد اليمن<sup>(٤)</sup>، حيث كان بها حصن قوى يتحكم في مرور قوافل الحجيج، وجعله مقرًا لابنه محمد<sup>(٥)</sup>.

كذلك أقام الشريف بركات بن حسن بن عجلان علاقات وطيدة مع أشرف المدينة المنورة، فلم يعد ذلك التناحر بينهما، ويشهد على ذلك المشهد الذي صاحب زيارة الشريف بركات بن حسن بن عجلان للمدينة المنورة في شهر رجب من عام ٨٥٤هـ / أغسطس ١٤٥٠م، حيث توجه إليها وفي صحبته خلق كثير<sup>(٦)</sup> لدرجة أن المؤرخ النجم عمر بن فهد يقول عن هذه الزيارة: "وكانت قافلة عظيمة، يضرب بها المثل"<sup>(٧)</sup>، حيث استقبلها أمير المدينة المنورة ميان بن مانع استقبالا حافلا<sup>(٨)</sup>.

(١) غاية الأمانى فى أخبار القطر اليماني، ق٢، ص ٥٧٨.

(٢) الضوء اللامع، ج٢، ص ٣٠٨.

(٣) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور، ج١، ص ص ٥٢٥-٥٢٨.

(٤) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور، ج١، ص ٣٢١.

- مدينة حلي: إحدى مدن اليمن، تقع على ساحل البحر الأحمر على الطريق الواصل بين مكة واليمن، ويقال لها حلي بنى يعقوب. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص ٢٩٧.

(٥) السخاوى: التبر المسبوك، ج٤، ص ٣٠.

(٦) السخاوى: التبر المسبوك، ج٣، ص ٤٦.

(٧) غاية المرام، ج٢، ص ٤٤١، ٤٤٢.

وبعد هذه السنوات الطوال التي تولى خلالها الشريف بركات بن حسن بن عجلان إمرة مكة المكرمة، بطلوها ومُرّها، ضعف بدنه، وكَلَّتْ عزمته، فأراد أن يستأذن السلطان المملوكي الأشرف إينال (٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦١م) في أن يتنازل عن إمرة مكة المكرمة لابنه الشريف محمد بن بركات، لكن المنية كانت أسرع، فقد وافاه الأجل في يوم الاثنين الموافق ١٩ شعبان من عام ٨٥٩هـ/١٣ أغسطس ١٥٥٢م قبل أن يصل إليه مرسوم السلطان بولاية ابنه الشريف محمد إمرة مكة المكرمة<sup>(٢)</sup>.

وقد اكتسب الشريف بركات خبرة واسعة من وراء توليه إمرة مكة هذه المدة الطويلة؛ فقد تولاها منفردا مرتين؛ الأولى من عام ٨٢٩هـ/١٤٢٦م وحتى عام ٨٤٥هـ/١٤٤٠م، والثانية من عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م، وحتى وفاته في عام ٨٥٩هـ/١٤٥٥م، بالإضافة إلى تسع سنوات اشترك خلالها مع والده في إمرة مكة المكرمة أهله لأن يكون حاكما مثاليا، حاز رضا الجميع، وقد مدحه المؤرخون المعاصرون له أو الذين جاءوا من بعده، المكيون وغير المكيين، فعلى سبيل المثال

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ج٣، ص٤٦.

- ميان بن مانع: ويقال عنه أيضا إميان أو وميان بن مانع بن علي بن عطية بن منصور بن جماز بن شичه، وليها بعد وفاة والده في عام ٨٣٩هـ/١٤٣٥م، وعزل عنها أكثر من مرة، لكن استمر يحكمها حتى وفاته في عام ٨٨٥/١٤٥١م، انظر السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٣٢١.

(٢) العز بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٤٥١؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٩٩.

- السلطان الأشرف إينال، جركسي الجنس، تولى السلطنة وله من العمر ثلاثة وسبعون عاما، جلب إلى مصر أثناء سلطنة الظاهر برقوق، ثم تنقل في مختلف الوظائف إلى أن صار أمير مائة، ومقدم ألف في سلطنة برسباي، وتقلد عدة وظائف كبيرة في زمن السلطان جقمق، ثم قفز على العرش في عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، واستمر في الحكم حتى خلع نفسه نتيجة إصابته بالمرض في عام ٨٦٥هـ/١٤٦١م، ثم وفاته بعد ذلك في نفس العام. انظر ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١، ص٣٥١-٣٥٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٣٠٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٠٥.

يقول عنه المؤرخ ابن تغرى بردى: "كان رجلا عاقلا ساكنا، شجاعا، مشكور السيرة، أهلا للإمرة"<sup>(١)</sup>، ويقول عنه أيضا: كان عادلا فى أحكامه، مدبرا سيوسا"<sup>(٢)</sup>، أما المؤرخ السخاوى فيقول عنه: "حسنت سيرته، وعم الناس فى أيامه الأمن والرخاء"، ويقول أيضا: "كان شهما عارفا بالأمر، فيه خير كثير، واحتمال زائد، وحياء ومروءة طائفة"<sup>(٣)</sup>. فى حين قال عنه المؤرخ العز بن عمر بن فهد: "كان السيد بركات شهما، عارفا بالأمر، فيه خير كثير، واحتمال زائد، وحياء ومروءة طائفة، مع حسن الشكالة والسياسة، والشجاعة المفرطة، والسكينة والوقار، والثروة الزائدة"<sup>(٤)</sup>. ويقول عنه المؤرخ ابن إياس: "وكان خيار أمراء مكة"<sup>(٥)</sup>.

وبالجملة فقد ختم المؤرخ ابن تغرى بردى حديثه عن الشريف بركات بن حسن بن عجلان بجملة تفيد معانى كثيرة جاء فيها: "مات وهو رأس بنى عجلان بلا مدافعة"<sup>(٦)</sup>، أى أنه كان أشهر بنى عجلان قاطبة من حيث الرئاسة وعلو المنزلة، رحمه الله رحمة واسعة.

(١) النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ١٧٩.

(٢) حوادث الدهور، ج ١، ص ٤٨٦.

(٣) الضوء اللامع، ج ٣، ص ١٣.

(٤) غاية المرام، ج ٢، ص ٤٣٥.

(٥) بدائع الزهور، ج ٢، ص ٣٢٩.

(٦) حوادث الدهور، ج ١، ص ٤٨٦.



## الفصل السابع

الأوضاع السياسية في مكة المكرمة  
في عهد الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان





بعد أن بلغ أمير مكة المكرمة الشريف بركات بن حسن بن عجلان درجة متقدمة من العمر أحس بعدها بأنه غير قادر على إدارة وحكم مكة المكرمة، أرسل إلى السلطان المملوكي الأشرف إينال يخبره بما وصلت إليه صحته وأنه " ضعيف قليل الحركة " (١)، واستأذنه في أن يشرك معه في إمرة مكة ابنه الشريف محمد في حياته، وبعد مماته ينفرد بإمرتها، ولم يكتف الأمير الشريف بركات بتلك الرسالة، وإنما عوّل على وساطة أحد أمراء المالِك الذي كان له منزلة عند السلطان إينال وهو الأمير جانبك (جاني بك) الظاهري الذي كان شاذًا ونائبًا بجدة في ذلك الوقت (٢).

وكما سبقت الإشارة فقد نفّس في دولة المالِك مرض خطير هو الرشوة؛ فلم تكن الوظائف تعهد لمتوليها إلا بعد دفع مبلغ من المال، بالإضافة إلى عدة

(١) العز عبدالعزیز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٤٥١.

(٢) النجم عمر بن فهد: الدر الكمين بذيل العقد الثمين، ج ١، ص ١٠٤؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٧، ص ١٥٢.

- جانبك الظاهري: أصله من مالِك الظاهر جقمق، ولذلك احتفظ اسمه بالظاهري، ترقى في دولة الظاهر خُشقدم، وتولى عدة وظائف كان أهمها نيابة جدة، وصفه ابن إياس بقوله: " وكان أميرًا جليلًا في سعة من المال، كثير الخداع والحيل "، توفي مقتولاً في عام ٤٦٣/٥٨٦٧م على يد مالِك السلطان خُشقدم. انظر: بدائع الزهور، ج ٢، ص ص ٤٠٨، ٤٠٩.

- الشريف محمد بن بركات: ولد الشريف محمد بن بركات في مكة المكرمة في شهر رمضان من عام ٥٨٤٠/مارس ١٤٣٧م، نشأ وتعلم بمكة المكرمة، وأجاز له جماعة من العلماء، وصف بأنه كان كثير العطاء خصوصاً لأهل مكة المكرمة ولاسيما الفقراء والغرباء، كثرت أمواله، وتولى حكم بلاد الحجاز مثله مثل جده الشريف حسن بن عجلان، توفي في شهر المحرم من عام ٥٩٠٣/سبتمبر ١٤٩٧م. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج ٧، ص ١٥١؛ الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج ٢، ص ص ١٤٠، ١٤١؛ العيدروسي: تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ص ص ٣٦، ٣٧.

هدايا<sup>(١)</sup>، وكان يتقاسم تلك الهدايا والأموال السلطان وأولاده وزوجته. ولذلك عهد الشريف بركات إلى الأمير جانبك الظاهري بالقيام بهذه الوساطة في مقابل مبلغ يدفع له وللسلطان، لكن الأمير جانبك كان مشغولاً في ذلك الوقت بتحصيل الضرائب على السفن التي تحمل بضائع الهند، وهو الموسم الذي أطلق عليه المؤرخ المكي العز عبدالعزيز بن فهد اسم "الموسم الهندي"، ولذلك تأخر في الذهاب إلى القاهرة، ومقابلة السلطان، وإنهاء مسألة ولاية الشريف محمد بن بركات لمكة المكرمة، ولم يتوجه إليها إلا في ظهر يوم ١٩ شعبان من عام ٧/٥٨٥٩ أغسطس ١٤٥٥م بعد أن قام بزيارة الشريف بركات بن حسن بن عجلان الذي ازداد ضعفه، ولم يلبث أن وافاه الأجل في عصر ذلك اليوم (١٩ شعبان من عام ٧/٥٨٥٩ أغسطس ١٤٥٥م) قبل أن يصل إليه مرسوم ولاية ابنه محمد<sup>(٢)</sup>.

ما أن توفي الشريف بركات خشي أمراء مكة المكرمة وأشرافها من حدوث فوضى واضطراب بها، لذلك سارع القائد والوزير شهاب الدين بُدير الحسني في نفس وقت حدوث الوفاة بإرسال رسولين؛ الأول إلى الأمير جانبك الظاهري الذي كان في طريقه إلى القاهرة يعلمه بوفاة الشريف بركات<sup>(٣)</sup>، والرسول الثاني إلى الشريف محمد بن بركات الذي كان موجوداً باليمن في عمل كان والده الشريف بركات قد كلفه به<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٩٣.

(٢) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٤٥١.

(٣) النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٣٤٧.

(٤) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٤٥٢.

- بُدير الحسني: هو القائد أحمد بُدير بن شكر الحسني، كان والده عتيق الشريف حسن بن عجلان، تولى وزارة ابنه الشريف بركات، أما بُدير فقد ولد في عام ٥٨٠٧/٤٠٤م، وتولى بُدير أمور الشريف محمد بن بركات، ثم حدث خلاف بينهما عام ٥٨٦٤/٤٦٠م، لكن لم يلبث أن عاد الونام بينهما في عام ٥٨٦٧/٤٦٣م، توفي عام ٥٨٦٩/٤٦٤م. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣، ص ٢٤؛ النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٤٤١، ٤٤٢؛ العز بن فهد، غاية المرام، ج ٢، ص ٥٠٩.

وزيادة في الحِيطة وحتى لا تحدث فوضى واضطراب في ميناء جدة، ويقوم أحد بمهاجمته مما يضر بالتجارة والتجار، سارع القائد والوزير بُدير أيضاً بإرسال قوة عسكرية إليه، وذلك على حد قول المؤرخ المكي عمر بن فهد "لحفظ البلاد"<sup>(١)</sup>. ولم يعهد القائد بُدير لأحد بقيادة هذه القوة، وإنما سار بنفسه ومعه جماعة من أصحابه إليها، وأقام بها عدة أيام، وأعلن لكل المحيطين به من الأعراب أن الشريف محمد بن بركات في طريقه من اليمن إلى مكة المكرمة<sup>(٢)</sup>.

وما أن علم الأمير جانبك الظاهري نائب جدة وهو في الطريق إلى القاهرة بوفاة الشريف بركات إلا وخشي هو الآخر من حدوث فوضى واضطراب بمكة المكرمة، لذلك سارع بإرسال مرسوم يقضي بولاية محمد بن بركات إمرة مكة المكرمة، كما أرسل إليه خلعة<sup>(٣)</sup>.

وبالفعل وصل هذا المرسوم إلى مكة المكرمة أثناء غياب الشريف محمد بن بركات عنها، ولذلك فبمجرد وصول الشريف محمد بن بركات إلى مكة في ليلة الجمعة ٧ رمضان ٨٥٩هـ إلا وتوجه إليه أحد أمراء المالِك الموجودين بمكة المكرمة وبصحبته بعض الجنود حاملاً إليه مرسوم الأمير جانبك نائب جدة، بتوليته إمرة مكة المكرمة، فتوجه الجميع إلى المسجد الحرام وبصحبتهم جمع كبير يضم القضاة والتجار والأعيان، حيث قرئ مرسوم الأمير جانبك والذي يقضي بإقامة الشريف محمد بن بركات في إمرة مكة مكان والده الذي أصابه الضعف وقلة الحركة<sup>(٤)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن مرسوم الأمير جانبك بإقامة الشريف محمد بن بركات أميراً على مكة المكرمة كان مؤرخاً في ١٦ رجب ٨٥٩هـ، أي في وقت سابق

(١) النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٣٤٧.

(٢) النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٤١٨.

(٣) النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٣٤٧، ٣٤٨.

(٤) النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٣٤٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج ٧، ص ١٥٢.

على وفاة الشريف بركات نفسه، وفي وقت سابق أيضًا على تاريخ سؤال الشريف بركات للسلطان بإقامة ولده محمد بن بركات في إمرة مكة لضعفه، وما أصابه من قلة الحركة مما جعلنا نقرر أن الأمير جانبك الظاهري بوصفه نائبًا عن السلطان بمكة المكرمة لاحظ مدى الضعف والوهن الذي أصاب الشريف بركات، فتوقع وفاته في أية لحظة، وحدوث الفتن والفوضى والاضطراب بمكة المكرمة، فقام بكتابة هذا المرسوم، واحتفظ به لاستخدامه عند اللزوم، وحتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه.

وبعد أن وصل الأمير جانبك الظاهري إلى القاهرة اتفق مع السلطان إينال على أن يصدر مرسومًا بولاية الأمير محمد بن بركات، ووفقًا لما ذكره ابن تغري بردي نقلًا عما رواه له الأمير جانبك نفسه فإن السلطان وافق على إصدار هذا المرسوم بشرط أن يدفع له محمد بن بركات خمسين ألف دينار، يسدد منها عشرين ألفًا نقدًا عند زيارته القادمة للقاهرة، ويتم تقسيط باقي المبلغ وهو ثلاثون ألف على أقسام متفرقة، أو على حد تعبير ابن تغري بردي: "نقدات متفرقة"، هذا بالإضافة إلى ما يحمله الشريف محمد بن بركات من أموال وهدايا لابن السلطان وزوجته، حيث صار كما يقول ابن تغري بردي: "أن زوجة السلطان وولده صارا لهما نصيب وافر مع السلطان في كل هدية ورشوة"<sup>(١)</sup>.

وبالفعل أصدر السلطان إينال في ٢٧ رمضان من عام ٨٥٩هـ — مرسومًا بولاية الشريف محمد بن بركات إمرة مكة، ووصل هذا المرسوم إلى مكة المكرمة في يوم السادس من شوال وبصحبه خلعة شريفة له، حيث قرئ بالمسجد الحرام، وبذلك استقرت الأمور للشريف محمد بن بركات بمكة المكرمة<sup>(٢)</sup>.

أما الشريف محمد بن بركات هذا فقد خبر السياسة منذ نعومة أظفاره، إذ

(١) النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٩٣.

(٢) النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ص ٣٤٩، ٣٥٠.

شارك أباه الشريف بركات بن حسن بن عجلان في إدارة شئون مكة المكرمة، وأرسله والده ضمن السفارة التي توجهت لمقابلة السلطان المملوكي جقمق في عام ١٤٤٦/٥٨٥٠م وله من العمر عشر سنوات، وتحدث مع السلطان في أمر إعادة الوثام بين السلطان وبين والده الشريف بركات، وعاد إلى مكة المكرمة بوعود من السلطان بإعادة والده إلى إمرة مكة المكرمة<sup>(١)</sup>.

وقد تمتع الشريف محمد بن بركات بعدة مزايا كان أهمها قدرته على ضبط الأمور، مع حُسن كياسة وسياسة لدرجة أنه استمر في حكم مكة المكرمة أكثر من أربعة وأربعين عامًا دون أن يعزل عن حكمها يوماً واحداً، وإنما زيد على ذلك أن عُهد إليه بحكم بلاد الحجاز كلها مثل جده الشريف حسن بن عجلان.

وقد عاصر الشريف محمد بن بركات حكم سبعة من سلاطين المالِك الجراكسة الذين اتصف عهدهم بعدم الاستقرار، لذلك لم تطل مدة حكم أكثرهم التي بلغت -في بعض الأحيان- عدة أيام مثل السلطان أحمد بن إينال، والسلطان يليان، والسلطان تمربغا، ولم يكن أحد من بين هؤلاء السلاطين الذين عاصروا الشريف محمد بن بركات يتمتع بالقدرة على ضبط الأمور سوى السلطان قايتباي الذي دام حكمه تسعة وعشرين عامًا<sup>(٢)</sup>.

(١) السخاوي : التحفة اللطيفة، ج ٣، ص ٥٣٠.

(٢) عاصر الشريف محمد بن بركات خلال حكمه السلطان إينال (٨ ربيع الأول ٥٨٥٧هـ - ١٤ جمادى الأولى ٨٦٥هـ / ٢٠ مارس ١٤٥٣ - ٢٦ فبراير ١٤٦١م)، ثم السلطان الملك المؤيد أحمد بن إينال (١٤ جمادى الأولى ٨٦٥هـ - ١٧ رمضان ٨٦٥هـ / ٢٦ فبراير ١٤٦١م - ٢٧ يونيو ١٤٦٢م)، ومن بعده السلطان أبو سعيد سيف الدين خُشقدم (١٧ رمضان ٨٦٥هـ - ١٠ ربيع الأول ٨٧٢هـ / ٢٦ فبراير ١٤٦١م - ٩ أكتوبر ١٤٦٧م)، ثم السلطان الظاهر يليان (١٠ ربيع الأول ٨٧٢هـ - ٧ جمادى الأولى ٨٧٢هـ / ١٩ أكتوبر ١٤٦٧م - ٥ ديسمبر ١٤٦٧م)، ثم السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي (٧ رجب ٨٧٢هـ - ٢٦ ذي القعدة ٩٠١هـ / ٢ فبراير ١٤٦٨م - ٧ أغسطس ١٤٩٦م)، وأخيراً السلطان الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد بن قايتباي (٢٦ ذي القعدة ٩٠١هـ - ١٥ صفر ٩٠٤م / ١٧ أغسطس ١٤٩٦م - ٣ أكتوبر ١٤٩٨م). انظر : حامد زيان : المالِك، التاريخ السياسي، ص ١٥١-١٦٦.

أما السلطان قايتباي هذا فقد وصف بأنه " لم يكن له نظير في ملوك الجراكسة، ولا فيمن قبلهم من ملوك الأتراك " (١)، وارتبط برباط الصداقة مع الشريف محمد بن بركات، وقد أخلص كلاهما للآخر إخلاصًا تامًا.

وقد ساند السلطان قايتباي الشريف محمد بن بركات، ووقف إلى جواره، وذلك منذ بداية حكمه لسلطنة المالِك؛ ففي أثناء الفتنة والقتال التي أثارها الشريف علي بن بركات أخو الشريف محمد بن بركات في عام ٥٨٧٢هـ/٤٦٨م، والذي لم يرض بأن ينفرد أخوه الشريف محمد بن بركات بإمرة مكة المكرمة، فتوجه إلى القاهرة لمقابلة السلطان قايتباي ليحدثه في هذا الشأن دون أن يعلم بذلك الشريف محمد بن بركات (٢)، غير أن السلطان قايتباي لم يسمع للشريف علي، خصوصًا بعد أن أرسل إليه الشريف محمد يخبره بذهاب علي إلى القاهرة بدون علمه، ونصح الشريف علي بن مبارك بضرورة مصالحة أخيه محمد، ولم يكتف السلطان قايتباي بذلك وإنما أرسل في ١١ ذي القعدة من عام ٥٨٧٢هـ/ ٤ يونيو ٤٦٨م رسالة إلى الشريف محمد بن بركات ينصحه فيها بعدم سماع وشاية الحاقدين، ومما جاء فيها: " إن السيد عليًا وصل إلينا إلى مصر، وأكرمناه، وأثنى عليكم خيرًا، وقال: إنكم له بمنزلة الوالد، ثم جاءنا نجابكم بكتبكم، ثم السيد زين الدين سباط، وفي كتبكم: أنه خرج بغير علمكم، ولا تعلمون لذلك سببًا، وأن ذلك تعليم ممن يرمي الفتن، والمقصود إرساله، وقد أمرناه بالتجهز إليكم، فلا تشوشون عليه بوجه من الوجوه، فإنه استجار بنا، ولا تسمعون فيه كلام المناجيس، وتذكرون كلام الله تعالى [ سنشد عضدك بأخيك ] " (٣).

والمدقق في نص رسالة السلطان قايتباي يتضح له إلى أي مدى نظر

(١) الشوكاني: البدر الطالع، ج ٢، ص ٢٦.

(٢) النجم عمر بن فهد: الدر الكمين، ج ١، ص ١٠٦.

(٣) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٥١٢، ٥١٣.

السلطان إلى شريف مكة المكرمة، فهي نظرة ملؤها الاحترام والمودة، فهو في البداية لم ير إثارة الشقاق بين الأخوين، كما أنه يضع الشريف محمد بن بركات في منزلة كبيرة، وينصحه بالحنو على أخيه، وفي نفس الوقت فإنه ينصاع إلى رأي الشريف محمد بن بركات في إعادة الشريف علي إلى مكة المكرمة، ويهمس إلى الشريف محمد بن بركات بأن يعامل أخاه معاملة طيبة، ويجعله عضداً له كما أمر الله سبحانه وتعالى<sup>(١)</sup>.

غير أن الشريف علي بن بركات استمر في خروجه على أخيه محمد ومعاندته له، فبعد عودته إلى مكة المكرمة، أخذ في الانضمام إلى بعض الخارجين على الشريف محمد بن بركات مما أفرعه، ولذلك بعد ذهاب الشريف علي بن بركات شاكياً مرة أخرى للسلطان قايتباي قام قايتباي باحتجازه بالقاهرة، ولم يجعله يعود مرة أخرى إلى مكة المكرمة، وذلك بإيعاز من الشريف محمد بن بركات؛ وذلك درءاً للفتنة، ويذكر المؤرخ ابن إياس أن الشريف محمد بن بركات دفع للسلطان قايتباي مبلغ ستين ألف دينار في مقابل ذلك<sup>(٢)</sup>!!

وبصرف النظر عما دفعه الشريف محمد بن بركات للسلطان من أموال مقابل التخلص من أخيه، فإن احتجاز الشريف علي بن بركات في القاهرة ساعد على عدم إثارة وتأجيج الفتنة بمكة المكرمة، وهو ما كان يريده كل من الشريف محمد بن بركات والسلطان قايتباي، وقد استمر الشريف علي بن بركات محتجزاً بالقاهرة حتى وفاته في شهر رجب من عام ٨٩١هـ/ يولييه ١٤٨٦م<sup>(٣)</sup>.

ومما يدل على تلك المحبة التي ملأت قلب السلطان قايتباي للشريف محمد بن بركات ولمكة المكرمة هو ما قام به السلطان قايتباي من أعمال خير بمكة المكرمة

(١) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٥١٣.

(٢) بدائع الزهور، ج ٣، ص ١١.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١١.

كان من بينها ما قام به من إعادة جريان الماء بالعين المعروفة باسم "عين عرفة" (١) التي سبق وأن أجراها الأمير حوبان في عام ١٣٢٦/٥٧٢٦م -وزير إيلخان مغول فارس بوسعيد خدابنده- والتي تعطلت بعد ذلك، واستمرت معطلة نحو مائة عام، فأمر السلطان قايتباي بإعادتها مرة أخرى، وبالفعل فإنه في عام ١٤٧٠/٥٨٧٥م تم الانتهاء من العمل بها، ويشير المؤرخ ابن إياس إلى أنه في شهر شعبان من هذا العام (١٤٧٠/٥٨٧٥م) جاءت الأخبار إلى القاهرة بإنهاء العمل في هذه العين، "وحصل بها غاية النفع لأهل مكة" (٢).

ويذكر المؤرخ المكي المعاصر لهذه الأحداث النجم عمر بن فهد أن الأمير المملوكي الذي كلفه السلطان قايتباي بالكشف عن تلك العين وعمارتها هو الأمير سنقر الجمالي الذي قام ببذل الجهد من أجل الكشف عنها، ويذكر عمر بن فهد أيضاً أن سنقر الجمالي بمجرد أن ظهرت له المياه اكتفى بذلك، ولم يبحث عن أصل العين، أو على حد تعبيره "أم العين" مكتفياً بإصلاح الفساقى التي كانت معطلة، والكشف عن الفساقى الأخرى التي ردمت تحت الرمال (٣).

وقد أفاض المؤرخ السهمودي في فضل تلك العين، وما أحدثته من آثار طيبة

(١) القرماني: أخبار الدول وآثار الأول، ج ٢، ص ٣١٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في

أخبار من ذهب، ج ٨، ص ٧.

- عرفت هذه العين أيضاً باسم "عين بازان".

(٢) بدائع الزهور، ج ٣، ص ٥٦-٥٧.

(٣) إتحاف الوري، ج ٤، ص ٥٢٦.

- الأمير سنقر الجمالي، هو أبو السعادات سنقر، يذكر السخاوي أنه ولد تقريباً في عام

٨٣٥هـ/١٤٣٢م، ثم أسر هو وأخوه شاهين وأمهما، ووصلوا إلى مصر في

عام ٨٥٣هـ/١٤٤٩م، حيث أسلم، وتعلم الكتابة، ونال قدرًا من العلم، ثم أخذ يترقى حتى

تولى عدة مناصب منها الحسبة، والشادية، كما تولى عمارة المسجد الحرام والمسجد

النبوي، توفي في عام ٩٠٢هـ/١٤٩٧م. انظر: السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢، ص

ص ١٩٧، ١٩٨.



على الحجاج بقوله : " من ذلك إجراء عين عرفة من بطن نعمان، بعد أن دُمرت وانمحت معالمها واندرست، وعمارة بركها ومجاريها حتى فاضت الأنهار بأقاصيها وأدانيها، وأوصلها إلى مسجد نمرة، وأنشأ به صهريجًا يجتمع فيه الماء، فأذهب بذلك عن الحج الأعظم الظمأ "(١).

هذا بالإضافة إلى قيام السلطان قايتباي بإنشاء مدرسة بمكة المكرمة عند باب السلام<sup>(٢)</sup>، وخير من يحدثنا عن هذه المدرسة هو الرجل الذي تولى أمر الإشراف على خزانة كتبها (أي مكتبتها) وهو المؤرخ الشيخ قطب الدين النهروالي صاحب كتاب " الإعلام بأعلام بيت الله الحرام "، حيث يقول إن السلطان قايتباي أصدر أوامره في عام ١٤٧٧/٥٨٨٢م إلى وكيله الخواجه شمس الدين محمد بن عمر والي شاد عمائره بمكة المكرمة الأمير سنقر الجمالي بأن يبحث عن مكان يصلح لأن يكون مدرسة لتدريس المذاهب الأربعة، ويكون مشرفاً على الحرم المكي، ويتخذ منه سكناً للفقراء<sup>(٣)</sup>.

وقد اجتهد كل من الخواجه شمس الدين محمد بن عمر والأمير سنقر الجمالي في البحث عن المكان المنشود، وأخيراً وقع اختيارهما على دار لإحدى شريفات مكة المكرمة، وتم شراؤها منها، وأضافا إليها بعض الأربطة المجاورة، وتم العمل في بناء المدرسة الذي استغرق عدة أعوام، ليتم الانتهاء منها في عام ١٤٧٩/٥٨٨٤م، وقد زودت هذه المدرسة بمكتبة ضخمة ضمت العديد من الكتب التي تم وقفها على طلبة العلم، وجعل لها خازن (أي أمين لها) قدر له مبلغ كبير من

(١) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، ج ٢، ص ٧١٦.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٢٩.

(٣) النهروالي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٢٣٥.

- الخواجه شمس الدين محمد بن عمر بن محمد بن عمر السراج: يعرف بابن الزمن، ولد بدمشق في عام ١٤٢١هـ/١٤٢١م، ونشأ بها، كان من أعيان التجار، محباً للعلماء، قام بإنشاء عدة منشآت بمكة المكرمة والمدينة المنورة، توفي في عام ١٤٩٢هـ/١٤٩٢م. انظر: السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٣، ص ٦٩٦.

المال، كما تقرر بناء رباط مجاور لها ليكون سكنًا للفقراء<sup>(١)</sup>. وحتى تؤدي هذه المدرسة دورها على مر الزمن أوقف عليها السلطان قايتباي عدة قرى بمصر كانت تُحمل خيراتها كل عام إلى مكة المكرمة<sup>(٢)</sup>.

كما أصدر السلطان قايتباي أوامره بإبطال كافة المكوس (الضرائب) التي كانت تفرض على الحجاج والزائرين لبيت الله الحرام<sup>(٣)</sup>، وأصدر قرارًا بأن ينقش ذلك على أحد أعمدة المسجد الحرام عند باب السلام<sup>(٤)</sup>.

ومما يدل على تلك الروابط الوثيقة التي ربطت شريف مكة المكرمة محمد ابن بركات بالسلطان قايتباي أن رُسل الشريف محمد بن بركات لم تنقطع من الذهاب إلى القاهرة، كما شارك مشاركة فعالة في مختلف المناسبات التي أُقيمت بالقاهرة، ومن ذلك ما يرويه المؤرخون من حضور مجموعة من وجوه وأعيان مكة المكرمة ذلك الاحتفال الذي أُقيم بالقاهرة بمناسبة عيد الفطر في عام ٨٧٨هـ/٤٧٤م، حيث شارك في موكب الاحتفال قاضي مكة المكرمة البرهان بن ظهيرة، وولده أبو السعود، وأخوه، كما حضر هذا الموكب أيضًا الشريف بركات بن محمد بن بركات وغيرهم من الأمراء والأعيان، وقد انشرح لهم صدر السلطان قايتباي، وخلع عليهم الخلع الشريف<sup>(٥)</sup>.

(١) النهروالي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٢٣٦.

(٢) النهروالي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٢٣٦.

(٣) القرماني: أخبار الدول وآثار الأول، ج ٢، ص ٣١٩.

(٤) النهروالي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٢٢٣.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٩٣.

- القاضي البرهان بن ظهيرة : هو برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن محمد بن حسن بن أحمد بن عطية بن ظهيرة القرشي المكي الشافعي، ولد في عام ٨٢٥هـ/٤٢٢م بمكة المكرمة، وينتمي إلى أسرة اشتهرت بالعلم والمعرفة، تولى القضاء بمكة المكرمة، والخطابة بالمسجد الحرام، كما تولى أيضًا نظر المسجد الحرام، توفي في عام ٨٩١هـ/٤٨٦م. انظر: العز بن فهد: بلوغ القرى في ذيل إتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق: صلاح الدين خليل إبراهيم وآخرين، القاهرة، ٢٠٠٥م، ج ١، ص ص ٤٥٠، ٤٥٢.

ولم يكن الشريف محمد بن بركات أقل إخلاصًا للسلطان قايتباي ووفاءً له من والده الشريف بركات، ومن الأحداث التي توضح ذلك الإخلاص بجلاء قيام الشريف محمد بن بركات بالقبض على رجال الأمير حسن (بيك) الطويل، أمير إمارة الشاة البيضاء (آق قيونلو)<sup>(١)</sup>، عندما قدموا إلى مكة المكرمة في شهر ذي الحجة من عام ٨٧٧هـ/ مايو ١٤٧٣م حاملين معهم كسوة للكعبة المشرفة.

وعلى الرغم من أن إمارة الشاة البيضاء التي حكمت العراقين<sup>(٢)</sup> (عراق العجم، وعراق العرب) كانت في بداية عهدها على علاقة طيبة بدولة المماليك إلا أن حسن (بيك) الطويل ناصب المماليك العداء بعد ذلك، وأغار على ممتلكاتهم في مدينة حلب مما أدى إلى قيام السلطان قايتباي بالهجوم على ممتلكاتهم، كما قام بتشجيع ومساندة محمد أغولو بن حسن الطويل عندما وقف ضد والده<sup>(٣)</sup>، ونتيجة لذلك العداء قام حسن الطويل باتخاذ لقب خادم الحرمين نكاية في السلطان قايتباي حامل هذا اللقب، كما قام بإرسال ركب الحج العراقي لعام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٣م

(١) حسن (بيك) الطويل، أو حسن أوزون هو ابن علي بن قرايولك، حكم إمارة الشاة البيضاء التركمانية التي تسمى أيضًا (آق قيونلو) فيما بين عامي ٨٥٧-٨٨٣هـ/ ١٤٥٣-١٤٧٨م بعد أن خلع أخوه معز الدولة جهانكير بن علي، وقد نشأت هذه الدولة في عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م بمنحة من تيمورلنك، واستمر حسن الطويل في الحكم حتى وفاته في عام ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م، وكانت له علاقات ودية مع دول غرب أوروبا، في حين كانت له علاقات عدائية مع كل من بني عثمان ودولة المماليك. وكلمة " آق قيونلو " كلمة تركية بمعنى أصحاب الخراف البيضاء.

انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٤٨؛ القرمانلي: أخبار الدول وآثار الأول، ج ٣، ص ٣٤، ص ٩١-٩٤؛ وانظر أيضًا: زامباور: معجم الأنساب، ج ٢، ص ٣٨٤؛ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، بيروت، ١٩٤٨م، ص ٤٢٣؛ إبراهيم علي طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة ١٩٦٠م، ص ١١٨، ١١٩.

(٢) السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، ج ٣، ص ٢٢، ٢٤؛ وانظر أيضًا: سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٢٥٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٤٨.

وبصحبته كسوة للكعبة المشرفة، وذلك لكي يعلن لكافة المسلمين أنه لا يقل شأنًا عن السلطان المملوكي قايتباي، ويحوز بذلك زعامة العالم الإسلامي.

وبالفعل توجه الراكب العراقي وعلى رأسه الأمير رُستم يصاحبه القاضي أحمد بن دحية إلى المدينة المنورة أولاً، حيث قام بزيارة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، كما خطبوا على منبر المسجد النبوي باسم (حسن بيك الطويل)، ثم توجه بعد ذلك إلى مكة المكرمة وفي صحبتهم كسوة الكعبة المشرفة<sup>(١)</sup>، وقد علم الشريف محمد بركات أن هذا الراكب قد زوده حسن الطويل بتعليمات أهمها إقامة الخطبة باسمه على منبر المسجد الحرام متخذاً لقب خادم الحرمين الشريفين، وأن يقوموا بتعليق كسوة الكعبة التي أحضروها معهم<sup>(٢)</sup>.

وما أن علم الشريف محمد بن بركات بكل هذه الأخبار حتى خرج بجنده خارج مكة لمقابلة الراكب العراقي، ومنعه من الدخول إلى مكة المكرمة وهم على هذه الهيئة<sup>(٣)</sup>، ويذكر المؤرخ النجم عمر بن فهد أن الشريف محمد بن بركات استعان بأمر الحاج المصري الأمير برسباي الشرفي، وبالقوة العسكرية المملوكية الموجودة بمكة المكرمة، والجميع في كامل استعدادهم للحرب، وقاموا بالقبض على أمير الحاج العراقي، ووضعوا القيود في يديه، وتحفظوا على كسوة الكعبة التي معه، ولكنهم في نفس الوقت لم يمنعوا الراكب العراقي من تأدية فريضة الحج، وإنما سمحوا لهم بتأديتها تحت إشرافهم، كما حرصوا على أن يؤدي أمير الراكب العراقي أيضاً فريضة الحج وهو في قيوده وتحت التحفظ، وبعد ذلك سيق وهو

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٨٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٨٨.

- وعن حسن الطويل انظر ما كتبه عنه ابن أجا في كتابه: رحلة الأمير يشبك من مهدي

الدوادر، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دمشق، ١٩٩٦م، ص ١٠٦، ١٢٦، حيث تقابل

ابن أجا مع حسن الطويل في عام ٥٨٧٦هـ/١٤٧١م.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٨٨.

مكبل بالحديد إلى القاهرة ليرى فيه السلطان قايتباي رأيه<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا النحو استطاع الشريف محمد بن بركات التصدي لمحاولة الأمير حسن (بيك) الطويل إقامة الخطبة له على منابر مكة المكرمة، والقيام بكسوة الكعبة المشرفة التي اعتبرها سلاطين المماليك حقاً لهم دون أن يدخل في حرب مع أمير الركب العراقي مما يؤثر على حج هذا العام، وبذلك أثبت إخلاصه للسلطان الأشرف قايتباي، الأمر الذي جعله يزداد قدراً في نظر الأخير.

ومن الجدير بالذكر أن الشريف محمد بن بركات خشي من هروب أمير الركب العراقي (رستم)، والقاضي أحمد بن دحية، وعدم ذهابهما إلى السلطان قايتباي، لذلك أرسلهما وهما مكبلان بالحديد بصحبة ابنه الأمير بركات الذي توجه إلى القاهرة بصحبة الركب المصري العائد من تأدية فريضة الحج في شهر المحرم من عام ٨٧٨هـ / يونية ١٤٧٣م<sup>(٢)</sup>.

وقد استقبل السلطان قايتباي الأمير الشريف بركات بن محمد بن بركات استقبالاً طيباً، هو ومن معه من أعيان مكة المكرمة، وعلى رأسهم القاضي برهان الدين بن ظهيرة ومعه جماعة من أقاربه وأخيه، خطيب المسجد الحرام فخر الدين أبوبكر، تصاحبه جماعة من محبيه، وذهب الجميع بصحبة الشريف بركات بن

(١) إتحاف الوري، ج٤، ص ٥٥٨.

- برسباي الشرفي يونس: تولى العديد من الوظائف منها وظيفة الدوادارية، كما كان استادار الصحبة، وأمير المحمل في عام ٨٧٧هـ/١٤٧٣م، توفي أثناء ذهابه سفيراً إلى صاحب الروم آخر ربيع الآخر من عام ٨٧٨هـ/سبتمبر ١٤٧٣م، قال عنه السخاوي: "كان من خيار أبناء جنسه". الضوء اللامع، ج٣، ص ١٠.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٩٠.

- قام السلطان قايتباي بسجن الأمير رستم والقاضي أحمد بن دحية بأحد أبراج قلعة الجبل، ولم يفرج عنهما إلا في شهر ربيع الآخر من نفس العام (٨٧٨هـ/١٤٧٣م). انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٩١، ٩٢.

محمد بن بركات للإعلان عن ولائهم وإخلاصهم للسلطان قايتباي مما زاد من محبة السلطان قايتباي للشريف محمد بن بركات وأعوانه<sup>(١)</sup>.

ومما يدل على ذلك احتفاء السلطان قايتباي بهذا الوفد احتفاء كبيراً، ويذكر السخاوي وهو ممن عاصروا تلك الأحداث، وأرخوا لها، أن السلطان قايتباي " أرسل لكل منهم فرساً، وللقاضي بغلة، ومدت لهم الأسطة "<sup>(٢)</sup>، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تلك الروابط الجيدة التي ربطت السلطان قايتباي بأمير مكة المكرمة وأعيانها.

ولا شك في أن ما قام به الشريف محمد بن بركات من حفظ مكة المكرمة، واستمرار ولائه للسلطان قايتباي، كان له وقع كبير في نفس السلطان المملوكي، ومما يؤكد ذلك ما قام به السلطان قايتباي من إرسال مرسوم للشريف محمد بن بركات مؤرخ في الثامن من شهر المحرم من عام ٨٧٨هـ / ٦ يونيو ١٤٧٣م يوضح له فيه وصول ابنه الشريف بركات ومن في صحبته من العلماء والأعيان، ويشكره فيه على " ما فعله " مع الركب العراقي، وذلك من أجل حماية الحرمين الشريفين مكة والمدينة "<sup>(٣)</sup>.

وإذا أضفنا إلى كل ذلك قيام الشريف محمد بن بركات بالحفاظ على أمن مكة المكرمة من هجمات الأعراب، وقيامه بين الحين والآخر بالضرب على يد مختلف القبائل العربية التي دأبت على مهاجمة قوافل الحجيج، مثل قيامه في عام ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م بغزو قبائل البقوم من عرب لام، وعرب عتيبة، وفي عام

(١) النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٥٥٨.

- فخر الدين أبو بكر: هو شقيق برهان الدين بن ظهيرة، ولد بمكة المكرمة في عام ٨٣٨هـ / ١٤٣٥م، ونشأ وتعلم بها، تولى الخطابة بالمسجد الحرام، وتوفي في عام ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م. السخاوي: الضوء اللامع، ج ١١، ص ٥٨-٦٠.

(٢) الضوء اللامع، ج ١، ص ٩٧.

(٣) النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٥٦٧، ٥٦٨.

١٤٧٥هـ/١٤٧٠م بمهاجمة عرب زبيد، كما قام في عام ١٤٧٧هـ/١٤٧٧م بمهاجمة أبناء قبيلة جازان، ولم يتردد في القبض على شيخ وزعيم هذه القبيلة الشريف أبي الغواير أحمد بن دريب بن خالد، ويرى المؤرخ اليمني يحيى بن الحسين أن الشريف محمد بن بركات قام في هذه الغزوة بالاستيلاء على خزائن جازان، وذخائر الشريف أحمد<sup>(١)</sup>.

كما حافظ الشريف محمد بن بركات على التزاماته المالية تجاه السلطان قايتباي، إذ كان دائم إرسال الأموال المقررة عليه، ومن ذلك -على سبيل المثال- ما يشير إليه المؤرخ ابن إياس من أنه في موسم حج عام ١٤٧٨هـ/١٤٧٤م أرسل الشريف محمد بن بركات إلى السلطان قايتباي نحو مائة ألف دينار بصحبة ابنه بركات مما دفع السلطان قايتباي إلى زيادة الاحتفاء بالشريف بركات وبمن معه من أعضاء الوفد المرافق له<sup>(٢)</sup>.

ومما زاد من مكانة الشريف محمد بن بركات لدى السلطان قايتباي ذلك الاستقبال الحافل الذي استقبله به أثناء قيامه بتأدية فريضة الحج في عام ١٤٨٠هـ/١٤٨٠م، والمعروف أن السلطان قايتباي هو السلطان الوحيد الذي قام بتأدية

(١) غاية الأمان في أخبار القطر اليمني، القسم الثاني، ص ٦٠٩.

- عرب البقوم : أرجعهم البعض إلى أنهم من قحطان وليس من لام. ويسكنون شرق الطائف. انظر: النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٥٠٤. وقبيلة لام بطن من آل مرة بن ربيعة. انظر: القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، ص ٨٠.

- عرب عتيبة : هي إحدى القبائل العربية، وكانت تسكن شمال مكة المكرمة. انظر: عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، ج ٢، ص ٧٥٢.

- عرب زبيد : هي إحدى القبائل العربية المنفصلة عن حرب، أصلها من اليمن، وتنتشر في الجزيرة العربية وفي بلاد الشام. راجع: عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، ج ٢، ص ٤٦٤، ٤٦٥.

- الشريف أبو الغواير أحمد بن دريب بن خالد الشهاب بن قطب الدين الحسيني: حاكم جازان. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج ١، ص ٢٩٩.

(٢) بدائع الزهور، ج ٣، ص ٩٣.

فريضة الحج من بين سلاطين المماليك الجراكسة<sup>(١)</sup>، وقد عُرف عنه حبه لأعمال الخير، ويقرب العلماء والصلحاء، وكثير العبادة<sup>(٢)</sup>، قال عنه الشوكاني: "لم يكن له نظير في ملوك الجراكسة"<sup>(٣)</sup>.

وقد خرج السلطان قايتباي من قلعة الجبل في يوم الخميس ٢٣ شوال دون أن يعلم بسفره لأداء فريضة الحج أحد، ولم يصحبه سوى عدد قليل من خاصكيته من المماليك، وعدد قليل من الأمراء، حيث توجه إلى بلاد الحجاز، وما أن علم بذلك الشريف محمد بن بركات أمير مكة المكرمة حتى أخذ يتتبع مسيرة السلطان حتى قارب بلاد الحجاز، فما كان منه إلا الخروج لاستقباله على بعد مسيرة يومين من مكة المكرمة في ظهر يوم الأحد ١٧ ذي القعدة من عام ٨٨٤هـ/٣١ يناير ١٤٨٠<sup>(٤)</sup>، وقد اصطحب الشريف محمد بن بركات معه لاستقبال السلطان قايتباي ابنه الشريف هيزع، وكذلك قاضي القضاة الشيخ برهان الدين بن ظهيرة، والعالم الشيخ إبراهيم بن علي بن ظهيرة الذي ارتبط برباط الصداقة مع الشريف محمد بن بركات<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ق ١، ص ٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٨، ص ٨؛ يوسف الملواني: تحفة الأحباب بمن ملك مصر والملوك والنواب، تحقيق: عبدالرحيم عبدالرحمن، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٨٧.

- يذكر ابن سباط خطأ أن هذا الحج كان في عام ٨٨٥هـ/١٤٨١م. انظر: صدق الأخبار، ج ٢، ص ٩٠٣.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٠١، ٢١١.

(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج ٢، ص ٥٦.

(٤) النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٦٤٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٦٠.

(٥) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٥٣٣؛ النهروالي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٢٣٠.

- الشيخ إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي السعود محمد بن حسن بن علي بن أحمد بن عطية بن ظهيرة، يقول عنه السخاوي "هو عالم الحجاز ورئيسه"، ولد في عام ٨٢٥هـ/١٤٢٢م بمكة المكرمة، وتوفي بها في عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م. انظر: الضوء اللامع، ج ١، ص ٨٨، ٨٩.



ويذكر المؤرخ النهروالي أن الشريف محمد بن بركات أرسل أحد قواده ليسبقه في استقبال السلطان قايتباي حاملاً معه " سماط حلوى "، حيث تقابل هذا القائد مع السلطان عند مدينة الحوراء، فرحب بالسلطان، وقدم له الحلوى، فجلس السلطان ومن معه من الأمراء وتناولوا هذه الحلوى، ولم يلبث أن سأل السلطان رسول الشريف محمد بن بركات عن اسم هذه الحلوى، فقال له: " إن اسمها " كل واشكر "، فقال له السلطان قايتباي مداعباً: " سلم على سيدك، وقل له: أكلنا وشكرنا " (١).

وتدل هذه المداعبة، على ما أكنه السلطان قايتباي من حُب وود للشريف محمد بن بركات، خصوصاً إذا عرفنا أن السلطان قايتباي وُصف في المصادر بأنه كان لا يميل إلى المزاح، وحازماً في أموره لدرجة أنه أخاف الجميع (٢).

غير أن السلطان الأشرف قايتباي فضّل أن يذهب أولاً إلى المدينة المنورة لزيارة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويروي المؤرخ السمهودي الذي كان حاضراً أثناء تلك الزيارة أن السلطان الأشرف قايتباي وصل إلى المدينة المنورة في فجر يوم الجمعة ٢٢ ذي القعدة ٨٨٤هـ / ٥ فبراير ١٤٨٠م، حيث زار المصطفى -صلى الله عليه وسلم- في خشوع وخضوع، ثم زار شهداء أحد، ومسجد قباء، وغيره من المشاهد الموجودة بالمدينة المنورة، وقام بتوزيع الأموال الجزيلة على أهالي المدينة وعلمائها، تلك الأموال التي قدرها السخاوي بنحو ستة آلاف دينار (٣). وبعد أن قضى بالمدينة المنورة ثلاثة أيام غادرها في يوم الأحد ٢٤

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٢٣٠.

- السماط هو ما يمد ليوضع عليه الطعام. المعجم الوسيط، ج ١، ص ٤٦٦.

- الحوراء: إحدى القرى الواقعة على البحر الأحمر شرقي القلزم، وهي تمثل آخر الحدود

المصرية من جهة بلاد الحجاز. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٦٦.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٠٣.

(٣) التحفة اللطيفة، ج ٣، ص ٤١١.

ذي القعدة متوجهاً إلى مكة المكرمة، ويشير السمهودي إلى أنه طوال أيام إقامته بالمدينة المنورة لم يركب جواداً، وإنما كان يمشي على قدميه، حتى خرج من باب المدينة مغادراً إياها، حينئذ فقط ركب جواده متجهاً إلى مكة المكرمة<sup>(١)</sup>. وقد ذكر المؤرخون أن السلطان الأشرف قايتباي "وقف على أهالي المدينة المنورة والوافدين إليها كل سنة سبعة آلاف إردب قمحاً، ليفرق على كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، حرهم وعبدهم، ذكراًهم وأنثاهم بالسوية بينهم، ويعمل دشيشة كل يوم للفقراء مع قرصين"<sup>(٢)</sup>. كذلك فإنه أبطل المكوس (الضرائب) التي كان يفرضها أمراء المدينة المنورة على الزائرين، وعوضهم عنها<sup>(٣)</sup>.

أما الشريف محمد بن بركات فكان قد وصل إلى بدر، وهناك علم بتوجه السلطان الأشرف قايتباي لزيارة المدينة المنورة، فأقام بها انتظاراً لعودة السلطان من المدينة المنورة، وبالفعل بعد أن أتم السلطان زيارة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- توجه إلى مكة المكرمة، وعندما اقترب من بدر سارع الشريف محمد بن بركات لاستقباله عند قرية الصفراء، ثم عاد معه إلى بدر، ومنها توجهوا جميعاً إلى مكة المكرمة، ويذكر النهروالي أن الشريف محمد بن بركات مشى عن يمين السلطان، بينما مشى القاضي برهان الدين بن ظهيرة عن يساره، أما سائر الأمراء فقد ساروا أمام السلطان، وأثناء الطريق أخذ السلطان في ملاطفتهم وسؤالهم عن

(١) وفاء الوفاء، ج ٢، ص ٧١٠-٧١٣؛ وانظر أيضاً: السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٣، ص ٤١١.

(٢) القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول، ج ٢، ص ٣١٩؛ يوسف الملوانى: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، ص ٨٧.

- دشيشة: هي نوع من الطعام عبارة عن قمح مطحون، ويطبخ مع اللحم أو التمر. انظر ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ٢٧٣، ٢٧٤.

(٣) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٣، ص ٤١١.

أحوالهم، شاكرًا مسعاهم<sup>(١)</sup>.

وأثناء الطريق احتفى كل من السلطان والشريف محمد بن بركات بالآخر احتفاءً كثيرًا، حيث تناولا الطعام والشراب، وأكلا الحلوى، حتى وصلا إلى مكة المكرمة في يوم الأحد غرة ذي الحجة من عام ٨٨٤هـ<sup>(٢)</sup>.

ويروي المؤرخ المكي النجم عمر بن فهد - وهو ممن عاصروا هذه الحجة، وشاهدوا عيانها - أن الشريف محمد بن بركات احتفى بالسلطان قايتباي أثناء إقامته بمكة المكرمة احتفاءً كبيرًا، فقد أقام السلطان قايتباي بمدرسته التي أقامها عند باب السلام، وكان الشريف محمد بن بركات يمد له سمطًا صباحًا ومساءً، وبعد أن أدى السلطان قايتباي شعائر الحج غادر مكة المكرمة في ظهر يوم السبت ١٤ ذي الحجة ٨٨٤هـ/ ٢٧ فبراير ١٤٨٠م<sup>(٣)</sup>.

وقد أنفق السلطان قايتباي في مكة المكرمة مبالغ مالية كبيرة خلال هذه الحجة قدرها بعض المؤرخين بخمسة آلاف دينار<sup>(٤)</sup>، غير أن المؤرخ عمر بن فهد، ذكر أن معظم هذه الأموال لم تصل لمستحقيها من فقراء مكة المكرمة، وإنما استولى عليها رجال السلطان، وبخاصة الخوaja ابن الزمن، وجماعة السلطان "وفرقوها كما أحبوا"<sup>(٥)</sup>!!

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ٢٣٣.

(٢) النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ص ٦٤٥-٦٤٦.

(٣) النجم عمر بن فهد: إتحاف الوري، ج ٤، ص ٦٤٩.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٦٠.

(٥) إتحاف الوري، ج ٤، ص ٦٤٧.

- الخوaja ابن الزمن: هو محمد بن عمر بن محمد بن عمر الزمن، ويعرف بابن الزمن، ولد في عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م بدمشق، ونشأ بها، ونال قسطاً من العلم، ثم اشتغل بالتجارة، والتقى ببعض سلاطين المماليك ومنهم السلطان الأشرف قايتباي الذي عهد إليه بالإشراف على عمارة المسجد الحرام، توفي في عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج ٨، ص ص ٢٦٠، ٢٦٢.

ومن الجدير بالذكر أن الشريف محمد بن بركات أغدق على السلطان الأشرف قايتباي كثيراً من الهدايا الثمينة وبخاصة الخيول العربية، والإبل الخراسانية (البخاتي)، بالإضافة إلى قدر من المال<sup>(١)</sup>، وذلك غير ما أخذه السلطان قايتباي من أمير المدينة المنورة قسيطل بن زهير لدرجة أن المؤرخ ابن إياس قدر تلك الهدايا والأموال التي أخذها السلطان قايتباي في هذه الحجة بمائتي ألف دينار<sup>(٢)</sup>.

وقد كان لما لمسهُ السلطان قايتباي بنفسه أثناء إقامته بمكة المكرمة لتأدية فريضة الحج في عام ١٤٨٠هـ/١٤٨٠م من استتباب للأمن، وحالة الرخاء التي سادت مكة المكرمة، بالإضافة إلى ما لمسهُ من محبة أهلها وأشرافها وأعيانها للشريف محمد بن بركات، ومسارعة في عمل الخير، والعمل على إصلاح ما قد يفسد من أمور مكة المكرمة، فضلاً عن إخلاص الشريف محمد بن بركات للسلطان قايتباي، والمحافظة على استمرار بقاء نفوذ المالِك في مكة المكرمة، ووفائه بالتزاماته المالية، كل ذلك كان له أثر كبير على اتخاذ قرار السلطان قايتباي بإسناد ولاية بلاد الحجاز كلها له مثلما كان الحال زمن جده الشريف حسن بن عجلان<sup>(٣)</sup>.

(١) العز بن فهد، غاية المرام، ج ٢، ص ٥٣٣.

(٢) بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٦٢.

- قسيطل بن زهير بن زبير بن سليمان بن هبة بن جماز الحسيني، ولي إمرة المدينة المنورة في عام ١٤٧٨هـ/١٤٧٨م بمعاونة الشريف محمد بن بركات أمير مكة المكرمة، واستمر يتولى إمرتها حتى عام ١٤٨٢هـ/١٤٨٢م. انظر: السخاوي، التحفة اللطيفة، ج ٣، ص ٤١٦، ٤١٧.

(٣) لم تفصح المصادر التي بين أيدينا عن تاريخ ولاية الشريف محمد بن بركات للمدينة المنورة، وإن كنا نستشف من الأحداث أن هذه الولاية كانت قبل شهر ربيع الأول من عام ٨٨٤هـ لأن السخاوي أشار إلى أن الشريف محمد بن بركات أصدر أمره بتولية الشريف زبيير إمرة المدينة نيابة عنه في شهر ربيع الآخر من عام ٨٨٤هـ/يونية ١٤٧٩م، ومعنى ذلك أن ولايته للمدينة كانت سابقة على ذلك التاريخ. انظر: السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ٨١.

وإذا كنا لا نعرف بالضبط تاريخ إصدار السلطان قايتباي لقراره بولاية الشريف محمد بن بركات لبلاد الحجاز كلها، إلا أن المؤرخ السخاوي ذكر أنه - أي السلطان قايتباي - فوض إليه في عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م حكم بلاد الحجاز، وبذلك أصبح محمد بن بركات أميراً على بلاد الحجاز كلها، ودُعي له على المنبرين على حد قول السخاوي<sup>(١)</sup>.

وقد ارتبط الشريف محمد بن بركات بالمدينة المنورة بعدة روابط؛ أولها أنها دار المصطفى -صلى الله عليه وسلم- وتكررت زيارته لها، وكثيراً ما قدم الهدايا والأموال لأهلها وللزائرين، وثانيًا: ارتباطه بالمدينة المنورة برباط المصاهرة فقد كانت والدته هي السيدة شقراء بنت الشريف زهير بن سليمان بن زيان بن شيحة الحسني، وهذا يفسر حنينه إلى المدينة المنورة وأهلها<sup>(٢)</sup>.

وقد رأى الشريف محمد بن بركات أن ينوب عنه في إمرة المدينة المنورة أحد الأشراف، غير أنه أراد ألا ينفرد باختيار ذلك الأمير، ولذلك دعا رجال وأعيان المدينة المنورة، واستشارهم فيمن يوليه إمرتها نيابة عنه، فاتفق الجميع على تولية الشريف زبير بن قيس، فأصدر أمره في شهر ربيع الآخر من عام ٨٨٧هـ/يونيه ١٤٨٢م بولايته نائباً عنه، وعزل عنها الشريف قسيطل بن زهير<sup>(٣)</sup>.

(١) التحفة اللطيفة، ج ٣، ص ٥٣٠.

(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ٨٤.

- الشريف زهير بن سليمان بن زيان بن منصور بن جمار بن شيحة الحسيني الزباني، وصفه السخاوي بأنه كان يقوم بقطع الطريق على التجار، وتوفي مقتولاً على يد أمير المدينة المنورة الشريف مانع بن علي بن عطية في عام ٨٣٨هـ/١٤٣٥م. انظر: السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ٨٤، ٨٥.

(٣) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ٨١.

- زبير بن قيس بن ثابت بن نعيم بن منصور الحسيني، تولى إمرة المدينة أولاً في عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م، ثم عزل عنها في عام ٨٦٥هـ/١٤٦١م، ثم وليها بعد ذلك نيابة عن الشريف محمد بن بركات في عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م. انظر: السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ٨١.

ويذكر المؤرخ السخاوي أنه كان حاضرًا وجالسًا بجوار الشريف محمد بن بركات في الروضة الشريفة بمسجد المصطفى عليه الصلاة والسلام، أثناء الدعاء له لأول مرة على منبر الرسول الكريم، وسمع منه كلمات تفيد حمده لله سبحانه وتعالى، وشكره على نعمته<sup>(١)</sup>. ويضيف المؤرخ العز عبدالعزیز بن فهد أن الشريف محمد بن بركات تصدق في ذلك اليوم على أهل المدينة بصدقة كبيرة بلغت " أكثر من ألف دينار"<sup>(٢)</sup>.

ولم يلبث الشريف محمد بن بركات أن اتخذ قرارًا آخر ببناء دار له بالمدينة المنورة، وذلك حتى يتسنى له الذهاب إلى المدينة المنورة والبقاء بها حين يشاء دون أن يكلف أحدًا من أشرفها أو أعيانها عناءً، ويشير السخاوي إلى أنه بنى هذه الدار بالقرب من أماكن خدام المسجد النبوي الشريف<sup>(٣)</sup>.

وعلى هذا النحو تولى الشريف محمد بن بركات ولاية بلاد الحجاز، وأثبت أنه جدير بذلك، فقد استطاع أن يضبط أمورها مثلما كان الحال بمكة المكرمة.

وقد أثبت الشريف محمد بن بركات أنه أهل لهذه الولاية مما أدى إلى أن تزايدت محبة السلطان قايتباي له، والدليل على ذلك تلك الرسالة التي أرسلها له

=ص ص ٨٠-٨١. وبعد وفاة الشريف زبير بن قيس في عام ٤٨٣/٥٨٨٨م تولى إمرة المدينة المنورة نيابة عن الشريف محمد بن بركات ابنه الشريف الحسن بن زبير، واستمر يلي أمرها حتى عام ٤٨٦/٥٨٩١م، حيث قام بنهب الحجرة النبوية، وفر هاربًا، فولى الشريف محمد بن بركات إمرة ابن خاله الشريف فارس بن شومان بن زهير بن سليمان، وكان زوج ابنته الشريفة حزيمة. انظر: السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ٢، ص ٤٧٩، ج ٣، ص ٣٩٢.

(١) التحفة اللطيفة، ج ٣، ص ٥٣٠.

(٢) غاية المرام، ج ٢، ص ٥٤٠.

- يذكر العز بن فهد أن زيارة الشريف محمد بركات هذه كانت في شهر جمادي الأولى، وليس كما ذكر السخاوي في ربيع الآخر. انظر: غاية المرام، ج ٢، ص ٥٤٠.

(٣) التحفة اللطيفة، ج ٣، ص ٥٣٠.

قايتباي في شهر ربيع الآخر من عام ٥٨٩١هـ / أبريل ١٤٨٦م، ومما جاء فيها: " ... ووصل الحاج وهم شاكرون، وتزايد شكرنا، وأنت مقرب منا، وجميع ولايات الحجاز منوطة بك، ولتقمع أهل البغي والفساد "(١).

والواقع أن الشريف محمد بن بركات بذل قصارى جهده في رفع المعاناة عن أهالي بلاد الحجاز، ومن ذلك على سبيل المثال مسارعتة في إصلاح ما نجم عن السيل الكبير الذي أصاب مكة المكرمة في عام ٥٨٨٧هـ / ١٤٨٢م، حيث عم الماء الحرم الشريف، ووصل إلى المنبر، وإلى عتبة باب الكعبة المشرفة، ومات في هذا السيل قرابة سبعين شخصاً، وتهدمت عدة دور بمكة المكرمة<sup>(٢)</sup>، فما كان من الشريف محمد بن بركات إلا أن أنفق من ماله الخاص الشيء الكثير حتى يخفف عن أهالي مكة المكرمة ما أصابهم من أضرار من جراء هذا السيل<sup>(٣)</sup>.

وقد دامت ولاية الشريف محمد بن بركات لبلاد الحجاز كلها حتى وافاه الأجل في ١١ من شهر المحرم من عام ٥٩٠٣هـ / ١٠ سبتمبر ١٤٩٧م<sup>(٤)</sup>، وقد مدحه المؤرخون المعاصرون، فقال عنه السخاوي: " هو حسنة من حسنات الزمان، أدباً وتواضعاً وعقلاً وفهماً "<sup>(٥)</sup>، وقال عنه المؤرخ المكي العز عبدالعزيز بن عمر بن فهد: "وكانت أيامه كثيرة الأمن والرخاء، وبلده مقصودة من كل الآفاق"، وفاق كثيراً من أسلافه بالصلوات، وبما يجمع له من الجهات، وأذعن له الموافق

(١) العز بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٥٥٠، ٥٥١.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص١٩٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٤٦؛

يحيى بن الحسن: غاية الأمان، ق٢، ص٦١٣، ٦١٤.

(٣) الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج٢، ص١٤٠؛ ابن الربيع: بغية

المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء، ١٩٧٩م، ص١٧١.

(٤) العز بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٥٩٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٣٨١.

(٥) الضوء اللامع، ج٤، ص١٥٣.

والمخالف<sup>(١)</sup>. أما ابن إياس فقال عنه : " كان رئيسًا حشماً في سعة من المال، كفوًا لإمرة مكة<sup>(٢)</sup>. ومدحه ابن ظهيرة بقوله : " ودانت له البلاد، وأطاعة العباد، وأظهر العدل والإحسان والشفقة والرافة على الرعية، والالتفات إلى أمور المسلمين وعدم الغفلة عن ذلك<sup>(٣)</sup>."

---

(١) غاية المرام، ج ٢، ص ٥٩٨.

(٢) بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٨١.

(٣) الجامع اللطيف، ص ١٩٩.



## الفصل الثامن

مكة المكرمة أواخر عصر المماليك الجراكسة



إذا كان الشريف محمد بن بركات قد استطاع ضبط الأمور بمكة المكرمة خلال السنوات الطوال التي تولى فيها إمرتها، إلا أنه بعد وفاته في عام ١٤٩٧/٥٩٠٣م اضطربت الأمور بمكة المكرمة اضطراباً شديداً، ويعود ذلك إلى الخلافات التي نشبت بين أبنائه من جهة، وبينهم وبين أبناء عمومتهم من جهة أخرى.

وكان الشريف محمد بن بركات قد أشرك معه في إمرة مكة المكرمة ابنه الأكبر بركات في عام ١٤٧٤/٥٨٧٩م، حيث وصل مرسوم وخلعة من السلطان قايتباي في شهر ربيع الأول من هذا العام لكل من الشريف محمد بن بركات، وولده بركات فقري المرسوم بالحطيم بحضرة القضاة والباش، ولبسا الخلعين<sup>(١)</sup>. وبعد وفاة السلطان قايتباي أرسل ابنه وخليفته السلطان أبو السعادات الناصر في شهر جمادي الأول من عام ١٤٩٧/٥٩٠٢ يناير ١٤٩٧م بخلعتين أحدهما للشريف محمد بن بركات، والأخرى لولده الشريف بركات<sup>(٢)</sup>.

لذلك كان الطريق ممهداً أمام الشريف بركات بن محمد بن بركات لتولي إمرة مكة المكرمة عقب وفاة والده الشريف محمد بن بركات في ١١ محرم من عام ١٤٩٣/١١ سبتمبر ١٤٩٧م، حيث حضر إلى مكة المكرمة القاضي كاتب السر

(١) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٥٢٠.

- الباش: كلمة تركية بمعنى رئيس، وتعني أيضاً رئيس الحكماء. انظر: أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٣٦.

(٢) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٥٩٢.

- السلطان أبو السعادات الناصر محمد بن السلطان قايتباي: تولى السلطنة بعد اشتداد المرض على أبيه في ٢٦ ذي القعدة من عام ٩٠١هـ/٧ أغسطس ١٤٩٦م، وله من العمر أربعة عشر عاماً، واستمر في الحكم لمدة سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوماً قضاها في اللهو العبث، انتهت بقتله في منتصف شهر صفر من عام ٩٠٤هـ/٣ أكتوبر ١٤٩٨م. انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٤٠٢، ٤٠٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٨، ص ٢٢.

بدر الدين بن مُزهر في ٤ من شهر ربيع الآخر من عام ٥٩٠٣هـ / ١ ديسمبر ١٤٩٧م حاملاً مرسوم السلطان محمد بن قايتباي بتولية الشريف بركات بن محمد بن بركات إمرة مكة المكرمة<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن الشريف بركات بن محمد بن بركات لم يتول إمرة مكة المكرمة فقط، وإنما تولى أيضاً ولاية بلاد الحجاز كلها مثلما كان حال والده؛ وذلك لأن السلطان العادل أبا النصر طومان باي بعد أن تولى السلطنة أرسل مرسوماً للشريف بركات بن محمد بن بركات جاء فيه "إن الحجاز كله له: المدينة ومكة والينبع"، حيث قرئ هذا المرسوم في صباح يوم التاسع من رمضان من عام ٩٠٦هـ / ٣٠ مارس ١٥٠١م<sup>(٢)</sup>. غير أن الأمور بمكة المكرمة لم تهدأ منذ أن تولى إمرتها الشريف بركات ابن محمد، ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى منازعة أخيه هزاع بن محمد له في إمرتها، والمتتبع لتاريخ مكة المكرمة في تلك الفترة يجد أنه لم يخل عام من الأعوام من مناوأة الشريف هزاع لأخيه بركات بن محمد<sup>(٣)</sup>.

(١) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٥٩٨.

- بدر الدين بن مُزهر هو القاضي بدر الدين حسن بن القاضي زين الدين أبو بكر بن مُزهر، تولى كتابة السر بمصر، وكانت نهايته مؤسفة، فقد عُدب حتى الموت، توفي في شهر رجب من عام ٩١٠هـ / ديسمبر ١٥٠٤م. انظر: الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج ١، ص ١٧٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٨، ص ٧٤.

(٢) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ١٠٠.

- السلطان العادل أبو النصر طومان باي الأشرفي قايتباي، جركسي الجنس، اشتراه قانصوة اليحياوي، وقدمه للسلطان قايتباي، فأعتقه الأخير ورفاهه، تولى عدة وظائف إلى أن تولى السلطنة في شهر جمادى الآخرة من عام ٩٠٦هـ / يناير ١٥٠١م، ولم تستمر سلطنته سوى مائة يوم فقط، حيث تم خلعُه وقتله بعد ذلك. انظر: ابن طولون: أعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، ص ص ١٤١، ١٤٢.

(٣) انظر ما ورد عن أحداث هذه الفترة عند العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ص ١٠٣-١١٦.

- هزاع بن محمد بن بركات هو زين الدين هزاع بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، أمه مناية الحبشية، تولى حكم بلاد الحجاز مكة والمدينة على فترات متفاوتة حتى وفاته في شهر رجب من عام ٩٠٧هـ / يناير ١٥٠٢م. انظر: العز بن فهد: غاية المرام، ج ٢، ص ٥٩٩، ج ٣، ص ١١٧؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ١٩٩.

ومما زاد من اضطراب الأحوال السياسية بمكة المكرمة في هذه الفترة موقف السلطنة المملوكية من الشريف بركات بن محمد، حيث يذكر المؤرخ اليماني يحيى بن الحسين أن ذلك يرجع إلى محاولة إنتقام الأمير المملوكي قانصوة المحمدي الذي نفاه السلطان العادل أبو النصر طومان باي إليها، حيث قضى بها الفترة الواقعة ما بين ١٧ جمادي الآخرة من عام ٥٩٠٦هـ / ١٠ يناير ١٥٠١م إلى غرة شوال ٥٩٠٦هـ / ٢٠ أبريل ١٥٠١م بعد أن تولى السلطنة، وخلال هذه الفترة لم يستقبله الشريف بركات خوفاً من غضب السلطان طومان باي، وأهمله إهمالاً تاماً، غير أن الأمور في مصر لم تستقم للسلطان طومان باي، فلم يلبث أن تم خلعُه من السلطنة في غرة شوال من عام ٥٩٠٦هـ / ٢٠ أبريل ١٥٠١م، ثم قتله بعد ذلك، وتولى السلطنة المملوكية مكانه السلطان قانصوة الغوري (في غرة شوال ٥٩٠٦هـ / ٢٠ أبريل ١٥٠١م)، والذي أصدر أمراً بالعفو عن الأمير قانصوة المحمدي، ولم يكتف بذلك، وإنما عهد إليه بولاية الشام<sup>(١)</sup>.

ولم يغفر الأمير قانصوة المحمدي إهمال الشريف بركات بن محمد له أثناء نفيه بمكة المكرمة، لذلك رفض استقباله عندما حضر ليهنئه بمناسبة العفو عنه، وقبل أن يغادر الأمير قانصوة المحمدي مكة عائداً إلى مصر كان ركب المحمل المصري قد وصل إلى مكة المكرمة حاملاً معه الخلعة للشريف بركات بن محمد،

(١) غاية الأمانى في أخبار القطر اليماني، ق ٢، ص ٦٢٦.

- الأمير قانصوة المحمدي المعروف بالبرجي، أصله من مالِك الأشرف قايتباي، تولى عدة وظائف كان آخرها نائب حلب، وتوفى بها في شهر جمادي الأولى من عام ٩١٠هـ / أكتوبر ١٥٠٤م. انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٦٦-٧٠.
- قانصوة الغوري: جركسي الجنس، كان من مالِك السلطان قايتباي الذي أعتقه وراقه، وتولى العديد من الوظائف حتى قفز على عرش السلطنة في عام ٥٩٠٦هـ / ١٥٠١م، واستمر في الحكم حتى أصيب بذبحة صدرية في موقعة مرج دابق في عام ٩٢٢هـ / ١٥١٦م، ولم يظهر له أثر بعد ذلك. انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٥، ص ٦٩، ٧٠؛ العيدروسي: النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ص ١٠٠.

فما كان من الأمير قانصوة المحمدي إلا أن أمر بعدم تسليم هذه الخلعة له، وقام باستدعاء غريمه الشريف هزاع، وسلمه إياها، معلناً بذلك خلع الشريف بركات بن محمد بن بركات عن ولاية بلاد الحجاز، وولاية الشريف هزاع لها، ولم يكتف الأمير قانصوة بذلك، وإنما زيادة في الانتقام من الشريف بركات بن محمد بن بركات أمره بمغادرة مكة المكرمة والذهاب للإقامة بينبع<sup>(١)</sup>.

ونتيجة لذلك اضطربت الأمور بمكة المكرمة اضطراباً شديداً في الشهور التالية، فقد نتج عن ذلك دخول الشريف بركات بن محمد في حرب مع أخيه الشريف هزاع، واستطاع أن ينزل بقواته هزيمة شديدة، لكن وقوف قوات المحمل المصري إلى جانب الشريف هزاع أدى إلى تغير الموقف، فلم تلبث أن تراجع قوات الشريف بركات أمام قوات الشريف هزاع في موقعة وادي الجموم بمر الظهران في شهر ذي الحجة من عام ٩٠٦هـ/ يونيو ١٠٥١م، فما كان من الشريف بركات إلا أن هرب من مكة المكرمة، وأعقب ذلك دخول هزاع لها، وتولى أمر الحج في هذا العام<sup>(٢)</sup>.

غير أن قلة جنود الشريف هزاع أدت إلى تخوفه من قيام أخيه الشريف بركات بالإغارة على مكة، وإلقاء القبض عليه، لذلك خشي من البقاء بها، فأثر التوجه إلى ينبع ليجمع أكبر قوة يستطيع عن طريقها مواجهة قوات أخيه الشريف بركات مما أتاح الفرصة أمام الشريف بركات لكي يدخل مكة المكرمة، ويتولى حكمها.

ومما يذكر أن السلطان المملوكي قانصوه الغوري الذي تولى السلطنة منذ أشهر قليلة أخذ في متابعة أحداث مكة المكرمة، ونظراً لرضائه عن الشريف

(١) يحيى بن الحسين: غاية الأمان، ق٢، ص٦٢٦.

(٢) العز بن فهد: غاية المرام، ج٣، ص ص١٠٣-١٠٥؛ ابن زهير: الجامع اللطيف، ص١٩٩؛

يحيى بن الحسين: غاية الأمان، ق٢، ص٦٢٧.

بركات، فقد أرسل إليه في يوم الثلاثاء ٨ ربيع الأول من عام ١٩٠٧هـ / ٢٢ سبتمبر ١٥٠١م مرسوماً وخلعة، حيث أقر في هذا المرسوم حكم بلاد الحجاز كلها للشريف بركات وأنه: "يولي فيه من يشاء"، ففرح أهالي مكة المكرمة، وأقاموا الزينات ابتهاجاً برجوع الشريف بركات<sup>(١)</sup>.

غير أن الأمور لم تلبث أن تبدلت بعودة الشريف هزاع، حيث حضر في شهر جمادى الآخرة من نفس العام (١٩٠٧هـ) ومعه أعداد كبيرة من المحاربين الذين استطاع عن طريقهم إنزال هزيمة ساحقة بقوات أخيه الشريف بركات، فما كان من الشريف بركات إلا أن غادر مكة المكرمة متوجهاً إلى اليمن تاركاً حكمها لأخيه الشريف هزاع<sup>(٢)</sup>.

ولم يهنأ الشريف هزاع بهذا النصر، ولا بولاية بلاد الحجاز طويلاً، فلم يلبث أن توفي في ١٥ رجب من عام ١٩٠٧هـ / ٢٦ يناير ١٥٠٢م مما أتاح الفرصة لأخيه الشريف بركات بن محمد بأن يعود من اليمن مسرعاً، ويتولى إمرة بلاد الحجاز<sup>(٣)</sup>. ويعلق العز بن فهد على ذلك بقوله: "فسرّ المسلمون بمجيئه سروراً زائداً"<sup>(٤)</sup>.

ولم يستمر الهدوء بمكة المكرمة طويلاً، فلم يلبث أن خرج الشريف أحمد جازان بن محمد بن بركات -وهو أحد إخوة الشريف بركات بن محمد<sup>(٥)</sup>- عن طاعة أخيه الشريف بركات وذلك منذ أواخر شهر ذي الحجة من عام ١٩٠٧هـ / يونيه ١٥٠٢م، مستعيناً بعدد من الجنود الذين استقدمهم من ينبع مثلما سبقه إلى ذلك أخوه

(١) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ١١١.

(٢) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ١١٢، ١١٣؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ١٩٩.

(٣) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ١٩٩.

(٤) غاية المرام، ج ٣، ص ١١٧.

(٥) خلف الشريف محمد بن بركات عددًا من الذكور والإناث، يقول العز بن فهد إنهم يزيدون على الثلاثين غير من ماتوا في حياته !! انظر: غاية المرام، ج ٢، ص ٥٩٩.

هزاع، وقد استطاع عن طريق هؤلاء الجند إنزال هزيمة ساحقة بقوات أخيه بركات في يوم السبت ٢٥ شوال من عام ٦٠٨هـ / ٢٥ أبريل ١٥٠٣م، وعقب هذه المعركة دخل الشريف أحمد جازان مكة المكرمة، حيث ارتكب عدة جرائم خطيرة كان أهمها أنه أباح لمن معه من جند انتهاك حُرمة البيت العتيق!! بالإضافة إلى إنزال أضرار بالغة بأهالي مكة المكرمة<sup>(١)</sup> لدرجة أن المؤرخ ابن إياس يقول إنهم: "فعلوا بهم - أي بأهل مكة - ما لم يفعله تمرلنك لما دخل إلى الشام"<sup>(٢)</sup>.

وبطبيعة الحال لم يقبل السلطان قانصوة الغوري ما قام به الشريف أحمد جازان من أعمال سيئة بمكة المكرمة، لذلك سارع بإرسال قوة عسكرية لمعاقبته<sup>(٣)</sup>؛ وقد تألفت هذه القوة من ستمائة مملوك من المماليك السلطانية، جاء على رأسها كل من الأمير قيت الرجبى أمير المحمل، ويساعده الأمير المملوكي أنص باي<sup>(٤)</sup>. كذلك اتخذ السلطان قانصوة الغوري قراراً بالألا تحج امرأة في هذا العام؛ وذلك نظراً لما قام به الشريف أحمد جازان من نهب وسلب وأسر قوافل الحجيج<sup>(٥)</sup>.

وما أن وصلت القوات المملوكية إلى مكة المكرمة في أول ذي الحجة من عام ٩٠٨هـ / يونية ١٥٠٣م حتى قام الشريف أحمد جازان بالاختفاء والهروب، ثم

(١) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ١٣٥.

(٢) بدائع الزهور، ج ٤، ص ٣٦.

(٣) ابن طولون: أعلام الوري، ص ٢١٦٢.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٩؛ الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ج ١، ص ٤٨٥.

- الأمير قيت الرجبى: أحد أمراء المماليك الجراكسة، ترقى في مختلف الوظائف، وعلا شأنه في زمن السلطان قانصوة الغوري لدرجة جعلته يتطلع إلى السلطنة، فما كان من السلطان الغوري إلا أن قبض عليه في عام ٩١٠هـ / ١٥٠٤م، وأودعه سجن الإسكندرية، وقد وصفه ابن إياس بقوله: "كان ظالماً غاشماً عسوفاً، كثير الأذى".

انظر: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٩، ص ٧٣.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٥٠.



الخروج من مكة المكرمة خشية الوقوع في قبضة الأمير قيت الرجبي، الأمر الذي أثار حوله الكثير من الأقوال؛ فمنهم من قال إنه وقع في قبضة قيت الرجبي، ومنهم من قال بأنه هرب من مكة المكرمة، ولكن الحقيقة هي نجاح الشريف أحمد جازان في الهروب والخروج من مكة المكرمة، وهو الأمر الذي ضايق الأمير قيت الرجبي الذي خشي من اتهامه بالتقصير، لذلك وحتى لا يعود إلى الديار المصرية حاملاً "خف حنين" ألقى القبض على الشريف بركات بن محمد، وأخيه قايتباي بن محمد وجماعة من أعيان مكة المكرمة، وأحضرهم معه وهم مكبلون بالحديد، حيث وصلوا إلى القاهرة في شهر ربيع الأول من عام ٩٠٩هـ / أغسطس ١٥٠٢م<sup>(١)</sup>.

غير أن ما قام به الأمير قيت الرجبي من إلقاء القبض على الشريف بركات بن محمد وأخيه قايتباي وجماعة من أعيان مكة المكرمة دون أن يقوم بالقبض على رأس الفتنة الشريف أحمد جازان، لم يعجب السلطان قانصوة الغوري أو يرضيه، خصوصاً أنه بهذا العمل أثار غضب أهالي مكة المكرمة الذين شعروا بأنه أنزل بهم "غاية الجور والمظالم" على حد قول المؤرخ ابن إياس مما زاد من اشتعال الفتنة بمكة المكرمة<sup>(٢)</sup>. ويعلق العز بن فهد على قيام الأمير قيت الرجبي بإلقاء القبض على الشريف بركات وترك الشريف جازان بقوله: "وتعجب الناس من هذا الصنيع لكون الطائع يقبض عليه، والعاصي لا يُكَلَّم، فسبحان الفعال لما يريد"<sup>(٣)</sup>. وقد كان من المتوقع أن يلقي السلطان القبض على الأمير قيت الرجبي، لكنه

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٥٦، ٥٧.

- الشريف قايتباي بن محمد بن بركات، ذكر العز بن فهد أن محمداً بن بركات كان له ولد آخر اسمه قايتباي توفي في حياة والده الشريف محمد بن بركات. انظر: غاية المرام، ج٢، ص٥٩٩؛ ويذكر الغزي أن قايتباي الأخير توفي في عام ٩١٨هـ. انظر: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ج١، ص٢٩٨.

(٢) بدائع الزهور، ج٤، ص٥٧.

(٣) غاية المرام، ج٣، ص١٤٦.

لم يفعل ذلك لما تمتع به الأخير من قوة كبيرة في ذلك الوقت، فتركه وأخذ يتحين الفرص لإلقاء القبض عليه<sup>(١)</sup>.

في حين أصدر السلطان قانصوة الغوري أوامره بضرورة فك قيود الشريف بركات وأخيه ومن معه من أعيان مكة المكرمة، وأن يكرم نزلهم، وأن يقيم في دار الأمير قيت الرجبي الموجودة بالأزبكية، على أن يقوم الأمير قيت الرجبي على خدمته بنفسه، ويضع عليه من يحفظه، وذلك حتى لا يعود الشريف بركات إلى مكة المكرمة قبل أن يدفع ما تقرر عليه من أموال تعهد بتأديتها للسلطان في مقابل فك قيوده<sup>(٢)</sup>!!

ومن الجدير بالذكر أن أهالي مصر غضبوا كثيرًا لما أصاب الشريف مكة بركات بن محمد من إهانة، إذ يذكر المؤرخ المكي العز بن فهد أنه عندما مر الشريف بركات " بالشوارع ضج العامة بالبكاء، وأطلقوا ألسنتهم بالسب واللعن والتقيح بمن فعل به ذلك "<sup>(٣)</sup>. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ما تمتع به الأمير الشريف بركات بن محمد من مكانة عالية في نفوس المصريين.

أما عن أمر مكة المكرمة، فيذكر العز بن فهد أنه قبل أن يغادرها الأمير قيت الرجبي متوجهًا للديار المصرية أرسل لإحضار الشريف أحمد جازان، واتفق معه على أن يدفع مبلغًا من المال قدره ستون ألف دينار في مقابل أن يترك له إمرة مكة المكرمة، على أن يُقسَّم هذا المبلغ بين السلطان الذي يأخذ منه عشرة آلاف دينار، ويتم توزيع المبلغ المتبقي على سائر الأمراء بمن فيهم الأمير قيت الرجبي الذي

(١) لم يلق السلطان قانصوة الغوري القبض على الأمير قيت الرجبي إلا في شهر رجب من عام ١٥١٠هـ / ديسمبر ١٥٠٤م، حيث كال له مجموعة من التهم أهمها محاولة القفز على عرش البلاد، وتم سجنه بالإسكندرية، ومصادرة ممتلكاته. انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٧٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٦٢.

(٣) غاية المرام، ج٣، ص١٥٤.

تكون حصته عشرة آلاف دينار!!<sup>(١)</sup>

وبعد أن عاد الشريف أحمد جازان إلى حكم مكة المكرمة أخذ في ممارسة أفعاله التي اعتاد عليها من فرض إتاوات على سائر الأعيان والتجار مما أدى إلى ازدياد غضب أهالي مكة المكرمة، بالإضافة إلى أن معظم أمراء المالِك الذين وجدوا بمكة المكرمة في ذلك الوقت خشوا على أنفسهم من بطشه، لذلك تم الاتفاق على التخلص منه، وبالفعل أثناء طوافه بالكعبة المشرفة في صباح يوم الجمعة ٩ من رجب من عام ٢٩/٥٩٠٩ ديسمبر ١٥٠٣م، وبإشارة من الأمير المملوكي بك باي (بكبائي) دودار الأتابكي أزبك تم اغتيال الشريف أحمد جازان<sup>(٢)</sup>. وعلى هذا النحو تم التخلص من الشريف أحمد جازان الذي وصفه المؤرخ ابن إياس بقوله: "كان جاهلاً عسوفاً سفاكاً للدماء"<sup>(٣)</sup>.

وما أن علم الشريف بركات الذي كان كالمحجور عليه في دار قيت الرجبي بالقاهرة بأحداث مكة المكرمة، بالإضافة إلى علمه بأن هناك وشاية من أعدائه بمكة المكرمة خصوصاً من قبيلة بني إبراهيم الذين أخذوا يوغرون صدر السلطان قانصوة الغوري ضده، وما نما إليه من أن هناك تدبيراً يجري من أجل إرساله سجيناً إلى الإسكندرية، لذلك وبمساعدة بعض أمراء المالِك بمصر استطاع الهرب من دار قيت الرجبي هو وإخوته ومن معه من أعيان مكة المكرمة، حيث توجهوا جميعاً إلى مكة المكرمة<sup>(٤)</sup>.

أما مكة المكرمة، فقد تولى حكمها عقب مقتل أحمد جازان أخاه الشريف حميضة، وذلك بإشارة من الأمير المملوكي بيك باي (بكبائي) الذي ألبسه خلعة،

(١) غاية المرام، ج ٣، ص ١٤٨.

(٢) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ١٦٦.

(٣) بدائع الزهور، ج ٤، ص ٦٢.

(٤) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ١٦٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٦٢.

وأقامه أميرًا على مكة المكرمة ليتولى إدارة شئونها حتى يأتي مرسوم السلطان قانصوة الغوري بمن يوليه أميرًا عليها<sup>(١)</sup>.

وبعد حضور الشريف بركات إلى مكة المكرمة ترك أخاه حُميضة وشأنه في حكم مكة المكرمة إلى شهر صفر عام ٥٩١٠هـ/ يولية ١٥٠٤م عندما أشار إلى أن يتولى إمرتها أخوه قايتباي بدلًا من أخيه حُميضة، وبالفعل تولى الشريف قايتباي إمرة مكة المكرمة، وكان الشريف قايتباي موليًا للشريف بركات مُخلصًا له، لذلك فإنه طيلة قيامه بإمارة مكة المكرمة كان يستتير برأي أخيه الشريف بركات، ويستشيره في كافة أموره، واستمر الشريف قايتباي في إمرة مكة المكرمة حتى وافاه الأجل في شهر صفر من عام ٥٩١٨هـ/ أبريل ١٥١٢<sup>(٢)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن سلطة المماليك لم تكن قوية بمكة المكرمة خلال الفترة السابقة، خصوصًا أن عرب ينبع وأميرهم يحيى بن سبع، وعرب خليض وأميرهم مالك بن رومي لم يخشوا من قوة المماليك، الأمر الذي دفعهم إلى متابعة الإغارة على مكة المكرمة، ونهب وسلب قوافل الحجاج والزائرين، الأمر الذي أدى إلى انتشار الرعب والخوف بين من تحدثه نفسه بالذهاب لأداء فريضة الحج أو أداء العمرة، والغريب في الأمر أنه بدلًا من أن يرسل السلطان المملوكي قانصوة الغوري قوة عسكرية تردع هذه القبائل، وتعمل على إعادة الأمن، نجده يصدر قرارًا " بإبطال التوجه إلى الحجاز في هذه السنة " (أي في عام ٩١١هـ) مما دفع المؤرخ ابن إياس إلى التعليق على ذلك بقوله: " وكانت هذه الواقعة من أعظم المصائب والتلثم في الدين "<sup>(٣)</sup>.

(١) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ١٦٦.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٢٧٠؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ٢٠٠.

(٣) بدائع الزهور، ج ٤، ص ٨٩.

- التلثم: هو حدوث الشقاق والانكسار، وتلثم الجواد أي أحدث فيه شقًا. انظر: المعجم

الوسيط، ج ١، ص ١٠٤.

غير أنه من حسن الحظ أن السلطان قانصوة الغوري تنبه إلى ما ساد بلاد الحجاز من فتن وقلق، لذلك رأى إعادة الأمن والاستقرار بها، فأرسل في شهر رجب من العام التالي (٩١٢هـ/١٥٠٦م) فرقة عسكرية بقيادة الأمير خاير بك، وبصحبه الأمير قاني بك، ومعهما ما يقرب من ستمائة مملوك من المماليك السلطانية، وعدد من أمراء العشرات بلغوا نحو العشرين أميراً، ومعهم نحو ستمائة مملوك من المماليك السلطانية<sup>(١)</sup>، واتجه الجميع إلى مكة المكرمة لضبط الأمور بها، ويقرر المؤرخ ابن إياس أنه بعد إرسال هذه القوة إلى مكة المكرمة عاد النفوذ المملوكي إلى بلاد الحجاز " وأقامت حرمة المملكة بعدما كانت قد أنتهكت، وتهدلت الأتراك، وكاد الحاج أن ينقطع عن التوجه إلى مكة "<sup>(٢)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن الشريف بركات بن محمد وإخوته شاركوا هذه القوة في هجومها على أمير ينبع يحيى بن سبع الخارج على السلطنة المملوكية، والذي أثار الرعب والفرع في بلاد الحجاز، كما قام أيضاً وبمشاركة القوة المملوكية بمهاجمة سائر القبائل العربية، والقوى المعارضة للشريف قايتباي مما أدى في النهاية إلى استقرار الأمور بمكة المكرمة<sup>(٣)</sup>.

وهذا ما دفع السلطان قانصوة الغوري إلى أن يرسل مرسوماً إلى مكة المكرمة يفوض فيه الشريف بركات بأن يختار إما بين أن يتولى هو إمرة مكة المكرمة، أو يعهد بإمرتها لأخيه قايتباي<sup>(٤)</sup>، لكن الشريف بركات اختار أخاه قايتباي لإمرتها، كما سبقت الإشارة.

ومما سبق يتضح أن النفوذ المملوكي في بلاد الحجاز لم يستقر في تلك الفترة

(١) الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة، ج ١، ص ٤٨٨.

(٢) بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٠٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٠٦.

(٤) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ١٧٣.

إلا بمساعدة أشرف مكة المكرمة، فلولا وقوف الشريف بركات وإخوته إلى جانب القوة المملوكية لما استطاعت هذه القوة أن تحرز انتصاراتها على يحيى بن سبع أو الخارجين عن طاعة السلطان من القبائل العربية الأخرى. ومن الملاحظات المهمة أنه نتيجة استقرار النفوذ المملوكي بمكة المكرمة، أخذ اهتمام السلطان قانصوة الغوري يزداد بالحرم المكي، فأمر الأمير خاير بك العلاوي -المهندس المعماري الذي قام بتنفيذ الكثير من العمائر التي أمر بإقامتها السلطان الغوري في مختلف أنحاء السلطنة المملوكية- أمره بالتوجه إلى مكة المكرمة، ومعه جماعة من البنائين والنجارين والمهندسين وذلك لبناء مارستان ورباط بها، كما أمره أيضاً أن يُبطل الحرم، ويعيد جريان عين بازان<sup>(١)</sup>.

وعلى كل حال، فإن موقف الشريف بركات ين محمد المؤيد للسلطنة المملوكية ساعد كثيراً على رضا السلطان المملوكي عنه مما أدى إلى أن يقره في إمرة مكة المكرمة وبلاد الحجاز بعد وفاة الشريف قايتباي في ٢١ ربيع الأول من عام ٧/٥٩١٨ يونية ١٥١٤م.

وفي تتبعنا لما ذكره المؤرخ الجزيري عن ذلك الاستقبال الباهر الذي استقبل به السلطان قانصوه الغوري الشريف أبا نُمي محمد بن بركات - على الرغم من صغر سنه - عندما توجه إلى القاهرة عقب وفاة الشريف قايتباي على رأس وفد من مكة المكرمة يضم عدداً من قضاة مكة المشهورين؛ وذلك لإقرار والده الشريف بركات على بلاد الحجاز، حيث يذكر الجزيري أن السلطان الغوري أعجب كثيراً بالشريف أبي نُمي، وخلع عليه خلعة "لم يلبس مثلها إلا ولد ابن عثمان"<sup>(٢)</sup>، وكل

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص١٦٣.

(٢) الدرر الفرائد المنظمة، ج١، ص٤٩١.

- الشريف أبو نُمي محمد بن بركات ولد بمكة المكرمة في عام ١٥٠٣/٥٩٠٩م، ونشأ وتربى بها، شارك أباه في حكم مكة المكرمة وهو صغير السن، حيث أعجب به السلطان الغوري أثناء زيارته للقاهرة عقب وفاة عمه الشريف قايتباي في عام=

ذلك يؤكد رضا السلطان الغوري عن الشريف بركات الذي تم إقراره على حكم بلاد الحجاز عقب وفاة أخيه الشريف قايتباي، كما أشرك معه في حكم بلاد الحجاز ابنه أبا نمي محمد<sup>(١)</sup>. وتعتبر هذه الولاية هي الولاية الثانية للشريف بركات بن محمد علي بلاد الحجاز<sup>(٢)</sup>.

وخلال هذه الفترة تعرض الشريف بركات بن محمد لعدة أخطار كان أهمها حدثين حدثا مع بداية توليه إمرة مكة الثانية، وكلا الحدثين في عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م؛ أما الحدث الأول فكان في شهر صفر من هذا العام، حيث " وقع سيل عظيم دخل إلى الحرم، ووصل الماء إلى عتبة البيت الشريف، وغطى الحجر الأسود "<sup>(٣)</sup>.

ويذكر المؤرخ العز بن فهد أن الشريف بركات وعددًا كبيرًا من القضاة وأعيان مكة المكرمة وقفوا جميعًا لإنقاذ بيت الله الحرام مما أصابه من جراء هذا السيل، وقاموا بتنظيف المسجد مما علق به من أوساخ نتيجة ذلك السيل<sup>(٤)</sup>.

أما الحدث الثاني فتمثل في تلك الفتنة التي حدثت بين الشريف بركات

= ٩١٨هـ/١٥١٢م، ثم استقل بحكم مكة المكرمة بعد وفاة والده الشريف بركات في عام ٩٣١هـ/١٥٢٥م، حيث أرسل إليه السلطان العثماني مرسومًا بإمارة مكة المكرمة في عام ٩٣٢هـ/١٥٢٦م، واستمر يحكمها منفردًا حتى أشرك معه ولده الشريف أحمد في عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م، واستمر يحكمها شريكًا لولده أحمد إلى حين وفاته. انظر: ابن زهير: الجامع اللطيف، ص ١٩٩، ٢٠٠.

(١) ابن زهير: الجامع اللطيف، ص ٢٠٠.

(٢) مما يؤكد تولي الشريف بركات ولاية بلاد الحجاز كلها ذلك الخطاب الذي أرسله له السلطان الغوري في شهر صفر من عام ٩١٩هـ/ أبريل ١٥١٣م، والذي جاء فيه: " وغير خاف على الجناب العالي أن مقامنا الشريف لا يعتمد في أمور الأقطار الحجازية إلا على الجناب العالي - يقصد جناب الشريف بركات - ولا يعول في الأمور كلها إلا عليه ". انظر: العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ٢٧٢.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٣٧٧.

(٤) بلوغ القرى في ذيل إتحاف الوري بأخبار أم القرى، ج ٣، ص ١٩٣٨-١٩٤٠.

وإخوته (الشريف راجح، والشريف أبي الغيث، والشريف قاسم) وشاركهم ابناً أخيهم هزاع وهما محرم وزائر<sup>(١)</sup>.

وقد حدثت عدة معارك بين الجانبين انتهت بمقتل أعداد كبيرة من أتباع إخوة الشريف بركات، والاستيلاء على ما معهم من خيل ومتاع<sup>(٢)</sup> مما جعلهم يلجأون إلى السلطان المملوكي قانصوة الغوري ساكين له من الشريف بركات، وقد وصلوا إلى الديار المصرية في يوم الخميس ٢٠ جمادي الأول من عام ١٥٩٢٠هـ / ١٥ يولييه ١٥١٤م، حيث قدموا شكواهم إلى السلطان الغوري ليرى فيها رأيه<sup>(٣)</sup>.

ويذكر المؤرخ العز بن فهد أنه بعد سبعة أيام من وصولهم إلى الديار المصرية أفاد السلطان بأنه بحث قضيتهم، وطيب خاطرهم، وأنزلهم ببعض الأماكن المريحة<sup>(٤)</sup>، كما أرسل السلطان إلى الشريف بركات برسالة يخبره فيها بكل هذه التطورات، ويختتم العز بن فهد قوله بأن هذه الرسالة احتوت على عبارات تفيد "تعظيماً كثيراً للسيد بركات"<sup>(٥)</sup>، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تعاطف السلطان الغوري مع الشريف بركات بن محمد.

كذلك فإن ما يؤكد على تلك العلاقة الطيبة التي ربطت الشريف بركات بالسلطان قانصوة الغوري تلك الحفاوة البالغة التي أعدت لاستقبال ابن السلطان الغوري الأمير محمد ووالدته عندما حضرا إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج في عام ١٥١٥هـ / ١٥١٥م، حيث أرسل الشريف بركات لاستقبالهما ابنه الشريف أبانمي محمد في ٢٤ من شوال، كما خرج للقائهما والترحيب بهما الشريف بركات بنفسه في يوم الثلاثاء ٢٣ ذي القعدة، حيث استقبلهما في المسجد الحرام بعد طوافه

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى في ذيل إتحاف الوري، ج ٣، ص ١٩٤٦-١٩٤٧.

(٢) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ٢٢٨٢.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٣٧٦، ٣٨٣.

(٤) بلوغ القرى في ذيل إتحاف الوري، ج ٣، ص ١٩٥٣.

(٥) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ٢٩٩.



عصر ذلك اليوم وفي صحبته بعض أولاده، والقضاة الأربعة، وجماعة من أعيان مكة المكرمة، وخلع عليهما خلعة سنوية<sup>(١)</sup>.

وطوال إقامتهما بمكة المكرمة لم يمر يوم من الأيام إلا ويحتفي فيه الشريف بركات بابن السلطان ووالدته، ويخلع عليهما، كما أهدي لهما وللسلطان الأموال، وعزّم على السفر إلى القاهرة بصحبة ابن السلطان ووالدته في رحلة عودتهما إلى الديار المصرية بعد انقضاء الحج<sup>(٢)</sup>. وبالفعل توجه الشريف بركات وفي صحبته ابنه ثقبّة وصهره عرعر وبعض من أعيان مكة المكرمة إلى القاهرة<sup>(٣)</sup>.

وما أن علم السلطان قانصوة الغوري بقدم الشريف بركات إلى الديار المصرية حتى سارع بإرسال القاضي الشهابي أحمد بن الجيعان لملاقاته عند العقبة حيث قدم له خلعة سنوية<sup>(٤)</sup>. وعندما وصل الشريف بركات ومن في صحبته من أعيان مكة إلى بركة الحجاج في ٢١ من المحرم من عام ٨٩٢١/هـ ٨ مارس ١٥١٥م خرج عدد كبير من أمراء المماليك، وأعيان الديار المصرية لاستقبالهم لدرجة أن المؤرخ ابن إياس علق على ذلك بقوله: " فكان دخولهم إلى بركة الحاج

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٣٣.

(٢) العز بن فهد: غاية المرام، ج٣، ص٣٠١؛ العيدروسي: النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ص٩٨.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٣٩.

- اصطحب الشريف بركات معه في زيارته للسلطان قانصوة الغوري ابنه الشريف ثقبّة، بينما ترك ابنه الشريف أبانمي لبيباشر أمور مكة المكرمة. انظر: العز بن فهد: غاية المرام، ج٣، ص٣٠٢، ٣٠٨. وكان في صحبته عدد من أبناء عمومته الذين استمرت إقامتهم بالقاهرة، وأصبحوا من رجال السلطان، فقد أشار المؤرخ المعاصر شمس الدين محمد بن طولون إلى أنهم شاركوا في موكب السلطان قانصوة الغوري عندما زار دمشق في شهر جمادي الأولى من عام ٨٩٢٢/هـ يونية ١٥١٦م. انظر: مفاكهة الخلان، ق٢، ص١١-١٤.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٤٣٧.

يوم مشهود" (١).

ويصف ابن إياس - وهو أحد المؤرخين المعاصرين من أصل مملوكي (من أولاد الناس) - موكب الشريف بركات من بركة الحاج وحتى قلعة الجبل وصفاً شائقاً، وما فعله ابن السلطان الغوري من ركوبه أمام الشريف بركات الذي ارتدى الخلعة التي أرسلها إليه السلطان بصحبة ابن الجيعان، وعندما إقتربوا من قلعة الجبل أمسك بلجام فرسه من اليمين والشمال أمراء المماليك، وعندما وصلوا إلى حضرة السلطان قام له السلطان، ورحب به، وخلع عليه مرة أخرى، ثم نزل من القلعة حيث توجه إلى الدار المعدة لنزوله بالقرب من مدرسة السلطان الغوري (٢).

ومن الجدير بالذكر أن الشريف بركات كان حريصاً كل الحرص على إحضار الأموال والهدايا للسلطان قانصوة الغوري، ويشير العز بن فهد إلى أنه في يوم ٤ صفر تقدم الشريف عرعراً، حاملاً الأموال والهدايا التي أحضرها والده الشريف بركات للسلطان قانصوة الغوري وهي عبارة عن " عشرة آلاف دينار نقداً، وعشرة حوالة على بندر جدة، وعشرين عبداً منها طواشيان، وستة عشر فرساً منها أربعة حصن، وثلاثين هجيناً من هجيننا، وغير ذلك من القماش والتحف" (٣).

وأثناء إقامة الشريف بركات بالديار المصرية احتفى به السلطان قانصوة الغوري احتفاءً كبيراً، فعلى سبيل المثال في يوم الأحد ٩ صفر من عام ١٢٧/٥٩٢١

(١) بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٣٩.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٤٠.

- أولاد الناس : يقصد بأولاد الناس في عصر المماليك أبناء أمراء المماليك، وقد كونت منهم فرقة في الجيش المملوكي، ومنهم من كانت له أعمال أخرى، واشتغل بعضهم بالعلم، فعلى سبيل المثال كان المؤرخ جمال الدين أبوالمحاسن ابن تغري بردي من أولاد الناس. انظر: المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ١، ص ٦٣.

(٣) غاية المرام، ج ٣، ص ٣٠٩، - ٣١٠.

مارس ١٥١٥م استقبله السلطان بالمقياس، وأنزله في القصر الذي أنشأه على بسطة المقياس، حيث قضى معه اليوم بأكمله، وخلال هذا اليوم قدّم له السلطان أسمطة حافلة بكل أنواع المأكولات، كما استقلا مركبًا في النيل، " وانطلقت له النساء من الطيقان بالزغاريت "(١).

وفي يوم الثلاثاء ٢٥ صفر من عام ٩٢١هـ / ١١ أبريل ١٥١٥م حضر الشريف بركات وهو بصحبة السلطان قانصوة الغوري مهرجانًا قام به الرماحة، ثم اصطحبه السلطان إلى البستان الموجود بالميدان، حيث مدّ له سماطا، احتوى على كل أنواع المأكولات<sup>(٢)</sup>. وفي يوم الأربعاء العاشر من شهر ربيع الأول حضر الشريف بركات وهو بصحبة السلطان قانصوة الغوري مهرجانًا آخر قام به أيضًا الرماحة، وهم لابسون الأحمر والخوذ<sup>(٣)</sup>، وفي اليوم التالي (الخميس ١١ ربيع الأول) حضر مع السلطان الاحتفال بالمولد الشريف، حيث أجلسه السلطان في

(١) ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٤٢.

- المقياس: المقصود به مقياس النيل بجزيرة الروضة. انظر: المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٨٤.

- اشتهر السلطان قانصوة الغوري بحبه لرؤية الأزهار، إذ كان مولعًا بغرس الأشجار والبساتين، لذلك أنشأ الكثير من البساتين في القاهرة. انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٥، ص ٨٨؛ وانظر أيضًا: عبد الوهاب عزام: مجالس السلطان الغوري، القاهرة، ١٩٤٩م، ص ١٤.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٤٥.

- الرماحة: يقصد بهم مجموعة من فرق الجيش " رجالة وليسوا فرسانًا " يحملون الرماح، ويؤدون بها بعض ألعاب الفروسية. انظر: محمد بن عيسى: نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية في أمور السلطنة، تحقيق: خالد أحمد السويدي، دمشق، ٢٠٠٩م، ص ٣٩٨-٤٠٠. وعن الفروسية في عصر سلاطين المماليك، راجع كتاب: ابن قيم الجوزية: الفروسية، تحقيق: مجدي فتحي السيد، القاهرة، د.ت.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٤٦.

مرتبة تفوق سائر أمراء المالِك<sup>(١)</sup>. كما حضر بصحبة السلطان يوم الثلاثاء ١٦ ربيع الأول ذلك الاحتفال الذي أقيم بالميدان، وعرضت فيه عروض للحيوانات مثل الأفيال الكبار والسبع والهزبر<sup>(٢)</sup>.

وفي يوم السبت ٢٠ ربيع الأول أرسل السلطان قانصوة الغوري إلى الشريف بركات ليقضي معه تلك الليلة في البستان الذي أنشأه بالميدان، حيث قدّم له الأسمطة المملوءة بالأكل والحلوى والفاكهة، كما أقام له حفلاً ضم مجموعة من المغنيين وأرباب الآلات، ويصف ابن إياس تلك الليلة بأنها " كانت ليلة حافلة من الليالي الملوكية"<sup>(٣)</sup>.

وهكذا احتفى السلطان قانصوة الغوري بالشريف بركات احتفاءً كبيراً لدرجة أن ابن إياس يقرر أن هذا " لم يقع لأحد من أجداده ولا أقاربه"، أي أجداد الشريف بركات أو أقاربه<sup>(٤)</sup>.

وقد صدق المؤرخ ابن إياس في هذه المقولة لأن السلطان قانصوة الغوري أقرّ بذلك في إحدى رسائله إلى الشريف بركات، حيث جاء في تلك الرسالة: "فإن الجناب العالي - أي جناب الشريف بركات - ليس عندنا بمنزلة من تقدم من أسلافه الطاهرة عند الملوك السالفة، بل أعظم من الولد العزيز، وأخص من الأخ الشقيق، وأعز من ضياء العين"<sup>(٥)</sup>.

وقد أرسل الشريف بركات يخبر زوجته الشريفة أم كامل ابنة عجل بن رُميح النموي، قائلاً لها إن السلطان قانصوة الغوري أكرمه إكراماً زائداً، وتجلي ذلك

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٤٧.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٤٨.

- الهزبر: هو الأسد الكاسر. انظر: المعجم الوسيط، ج ٢، ص ١٠٢٣.

(٣) بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٤٩.

(٤) بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٤٩.

(٥) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ٣٠٤.

الإكرام كما يقول العز بن فهد في خمسة أشياء لم تحدث لغيره، وهي :

- ١- " أن السلطان أمر المقرئين بالدعوة للشريف مع السلطان بحضوره".
- ٢- " إذا جاء للسلطان يأمر له بمرتبة يجلس عليها إلى جانبه".
- ٣- " قشر له الفاكهة بيده وناولها له".
- ٤- " أدخله على بعض خواصه من السراري، وأسمعه الجنك والعود".
- ٥- " عزم عليه في المقياس بالروضة، فلما انصرفوا توقف خدام الشريف عن تقدمه نعاله هيبة من السلطان، فوقف السلطان وأمر بتقديمها له، وحصل الشريف بذلك غاية الإكرام"<sup>(١)</sup>.

وبعد أن قضى الشريف بركات قرابة الأربعة أشهر في الديار المصرية أراد العودة إلى مكة المكرمة، فعندما صعد القلعة بصحبة الخليفة العباسي والقضاة الأربعة لتهنئة السلطان بحلول شهر جمادي الأولى من عام ٩٢١هـ / يونيه ١٥١٥م طلب من السلطان الإذن له بالعودة إلى مكة المكرمة، فخلع عليه السلطان خلعة السفر، كما خلع على ولده الشريف ثقبه وصهره عرعر، كما أقر له الولاية على بندر ينبع " يولي من يشاء من تحت يده، ويعزل من يشاء"<sup>(٢)</sup>. وبهذا أصبح متوليًا أمور بلاد الحجاز " ليس لأحد معه كلام " على حد قول المؤرخ العيدروسي<sup>(٣)</sup>.

(١) غاية المرام، ج ٣، ص ٣١٣.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٥٥.

- يذكر العز بن فهد أن السلطان قانصوة الغوري كان قد سبق في شهر ربيع الأول، وخير الشريف بركات إما بالبقاء في مصر، أو العودة إلى مكة المكرمة كيفما يشاء، حيث قال له: " أنت بالخيار إن شئت أقمت، وإن شئت عزمت إلى بلدك، وإذ لك معك ". راجع:

غاية المرام، ج ٣، ص ٣٠٩.

(٣) النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ص ٩٨.

ولاشك في أن هذا الاحتفاء الزائد الذي استقبل به السلطان قانصوة الغوري للشريف بركات في هذا الوقت يجعلنا نتساءل عن الأسباب الموجبة له، على الرغم أنه ومنذ وقت قصير كان قد أشاح بوجهه عنه، وأكثر من ذلك فقد أقدم على عزله عن إمرة بلاد الحجاز !!

من الوهلة الأولى يستطيع الباحث القول بأن هذا الاحتفاء إنما جاء رد فعل لما شمل به الشريف بركات وإخوته وأولاده وأعيان مكة وأشرفها ابن السلطان الأمير محمداً ووالدته من الرعاية والاهتمام أثناء مقامهما بمكة المكرمة لتأدية فريضة الحج لعام ٩٢٠هـ/١٥١٥م.

لكن الحقيقة غير ذلك تماماً، فقد تغيرت الظروف، حيث ظهرت قوة يحسب لها حساب هي قوة بني عثمان الذين أنزلوا هزائم قاسية بالدولة الصفوية، كان أهمها وأشهرها موقعة جالديران في شهر شوال من عام ٩٢٠هـ/نوفمبر ١٥١٤م<sup>(١)</sup>، وما حدث بعد ذلك من تدهور الدولة الصفوية وزوالها تحت أقدام العثمانيين، ثم تحرش السلطان العثماني سليم الأول بدولة المماليك<sup>(٢)</sup>.

ومعنى ذلك أن الدائرة سوف تدور على المماليك، فلم يبق سواهم خارجاً عن يد العثمانيين، وبالفعل دخل العثمانيون في صراع معهم، وأحرزوا عدة انتصارات في شمال الشام عليهم<sup>(٣)</sup>، ومما لاشك فيه فإن السلطان قانصوة الغوري خشي من تطلع العثمانيين لفرض نفوذهم على الحرمين الشريفين، وبذلك يحوزون رضا العالم الإسلامي، الأمر الذي جعله يغير من سياسته تجاه الشريف بركات أمير بلاد

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى في ذيل إتحاف الوري، ج ٣، ص ١٩٦٩.

(٢) ابن أجا: العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، مع رحلة الأمير يشبك من مهدي

الدوادار، صنعة: محمد أحمد دهان، دمشق، ١٩٨٦م، ص ص ٢٣٠-٢٣٣.

- جالديران، مدينة بالقرب من تبريز، وتكتب أيضاً تشالديران. انظر: ابن أجا: العراك،

ص ٢٣٠، هامش ٢٩٢.

(٣) ابن طولون: أعلام الوري، ص ص ٢٤٠، ٢٣٨.

الحجاز، ويحاول التقرب إليه بثتى الطرق، وغمره بالهدايا والخلع، ويتضح ذلك جلياً من سائر المراسيم التي أصدرها السلطان قانصوة الغوري، والذي يمتدحه فيها مدحاً كثيراً<sup>(١)</sup>، وذلك بعد تخوف الشريف بركات تخوفاً كبيراً من السلطان قانصوة الغوري لدرجة أنه لم يذهب إلى الديار المصرية إلا بعد أن منحه الغوري أماناً له ولمن معه من الأشراف وأعيان مكة المكرمة<sup>(٢)</sup>.

ومما يدل على تخوف السلطان قانصوة الغوري من انحياز الشريف بركات إلى جانب العثمانيين قيامه بتخليفه على المصحف الشريف قبل مغادرته الديار المصرية بالأخونه، ولا يخرج عن طاعته مهما حدث على مر الليالي والأيام<sup>(٣)</sup>، وكأن السلطان قانصوة الغوري قد توقع ما سوف يحدث من انتصار العثمانيين على المماليك، وبسط نفوذهم على سائر البلاد التي خضعت زمناً طويلاً للمماليك، ومن بينها بلاد الحجاز، فأراد أن يضمن عدم خروج شريف بلاد الحجاز على السلطنة المملوكية في هذه الحالة، أو كما جاء في نص اليمين "على مر الليالي والأيام".

وعلى كل حال فإن الشريف بركات قبل أن يغادر الديار المصرية أثر شراء عدد من المماليك قدرهم المؤرخ المكي العز بن فهد بـ "خمسة وعشرين مملوكاً"، وهذا بخلاف خمسة مماليك أعطاهم له السلطان "بخيلهم وسلاحهم"<sup>(٤)</sup>. ثم توجه الشريف بركات إلى بلاد الحجاز في يوم الخميس ١٥ من شهر جمادي الأولى من عام ٩٢١هـ / ٢٨ يونية ١٥١٥م، وخرج بصحبته عدد كبير من أهالي القاهرة لأداء فريضة الحج<sup>(٥)</sup>.

وبعد أن وصل الشريف بركات إلى بلاد الحجاز توجه أولاً لزيارة جده

(١) انظر هذه المراسيم عند العز بن فهد، غاية المرام، ج ٣، ص ٣٠٢-٣١٢.

(٢) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ٣٠٥، ٣٠٦.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٥٧.

(٤) بلوغ القرى في ذيل إتحاف الوري، ج ٣، ص ١٩٩٠.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤، ص ٤٥٩.

المصطفى عليه الصلاة والسلام<sup>(١)</sup>، وبعد ذلك توجه إلى مكة المكرمة حيث خرج لاستقباله ابنه الشريف أبونمي محمد ومعه جمع كبير من قضاة مكة وأعيانها وأشرفها وسائر أرباب الحرف بها، حيث التف الجميع حوله حتى دخل المسجد الحرام من باب السلام في مساء يوم الخميس ٦ رجب ٥٩٢١هـ / ١٧ أغسطس ١٥١٥م، ثم طاف وسعى " والناس يضجون له بالدعاء، وأظهروا من الفرح والسرور والمحبة والحبور ما لا يعبر عنه اللسان، ولا يحصره قلم ولا بنان "، على حد قول المؤرخ المكي المعاصر العز بن فهد<sup>(٢)</sup>.

وبعد مغادرة الشريف بركات بن محمد الديار المصرية متوجهاً إلى بلاده تطورت الأحداث في مصر تطوراً سريعاً حيث تزايد العداء بين السلطان المملوكي قانصوة الغوري، والسلطان العثماني سليم الأول، الأمر الذي أدى إلى خروج قانصوة الغوري إلى بلاد الشام لمحاربتة، لكن الهزيمة كانت من نصيب الغوري الذي أصيب بفالج نتيجة هزيمة جنوده في معركة مرج دابق في ٢٥ رجب من عام ٩٢٢هـ / ٢٥ أغسطس ١٥١٦م، حيث سقط على الأرض مغشياً عليه مما أدى إلى أن يقوم أحد رجاله بقطع رأسه حتى لا تُعرف جثته، ويقوم رجال السلطان العثماني بالتمثيل به<sup>(٣)</sup>.

وبعد مقتل قانصوة الغوري اجتمع أمراء المماليك وقرروا تولية الأمير أبي

(١) العز بن فهد: غاية المرام، ج ٣، ص ٣١٩.

(٢) غاية المرام، ج ٣، ص ٣٢١، ٣٢٢.

(٣) ابن زنبل الرمال: آخرة المماليك، تحقيق: عبدالمنعم عامر، القاهرة، ١٩٩٨م ص ٩٧-١٠٤.

- السلطان سليم الأول : هو ابن السلطان أبي يزيد بن السلطان محمد بن غازي مراد خان بن أبي يزيد بن أورخان بن علي أردن بن عثمان الثاني، يذكر ابن إياس أنه استتبأ وفاة والده السلطان أبي يزيد وهو مريض فقتله حتى يتولى الحكم، كما أنه قام بخنق إخوانه، توفي في عام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م. انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٥، ص ٣٦٠، ٣٦٤؛ العيدروسي: النور السافر، ص ١١١.



النصر طومان باي الناصري السلطنة، حيث تلقب بالأشرف في يوم الجمعة ١٤ رمضان من عام ٩٢٢هـ / ١٢ أكتوبر ١٥١٦م<sup>(١)</sup>.

غير أن تولية طومان باي سلطنة المماليك في مصر والشام جاءت في وقت لا يحسد عليه، حيث رأى السلطان العثماني سليم الأول استثمار انتصاره السابق في مرج دابق، وقرر الزحف إلى دمشق، واستولى عليها في شهر شوال عام ٩٢٢هـ / نوفمبر ١٥١٦م، وبعد أن قضى بها بعض الوقت قرر الزحف صوب الديار المصرية، فخرج السلطان طومان باي إلى الريدانية لمواجهة، حيث التقى الجمعان في يوم الخميس ١٩ ذي الحجة من عام ٩٢٢هـ / ٢٣ يناير ١٥١٧م، ودارت الدائرة على السلطان طومان باي، الذي ثبت في المعركة، بينما فر معظم أفراد جيشه، ولم يلبث السلطان العثماني أن قرر الزحف تجاه القاهرة حيث دخلها في يوم الثلاثاء ٥ محرم من عام ٩٢٣هـ / ٢٩ يناير عام ١٥١٧م<sup>(٢)</sup>.

ومن الجدير بالذكر فإنه قد تم الدعاء باسم السلطان سليم الأول على منابر مصر في خطبة يوم الجمعة ٣٠ ذي الحجة من عام ٩٢٢هـ / ٢٣ يناير ١٥١٧م، أي قبل دخول السلطان سليم العثماني إلى القاهرة، ومعنى ذلك أنه وجد داخل القاهرة رجال تابعون للسلطان العثماني، أخذوا في تهيئة الرأي العام المصري لكي يتقبل الحكم العثماني وينتهي بذلك الحكم المملوكي، ويذكر ابن إياس أنه دُعي للسلطان

(١) ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٠٣-١٠٥؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق ٢، ص ٣٥.  
- طومان باي : جركسي الجنس، اشتراه الغوري الذي يتصل به بصلة قرابة، وقدمه إلى الأشرف قايتباي، فصار من جملة مماليكه، ثم أعنته ابنه السلطان الناصر محمد، وفي سلطنة الغوري تولى عدة وظائف كبرى، ثم اختاره الأمراء سلطاناً بعد وفاة الغوري.  
انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٢٠، ١٢٣؛ انظر أيضاً: عبدالمنعم ماجد: طومان باي، القاهرة ١٩٧٨م، ص ٣١، ٤٠.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٤٥، ١٤٦؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ق ٢، ص ٤٣؛ ابن زنبيل الرمال: آخرة المماليك، ص ١٣٣؛ الإشبيلي: الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، بيروت ٢٠٠٤م، ص ١٧٦، ١٧٧.

العثماني بـ " السلطان بن السلطان، مالك البرين والبحرين، كاسر الجيشين، وسلطان العراقيين، وخادم الحرمين الشريفين " (١).

ومن الدعاء السابق يتضح أن السلطان العثماني اعتبر نفسه " خادم الحرمين الشريفين "، فهل معنى ذلك أنه بسط نفوذه على مكة المكرمة والمدينة المنورة، سواء أكان ذلك عن طريق القوة، أم عن طريق السلم والدبلوماسية، أو على اعتبار أنه وريث سلطنة المماليك؟؟

وهذا الأمر يجعلنا نبحث عن علاقة السلطان العثماني سليم الأول ببلاد الحجاز في تلك الفترة. وهل كانت هناك اتصالات بين القائم على أمر بلاد الحجاز الشريف بركات بن محمد بن بركات وبين العثمانيين؟ وما هو موقف الشريف بركات من تلك المعارك التي نشبت بين المماليك والعثمانيين؟

وبالبحث في مختلف مصادر هذه الفترة اتضح أن الشريف بركات أثر الصمت، حتى يتبين له من المنتصر خلال تلك المعارك، وقبّع في بلاد الحجاز دون أن يزج بنفسه في أحداث تلك الفترة، واستمر حاملاً مرسوماً بإقراره هو وولده الشريف محمد بن بركات على إمرة مكة المكرمة من السلطان المملوكي (٢). واستمر ذلك الصمت حتى دخول السلطان سليم الأول القاهرة، واتضح له أن المنتصر هم بنو عثمان، وأن المماليك قد آلت دولتهم إلى الزوال، بعدها أرسل الشريف بركات في ١٥ جمادى الآخرة ٩٢٣هـ / ٤ أغسطس ١٥١٧م وفدًا برئاسة ابنه الشريف أبي نمي محمد ضم مجموعة من أعيان مكة المكرمة لمقابلة السلطان سليم الأول أثناء مقامه بالديار المصرية، وتقديم التهاني له، كما حرص الشريف بركات على أن يرسل إلى السلطان سليم الأول مجموعة من الهدايا الفاخرة، فلم يكن من السلطان سليم الأول إلا أن استقبل الشريف أبا نمي استقبالاً حافلاً، وأكرمه إكراماً زائداً، وأقره هو ووالده

(١) بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٤٨.

(٢) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ٢٠٠.

الشريف بركات على إمرة مكة المكرمة كما كان في زمن المماليك<sup>(١)</sup>.

أقام الشريف أبونمي محمد في ضيافة السلطان سليم الأول ما يقرب من عشرين يوماً، وعندما تقرر عودته إلى بلاد الحجاز ذهب لمقابلة السلطان سليم الأول في مقر إقامته بالريديانية، وأقيم له موكب حافل صحبة إليها، وقد تقدم هذا الموكب رُماة النفط، وعندما قابل السلطان سليم خلع عليه الأخير خلعاً سنياً، كما أصدر السلطان سليم أمره لمعظم أهالي بلاد الحجاز المقيمين بمصر أن يخرجوا لوداع الأمير أبي نمي، كما أصدر مرسوماً بأن يكون الشريف بركات هو المتصرف في كل شئون مكة المكرمة، حيث أضاف إليه نظر الحسبة، والنظر في أمر المجاورين، وهي وظائف كانت في زمن المماليك يتولاها أحد أمراء المماليك<sup>(٢)</sup>، وبذلك يكون السلطان سليم الأول قد غمّر شريف مكة المكرمة بما يستحقه من الاحترام والتكريم، وكما يقول ابن إياس: " وأنصفه غاية الإنصاف، وتزايدت عظمة الشريف بركات إلى الغاية"<sup>(٣)</sup>.

وعلى هذا النحو انتقلت السيادة على مكة المكرمة من يد السلطان المملوكي إلى السلطان العثماني سلماً وبدون قتال ليدخل تاريخها في مرحلة جديدة يمكن أن نطلق عليها اسم مكة المكرمة في ظل الحكم العثماني<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٩٠؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ٢٠٠.

- استمر الشريف بركات بن محمد يتولى إمرة مكة المكرمة في زمن العثمانيين حتى وافاه الأجل في شهر ذي الحجة من عام ٩٣١هـ / سبتمبر ١٥٢٥م، وقد مدحه المؤرخ الشيخ عبدالله مرداد أبو الخير بقوله: " وكان جم الفضائل، شريف الشرائع". انظر: المختصر من كتاب النور والزهر في تراجم أفاضل مكة، تحقيق: محمد سعيد العامودي، جدة، ١٩٨٦م، ص ١٤١.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ص ١٩٣؛ يحيى بن الحسين: غاية الأمان، ق ٢، ص ٦٥٥.

(٣) بدائع الزهور، ج ٥، ص ١٩٣.

(٤) عن وضع بلاد الحجاز في ظل الحكم العثماني، انظر: سيد رجب حراز: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ١٠١؛ عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة، ١٩٩٢م، ج ١، ص ٦٤-٦٦.



# الخاتمة



## الخاتمة

وبعد هذا العرض لتاريخ مكة المكرمة في ظل دولة المالِك تتضح عدة حقائق:

أولاً : سعى المالِك لفرض نفوذهم على مكة المكرمة، وإقامة الخطبة لهم على منابر المسجد الحرام، وذلك حتى يحققوا من وراء ذلك هدفاً سياسياً ألا وهو استكمال شرعية حكمهم بعد أن نظر إليهم البعض نظرة ملؤها الاحتقار، واعتبروهم عبداً مسَّهم الرق، ولا يحق لهم تولي حكم المسلمين، ولذلك أراد المالِك عن طريق بسط نفوذهم على الحرمين الشريفين، وحملهم لقب " خادم الحرمين الشريفين " إزالة هذا الوصف، وأن يصبح لهم الحق في الحكم.

ثانياً : أظهر أشرف مكة المكرمة انحيازهم إلى جانب القوة التي تساندهم وتمدهم بما يلزمهم من مال وغذاء.

ثالثاً : لم يكن لدى أشرف مكة المكرمة من القوة ما يساعدهم على الوقوف أمام قوة المالِك العسكرية، لذلك أظهروا الطاعة لهم.

رابعاً : كان للتنافس الذي نشب بين أشرف مكة المكرمة بعضهم وبعض أثره في توطيد النفوذ المملوكي داخل مكة، حيث استغل بعض من سلاطين المالِك استتجاد بعض أشرف مكة المكرمة بهم، وقاموا بالتدخل في شئون مكة مما ساعد على زيادة بسط النفوذ المملوكي بها.

خامساً: أدى التنافس والصراع بين أشرف مكة المكرمة، وتكالبهم على حكمها إلى تطلع بعض القوى الخارجية لدس أنفها في شئون مكة المكرمة، ومن بين تلك القوى قوة مغول فارس التي تطلعت إلى بسط نفوذها على مكة المكرمة، وإقامة الخطبة لها على منابر المسجد الحرام، لتحقيق من وراء ذلك سيادة العالم التي نادى بها جدُّها الأكبر جنكيزخان.

سادساً: كان لتلك العلاقة العدائية التي وجدت في بعض فترات التاريخ بين أشراف مكة المكرمة وأشراف المدينة المنورة، ومحاولة أشراف المدينة المنورة بسط نفوذهم على مكة المكرمة أثرها في تشكيل تاريخ مكة المكرمة.

سابعاً: كان للعلاقة المتوترة بين أشراف المدينة المنورة وبين المماليك آثار سلبية على مكة المكرمة؛ فمن ناحية أدى ذلك إلى زيادة الفوضى في المدينة المنورة، الأمر الذي أدى إلى تخوف الحجاج من الحضور لأداء فريضة الحج، ومن ناحية أخرى إلى زيادة قبضة المماليك على الحرمين الشريفين حتى لا يخرج حكمهما من أيديهم.

ثامناً: كان لظهور بعض الشخصيات من أشراف مكة المكرمة أثره في أن يعهد إليهم المماليك بحكم بلاد الحجاز كلها، وهو أمر أدى إلى وحدة الحرمين الشريفين.

تاسعاً: كان للاضطراب السياسي الذي شهدته دولة المماليك في أواخر أيامها أثره في اضطراب سياستهم تجاه أشراف مكة المكرمة؛ ففي بعض الأحيان اشتدوا في معاملتهم، وفي أحيان أخرى قربوهم منهم، وذلك خشية انحيازهم إلى بني عثمان أشد أعداء المماليك.

عاشراً: لم تكن توجد وسيلة لحماية قوافل الحجاج والمعتمرين والزائرين من النهب والسلب على يد بعض القبائل العربية سوى القوة، فعندما تضعف سيطرة المماليك، أو يتهاون أشراف مكة في القبض على زمام الأمور تقوم بعض القبائل العربية بالإغارة على قوافل الحجاج مما يثير الرعب والفرع بينهم، ويؤدي ذلك إلى انقطاع الحج والزيارة مما يعود بعواقب اقتصادية سيئة على مكة المكرمة والمدينة المنورة.

حادي عشر: لم يوجه العثمانيون قوة عسكرية إلى مكة المكرمة عقب سقوط دولة المماليك، وفي نفس الوقت فإن الذي سعى إلى الدخول في طاعة العثمانيين هم أشراف مكة المكرمة بعد أن تبين لهم انهيار قوة المماليك وانتصار العثمانيين.



# المصادر والمراجع



## المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

- ابن أبي دينار : أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم (ت ١١١٠هـ/١٦٩٨م) :
  - المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، تونس د.ت.
- ابن الأثير : علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) :
  - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة، ١٩٦٣م.
  - الكامل في التاريخ، نشر دار صار، بيروت، ١٩٩٦م.
- ابن أجا : محمد بن محمود الحلبي (ت ٨٨١هـ/١٤٧٦م) :
  - العراق بين المماليك والعثمانيين الأتراك، مع رحلة الأمير يشبك من مهدي، صنعة محمد أحمد دهمان، دمشق، ١٩٨٦م.
- ابن أبيك الدواداري : أبو بكر بن عبدالله (ت ٧٣٦هـ/١٣٣٦م) :
  - كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع المعروف باسم : الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م، الجزء الثامن المعروف باسم : الدر الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة، ٢٠٠١م.
- ابن أبيك الصفدي : صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) :
  - أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: فالح أحمد البكور، بيروت، ١٩٩٨م.
  - الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وآخرين، بيروت، ٢٠٠٠م.
- الأزرقى : أبو الوليد محمد بن عبدالله (ت ٢٢٣هـ/٨٣٧م) :
  - كتاب أخبار مكة، طبع المدرسة المحروسة بمدينة غنتغة بألمانيا، ١٢٧٥هـ.

- الإشبيلي : علي بن محمد اللخمي (من علماء القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي):
- الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، بيروت، ٢٠٠٤م.
  - الأصفهاني : عماد الدين محمد بن محمود (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) :
  - تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار البنداري، بيروت، ٢٠٠٤م.
  - ابن إياس : أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) :
  - بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٨٢م.
  - البرزالي : أبو محمد القاسم بن محمد (ت ٩٣٧هـ / ١٣٣٨م) :
  - المقتفي على كتاب الروضتين المعروف باسم : تاريخ البرزالي، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، ٢٠٠٦م.
  - ابن بطوطة : أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) :
  - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأبصار، المعروف باسم: رحلة ابن بطوطة، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م.
  - البغدادي : عبدالقادر بن طاهر بن محمد (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م) :
  - الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، د.ت.
  - البلوي : أبو محمد عبدالله بن محمد (من علماء القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) :
  - سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، طبعة الذخائر، القاهرة، ١٩٩٩م.
  - البناكتي : أبو سليمان داود بن أبي الفضل (ت ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م) :
  - روضة أولي الأبواب في معرفة التواريخ والأنساب، ترجمة: محمود عبدالكريم علي، القاهرة، ٢٠٠٧م.

- بيبرس الدوادار : المنصوري (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م) :
- التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق: عبدالحميد صالح حميدان، القاهرة، ١٩٨٧م.
  - زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج٩، تحقيق: زبيدة عطا، القاهرة، د.ت، تحقيق: دونالدس ريتشارد، بيروت، ١٩٩٨م.
- التُّجيبِي : القاسم بن يوسف (ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م) :
- مستفاد الرحلة والاعتراب، تحقيق: عبدالحفيظ منصور، تونس، ١٩٧٥م.
- ابن تغري بردي : جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) :
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١-١٢، نشر دار الكتب المصرية، د.ت.
  - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٤م.
  - الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق: فهمي محمد شلتوت، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) :
- تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، المعروف باسم: رحلة ابن جبير، تحقيق: وليم رايت، طبعة جب التذكارية، عام ١٩٠٧م.
- ابن الجزري : أبو عبدالله محمد بن إبراهيم (ت ٧٣٨هـ/١٣٣٧م) :
- تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، المعروف باسم: تاريخ ابن الجزري، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، ١٩٩٨م.
- الجزيري : عبدالقادر بن محمد (ت ٩٧٧هـ/١٥٦٩م) :
- الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، بيروت، ٢٠٠٢م.

- ابن الجوزي : أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) :
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، طبع دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد - الدكن - الهند، ١٣٥٩هـ.
- ابن حبيب : الحسن بن عمر بن الحسن (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) :
- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٦م.
- ابن حجر : شهاب الدين أحمد (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) :
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، القاهرة، ١٩٦٦م.
  - أنباء الغمر بأبناء العمر، طبع وزارة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن - الهند، ١٩٨٦م.
- الحنبلي : أبو البركات أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م) :
- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، العراق، ١٩٧٨م.
- ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) :
- صورة الأرض، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- الخزرجي : علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ/ ١٤١٠م) :
- العقود اللؤلؤية في الدولة الرسولية، تصحيح الشيخ محمد بسيوني عسل، مطبعة الهلال بمصر، ١٩١١م.
- الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) :
- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، نشر دار الكتاب العربي، بيروت د.ت.
- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) :
- العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة بولاق بمصر، ١٢٨٤هـ.
- ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) :
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٧م.

- ابن داود الصيرفي : الجوهرى على بن داود (ت ٨٨٥هـ/٤٨٠م) :
- نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة، ١٩٨٦م.
- ابن دقماق : إبراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ/٤٠٦م) :
- الجوهر الثمين في سير الخلفاء والسلاطين، تحقيق: سعيد عاشور، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، ١٩٨٣م.
- الذهبي: أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ/١٣٤٧م):
- ذيول العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد، بيروت، ١٩٨٥م.
  - ذيل تاريخ الإسلام، اعتنى به مازن بن سالم باوزير، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٩٩٨م.
  - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت، ٢٠٠٥م.
- الراوندي : محمد بن علي (ت ٥٩٩هـ/٢٠٢م) :
- راحة الصدور وآية السرور، ترجمة: إبراهيم أمين الشواربي وآخرين، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- ابن الربيع : عبدالرحمن بن علي (ت ٩٤٤هـ/٥٣٨م) :
- بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق: عبدالله الحبشي، صنعاء، ١٩٧٥م.
- ابن رُشيد : أبو عبدالله محمد بن عمر (ت ٧٢١هـ/١٣٢١م) :
- ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيية إلى الحرمين مكة والمدينة، الجزء الخامس المعروف باسم : الحرمان الشريفان ومصر والإسكندرية عند الصدور، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.

- رشيد الدين الهمذاني : فضل الله أبو الخير بن موفق الدولة  
(ت ٧١٨هـ/١٣١٨م) :
- جامع التواريخ، ترجمة: محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ابن زنبيل الرمال : الشيخ أحمد الرمال (ت ٩٦٠هـ/١٥٥٣م) :
- آخرة المماليك، تحقيق: عبدالمنعم عامر، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ابن الساعي : علي بن أنجب بن عثمان (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م) :
- تاريخ ابن الساعي، تحقيق: محمد عبدالله قدحات، الأردن، ٢٠٠٩م.
- ابن سباط : حمزة بن أحمد بن عمر (ت ٩٢٦هـ/١٥٢٠م) :
- صدق الأخبار، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، طرابلس، ١٩٩٣م.
- سبط بن الجوزي : يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) :
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، طبع حيدر آباد - الهند، ١٩٥١م.
- السخاوي : محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م) :
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، نشر أسعد طرابيزوني، القاهرة،  
١٩٧٩م.
- التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق: نجوى مصطفى وآخرين، القاهرة،  
٢٠٠٢م.
- السمهودي : نور الدين علي بن أحمد (٩١١هـ/١٥٠٥م) :
- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد،  
بيروت، ١٩٥٥م.
- السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) :
- تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة، ١٩٦٩م،  
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٧٤م.



- أبو شامة : شهاب الدين عبدالرحمن (ت ٦٥٥هـ/١٢٦٧م) :
  - تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف باسم: الذيل على الروضتين، نشر السيد عزت العطار، بيروت، ١٩٧٤م.
- ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٢هـ/١٤٦٨م) :
  - زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راويس، باريس، ١٨٩٤م.
- الشجاعى : شمس الدين الشجاعى (من علماء القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) :
  - تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، تحقيق: بربارة شيفر، القاهرة، ١٩٧٨م.
- الشوكانى : محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ-١٨٣٤م) :
  - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، نشر دار المعرفة عن طبعة السعادة بمصر، ١٣٤٨م.
- الصقاعى : فضل الله بن أبي الفخر (من علماء القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى) :
  - تالى كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: جاكلين سوبلة، دمشق، ١٩٧٤م.
- ابن طباطبا : محمد بن علي (من علماء القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى) :
  - الفخرى فى الآداب السلطانية، نشر دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن طولون : شمس الدين محمد بن علي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م) :
  - مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦٢م.
  - أعلام الورى فيمن ولى نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق: عبدالعظيم حامد خطاب، القاهرة، ١٩٧٢م.
  - نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق: محمد أحمد دهمان، بيروت، ١٩٩١م.

- ابن ظهيرة : جمال الدين محمد جار الله (ت ٩٥٠هـ/١٥٤٣م) :  
 • الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، نشر المكتبة الشعبية، بيروت، ١٩٧٩م.
- العبدري : أبو عبدالله محمد بن محمد (ت ٧٠٠هـ/١٣٠١م) :  
 • رحلة العبدري، تحقيق: علي إبراهيم الكردي، دمشق، ٢٠٠٥م.
- عبدالعزيز بن فهد: العز عبدالعزيز بن عمر بن محمد (ت ٨٥٠هـ/١٤٤٦م):  
 • غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، مكة المكرمة، ١٩٨٨م.
- بلوغ القرى في ذيل اتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق: صلاح الدين خليل وآخرين، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- ابن عذاري : ابن عذاري المراكشي (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م) :  
 • البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س كولان وآخرين، نشر المكتبة الأندلسية رقم ٢٢ ، د.ت.
- ابن عربشاه : شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ٨٥٤هـ/١٤٥٠م) :  
 • عجائب المقدور في أخبار تيمور، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبدالحى (ت ١٠٨٩هـ/١٦٩٠م) :  
 • شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.
- عمر بن فهد : النجم عمر بن فهد بن محمد بن محمد (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م) :  
 • معجم الشيوخ، تحقيق: محمد الزاهي، الرياض، ١٩٨٢م.
- إتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، مكة المكرمة، ١٩٨٤م.
- الدر الكمين بذيل العقد الثمين، تحقيق: عبدالملك بن دهيش، بيروت، ٢٠٠٠م.

- العيدروسى : محيى الدين عبدالقادر بن عبدالله (من علماء القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى) :
- تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، نشر دارالكتب العلمىة، بيروت، ١٩٨٥م.
- العىنى : بدر الدين أبو محمد (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) :
- السىف المهند فى سىرة الملك المؤىد، تحقيق: فهىم محمد شلتوت، القاهرة، ١٩٦٧م.
  - عقد الجمآن فى تاريخ أهل الزمان (عصر سلاطين الممالىك)، تحقيق: محمد محمد أمىن، القاهرة، ٢٠١٠م.
- الغزالى : أبو حامد محمد الغزالى (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م) :
- فضائح الباطنىة، تحقيق: عبدالرحمن بدوى، القاهرة، ١٩٦٤م.
- الغزى : نجم الدين محمد بن محمد (ت ١٠٦١هـ / ١٦٥١م) :
- الكواكب السائرة بأعیان المائة العاشرة، وضع حواشيه خلىل المنصور، بيروت، ١٩٩٧م.
- الفاسى : تقى الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م) :
- العقد الثمىن فى تاريخ البلد الأمىن، تحقيق: محمد حامد الفقى، بیروت، ١٩٨٦م.
  - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: لجنة من كبار العلماء، بیروت، د. ت.
- أبو الفدا : عماد الدين إسماعىل (ت ٧٣٢هـ / ١٢٣١م) :
- المختصر فى أخبار البشر، نشر المطبعة الحسىنىة بالقاهرة، ١٣٢٥هـ.
  - تقوىم البلدان، نشرة مكتبة الثقافة الدىنىة بالقاهرة، ٢٠٠٧م.

- ابن الفرات : ناصر الدين محمد عبدالرحمن (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) :
- تاريخه، تحقيق: قسطنطين زريق وآخرين، بيروت، د.ت.
- ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرازق (من علماء القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) :
- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق: بشار عواد وآخرين، بيروت، ١٩٩٧م.
- ابن قاضي شهبة : أبو الفضل محمود بن أبي بكر (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) :
- تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، دمشق، ١٩٩٤م.
- القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣) :
- أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق: فهمي مسعد وآخرين، بيروت، ١٩٩٢م.
- القطبي : عبدالكريم بن محب الدين (ت ١٠١٤هـ/١٦٠٥م) :
- أعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، تعليق أحمد محمد جمال وآخرين، الرياض، ١٩٨٣م.
- القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) :
- صبح الأعشى في صناعة الانشاء، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر، القاهرة، د.ت.
  - قلائد الجمان في التعريف بعرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الإبياري، القاهرة، ١٩٦٣م.
- ابن قيم الجوزية : أبو عبدالله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م) :
- الفروسية، تحقيق: مجدي فتحي السيد، القاهرة، د.ت.
- الكتبي : محمد بن شاکر (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) :
- فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٣م.

- ابن كثير : أبو الفدا إسماعيل (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) :  
 • البداية والنهاية، نشر مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٥م.
- محمد بن عيسى : محمد بن عيسى بن سعيد الأوسي (من علماء القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي):  
 • نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية في أمور السلطنة، تحقيق: خالد أحمد الملا السويدي، دمشق، ٢٠٠٩م.
- محيي الدين بن عبدالظاهر: أبو الفضل عبدالله بن رشيد الدين (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م) :  
 • تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م.
- أبو مخرمة : أبو عبدالله الطيب بن عبدالله (ت ٩٤٧هـ/١٥٤٠م) :  
 • تاريخ ثغر عدن، اعتنى به علي حسن علي عبدالحميد، بيروت ١٩٨٧م.
- المرتضى الزبيدي : أبو الفيض محمد بن محمد (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩١م) :  
 • ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٧١م.
- المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) :  
 • مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، ١٩٨٣م.
- المقرئزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) :  
 • المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف باسم خطط المقرئزي، طبع بولاق بمصر، ١٢٧٠هـ.
- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٥م.

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ١٩٥٧م وما بعدها، ج٣، ج٤ تحقيق سعيد عاشور عام ١٩٧١م وما بعدها.
- اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج١، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٧م، ج٢، ج٣ تحقيق: محمد حلمي، القاهرة، ١٩٧١م.
- ابن مماتي : أسعد بن المهذب بن مليح (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) :
- قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٩١م.
- ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد (ت ٧١١هـ/١٣١١م) :
- لسان العرب، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرين، القاهرة، د.ت.
- النابلسي : أبو عثمان الصفدي (من علماء القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) :
- لُمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.
- النهروالي : بهاء الدين بن يعقوب (ت ٩٩١هـ/١٥٨٣م) :
- كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، طبع بمدينة غتتغه بألمانيا، ١٢٧٤هـ.
- النويري : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م) :
- نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٩، تحقيق: محمد ضياء الدين الرئيس، القاهرة، ١٩٩٢م، ج٣٠، تحقيق: محمد عبدالهادي شعيرة، القاهرة، ١٩٩٠م، ج٣٢، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ابن واصل : جمال الدين محمد سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) :
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٣، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٠م، ج٤، تحقيق: حسنين محمد ربيع، القاهرة، ١٩٧٢م، ج٦، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، ٢٠٠٤م.

- اليافعي : أبو محمد عبدالله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م) :
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان، تحقيق: خليل المنصور، بيروت، ١٩٩٧م.
- ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) :
- معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.
- يحيى بن الحسين : يحيى بن الحسين بن القاسم (ت ١١٠٠هـ/٦٨٩م) :
- غاية الأمان في أخبار قطر اليماني، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٦٨م.
- يوسف الملواني : يوسف بن محمد المعروف بابن الوكيل (ت ١١٨٤هـ تقريبًا / ١٧٧٠م تقريبًا) :
- تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق: عبدالرحمن عبدالرحيم، القاهرة، ١٩٩٨م.
- اليوسفي : موسى بن محمد بن يحيى (ت ٧٥٩هـ/١٣٥٨م) :
- نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيظ، بيروت، ١٩٨٦م.
- اليونيني : أبو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) :
- ذيل مرآة الزمان، نشر وزارة التحقيقات الحكيمة، حيدرآباد-الهند، ١٩٦٠م.

### ثانيًا : المراجع العربية والمعرّبة والأجنبية :

- إبراهيم علي طرخان :
- مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، ١٩٦٠.
- أحمد السعيد سليمان :
- تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة، ١٩٧٩م.
- أحمد عبدالرازق :
- البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٩م.
- أحمد عيسى :
- تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق، ١٩٣٩م.

- السيد الباز العريني :  
• الدولة البيزنطية، بيروت، ١٩٨٢م.
- برتولد شبولر :  
• العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد أسعد، دمشق، ١٩٨٢م.
- بروكلمان :  
• تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، بيروت، ١٩٤٨م.
- حافظ أحمد حمدي :  
• الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، القاهرة، ١٩٥٠م.
- حامد زيان. غانم :  
• الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٦م.
- صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك، القاهرة، ١٩٧٨م.
- الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٨٣م.
- نهاية الإسماعيلية، مقال في كتاب سعيد عاشور في عيد ميلاده السبعين، القاهرة، ١٩٩٢م.
- مصر في العصر الأيوبي، القاهرة، ٢٠١١م.
- المماليك، التاريخ السياسي، القاهرة، ٢٠١١م.
- حسن إبراهيم حسن :  
• تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٦٤م.
- حسين مؤنس :  
• تاريخ المغرب وحضارته، نشر الدار السعودية للنشر، مكة المكرمة، ١٩٩٠م.



- رجب محمد عبدالحليم :
- انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة، ١٩٨٦م.
- زامباور :
- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة: زكي محمد حسن، القاهرة، ١٩٥١م.
- سعيد عاشور :
- قبرس والحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٥٧م.
- العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥م.
- سيد رجب حراز :
- الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية، القاهرة، ١٩٧٠م.
- الشاطر يصيلي :
- الكارميه، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ١٣، عام ١٩٦٧م.
- عبدالعزيز الشناوي :
- الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة، ١٩٩٢م.
- عبدالسلام عبدالعزيز فهمي :
- تاريخ الدولة المغولية في إيران، القاهرة، ١٩٨١م.
- عطية القوصي :
- تجارة مصر في البحر الأحمر، القاهرة، ١٩٧٦م.
- علي بن حسين السليمان :
- العلاقات الحجازية المصرية زمن المماليك، القاهرة، ١٩٧٣م.
- عمر رضا كحالة :
- معجم قبائل العرب، بيروت، ١٩٨٥م.

- فايد حماد عاشور:
- العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، القاهرة، ١٩٧٦م.
- فؤاد عبدالمعطي الصياد:
- السلطان محمود غازان، القاهرة، ١٩٧٩م.
- الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة، ١٩٨٧م.
- كراتشكوفسكي:
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين هاشم، القاهرة، ١٩٦٣م.
- محمد جمال الدين سرور:
- مصر في عصر الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٦٠م.
- النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، القاهرة، ١٩٦٤م.
- دولة الظاهر بيبرس في مصر، القاهرة، د.ت.
- محمد رمزي:
- القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م.
- محمد عبدالغني الأشقر:
- نائب السلطنة المملوكية في مصر، القاهرة، ١٩٩٩م.
- المعجم الوسيط:
- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٨٥م.
- Ostrogorsky:
- History of the Byzantine State, Oxford 1956.

## الفهرست :

٢	المقدمة
٧	الباب الأول مكة المكرمة والمماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤ هـ / ١٢٥٠-١٢٨٢ م)
٩	الفصل الأول : النفوذ المملوكي في مكة المكرمة
٤٥	الفصل الثاني : تنافس بنى رسول مع المماليك حول مكة المكرمة
٥٥	الفصل الثالث : مكة المكرمة في ظل حكم الشريف أبى نمنى
٦٥	الفصل الرابع : الصراع بين أشراف مكة المكرمة وأثره على الوضع الداخلي بها
٨١	الفصل الخامس : مكة المكرمة زمن الشريف عجلان بن رميثة
٩٧	الفصل السادس : العلاقات بين أشراف مكة المكرمة وأشراف المدينة المنورة
١٠٥	الفصل السابع : علاقة سلاطين المماليك بأشراف المدينة المنورة وأثرها على مكة المكرمة
١١٧	الفصل الثامن : النفوذ المغولي بمكة المكرمة
١٣٩	الباب الثاني : مكة المكرمة والمماليك الجراكسة [ ٧٨٤-٥٩٢٣ / ١٣٨٢-١٥١٧ م ]
١٤١	الفصل الأول : ازدياد نفوذ المماليك الجراكسة بمكة المكرمة
١٥٣	الفصل الثاني : مكة المكرمة زمن الشريف حسن بن عجلان
١٦٥	الفصل الثالث : توحيد الشريف حسن بن عجلان بلاد الحجاز تحت إمرته
١٧٩	الفصل الرابع : تمسك سلاطين المماليك بالشريف حسن بن عجلان
١٩١	الفصل الخامس : توتر علاقة الشريف حسن بن عجلان بالسلطان الأشرف برسباي
٢٠٣	الفصل السادس : الشريف بركات بن حسن عجلان وعلاقته بالسلطنة المملوكية
٢٢٩	الفصل السابع : الأوضاع السياسية في مكة المكرمة في عهد الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان
٢٥٥	الفصل الثامن : مكة المكرمة أواخر عصر المماليك الجراكسة
٢٨٥	الخاتمة :
٢٨٧	المصادر والمراجع :





